صندوق رسائل

وليد نبيه

صندوق رسائل

وليد نبيه

الطبعة الأولى (يناير ٢٠١٧)

تصميم الغلاف: محمد محسن

المراجعة اللغوية: هبة النجار ـ التنسيق الداخلي: إسلام علي

مدير النشر: هند عبد الله (نور مانجا)

إشراف عام: رباب الشهاوي

رقم الإيداع: 2016/2656م

الترقيم الدولي: 978-977-6534-25-4



Alfouad_publishing@hotmail.com
facebook.com/fouadpublishing



صندوق رسائل

(رواية)

وليد نبيه



♥ إهداء ♥

إلى أبي وأمي

أثمن عطايا الله لي إلى الأبد

كانت كشعاع الشمس في صباح يوم الشتاء..

تنظر إليها فتملأ روحك البهجة..

وتقترب من نورها فيهتز قلبك طربًا ودفئًا..

كانت الحب مجسدًا في صورة امرأة..

لا يعرف قيمة الحياة إلا من هو مقبل على تجاوز باب الرحيل..

هكذا يبقى حال كل شيء في الدنيا، لا نعرف لذة الماء إلا عند الظمأ، ولا نشعر بقيمة الهواء إلا عندما تعجز الرئتان عن حركة الشهيق والزفير..

والآن في تلك اللحظات تحديدًا أشعر بأشياء كانت قد فقدت معناها بالنسبة لي منذ وقت طويل، لا أعرف كيف استطاع عقلي أن يستعيد كل تلك الذكريات والأفكار وأنا ملقى على الأرض مفترشًا دون إرادتي أوراق الأشجار المختلطة بالطين والفروع الجافة المهشمة، ورائحة الطين المختلط بالبنزين الذي تسرب من السيارة المقلوبة تملأ أنفي، وقد بدأت الشمس تفقد اهتمامها بي بعد عدة ساعات من الرفقة، ووجدتْ أنه لا أمل من البقاء فقررتْ الانسحاب في هدوء وتركي لمصيري الذي سيحدده القدر، بينما بدأت الطيور تحوم في السماء في سرعة تحاول كل منها أن تجد عشها بين الأشجار قبل أن تظلم السماء ويصبح أمر العودة مستحيلًا.

صوت الطيور وهي تنادي بعضها منذرة باقتراب الغروب، وتلك الثورة التي حجبت السماء من مختلف الأنواع هي كل ما استطعت أن أرى في ذلك الوقت؛ إذ لم أكن قادرًا على الحركة وقد علق جسدي تحت السيارة الضخمة التي انقلبت بنا لتحتجز نصف جسدي تحت قوائمها الحديدية وتشل حركتي تمامًا، ربما حتى يجدني شخص ما أو يسبقه إليّ أسد جائع بينما أرقد كالفريسة المقيدة بلا حول في تلك الغابة المجهولة.

حاولت الالتفات بجسدي إلى أقصى ما استطعت أبحث عن (فريد **Fred**) أو (راموس **Ramos**) رفيقي رحلتي الأوغنديين لكن عيني لم تجد أمامها سوى الحشائش الطويلة التي تحيط بي وبكل شيء لتحجب عني الرؤية.

لم يكن وقتًا مناسبًا لكي ألعن تلك الفكرة التي قادتنا إلى هذا الوضع، لكن عقلي ظل بلا هوادة يستعيد الأحداث، وكأنه يصر على تذكيري بمدى الخطأ الذي وقعت فيه عندما وافقت على الدخول إلى تلك الغابة المجهولة.

ـ "(فريد)!"

صرخت مناديًا بكل ما أوتيت من قوة، فخرج صوتي باهتًا مختلطًا بأنفاسي اللاهثة. سحبت نفسًا عميقًا وعدت أهتف من جديد:

ـ "(راموس)! أين أنتم؟"

بلا فائدة، تتلاشى صرخاتي في الفضاء الشاسع دون إجابة، فأعاود الصراخ مرات أخرى دون أن يجيبني شيء سوى رفرفة أجنحة الطيور في السماء وأصوات بعض القردة التي تلهو فوق الأشجار.

لحظة من السخرية مرت بي جعلتني أضحك رغم الموقف القاسي الذي أمر به الآن؛ فمنذ أيام وقبل سفري إلى (أوغندا) لم يكن الموت والحياة يختلفان عندي، بل ربما كان الموت في بعض اللحظات أفضل عندي من البقاء مثل جسد ذهبت عنه الروح وأصبح كالموتى الأحياء على وجه الأرض لا يشعر بشيء ولا يهتم لشيء على الإطلاق.. مجرد كائن آخر ممن تزدحم بهم الطرقات، ولا طائل من وجودهم في الحياة.

والآن لا أدري لماذا يتملكني الخوف من الموت وسط تلك الغابة! وربما كما يعمل جهاز الصدمات لإنعاش القلب الذي توقف كي يعيده إلى الحياة، كان الاقتراب من الموت وسيلة عودتي إلى الحياة كي أستعد للموت مرة أخرى في تلك الغابة؛ إذ كيف يموت من هو فعلياَ ليس على قيد الحياة!؟

لابد أنني قد جُرحت لأنني أشعر بالألم، وبالبرودة تتسلل إلى جميع أنحاء جسدي تحاول أن تحثني على فقدان الوعي، وأفكار تعبث برأسي كي أستسلم لتلك الرغبة الملحة في أن أغمض عيني مستسلمًا للأمر، لكنني أقاوم ذلك الشعور جاهدًا؛ فمن حقي أن أعرف على أي صورة سيأتيني الموت.

ترتخي جفوني تدريجياَ فأرفع حاجبي كأنني أجذبها كي تظل عيناي مفتوحتين رغمًا عنها، وصوت حركة غريبة وسط الأشجار يجعلني أجفل، فأفتح عيني حتى آخرهما أنظر حولي في خوف من بين الحشائش لعلي أعرف ما الذي يتحرك، وعندما لا أرى شيئًا أحاول طمأنة نفسي بأن الأمر سيكون سريعًا، ولن أشعر بالألم عند الموت.

الموت!

أذكر اليوم الذي فكرت فيه في ذلك الأمر للمرة الأولى في حياتي..

كنت طفلًا صغيراَ..

لكنني مازلت أذكر ذلك اليوم كثيراَ كأنه بالأمس القريب..

وقفت يومها بجوار سريرها بقامتي الصغيرة كسنوات عمري الخمس، أنظر إليها وهي ممددة في سكون مغمضة عينيها، وأخذت أحدق في ملامح وجهها والذعر يملأ كياني..

- "أمي، هل تموتين؟"

فتحت عينيها تنظر لي، وابتسمت لتساؤلي الساذج، ثم مدت يدها لتضعها على كتفي:
ـ "لا يا حبيبي، ليس بعد.."
نظرت إليها في عدم فهم، وأنا أحاول كبح جماح خوفي:
ـ "متى إذن؟"
هزت رأسها وهي تقول:
ـ "لا أدري.. لا أحد يدري متى يموت"
لم تسعفني سنوات عمري القليلة على فهم ما تعني؛ فخبرتي في الحياة لا تتجاوز أفلام السينما التي يمرض فيها المرء ثم يموت بعدها بدقائق، ولم تستطع إجابتها أن تشفي تساؤلي.
ـ "لماذا يموت الناس؟"
ترددت لحظة، وكأنها تبحث عن إجابة تناسبني..
ـ "إنها سنة الحياة، يموت الناس إذا تقدم بهم العمر كثيراَ، أو يشاء الله أن ينتهي أجل أحدهم قبل ذلك فيمرض مرضًا ليس له علاج"
ـ "أنت مريضة الآن، أليس كذلك!؟"
ـ "لست مريضة، هذا مجرد تعب عارض وسأكون بخير في الصباح إن شاء الله"
تنفست الصعداء وقد ارتاحت نفسي قليلًا، فعادت تربت على كتفي وتبتسم:
ـ "على أي حال لا تقلق فلن أموت الآن.. ولا تفكر في هذه الأمور السيئة"
ثم ضمتني إلى حضنها في حنو، وتسلل دفء قلبها إلى نفسي، فاستكنت بين ذراعيها لحظات أستمتع بذلك الدفء قبل أن أسأل:
ـ "هل يتألم المرء عند الموت؟"
مررت يدها على شعري المجعد، ثم قالت:
ـ "لا تخف.. الموت كالنوم لا ألم فيه"
وضمتني في حنان، فعدت أقول في رجاء:
ـ "أمي، أريد أن نموت في وقت واحد"
ابتسمت وهي تقول:
ـ "لا يا حبيبي لا تقل هذا.. سوف أموت أنا عندما أصبح عجوزًا، وستكون أنت مازلت شابًا جميلًا أمامك عمرًا طويلًا لتحياه"

دمعت عيناي، وأنا أقول:
ـ "لا أريد أن أحيا وحدي. هل يمكنني أن أطلب من الله أنه إذا حان وقت الموت فليكن لنا سويًا؟"
ثم نظرت في وجهها مستوثقًا في خوف:
ـ "أنت قلتِ أنه لا ألم في الموت.. أليس كذلك؟"
ضحكت وهي تضمني إلى حضنها أكثر وهي تقول:
ـ "لا يا نور عيني لا ألم.. لا تخف.. لا تخف أبدًا"

ـ "(يوسف)!"
كان صوت (فريد) يختلط ببعض الصدى وكأنه يأتي من مكان بعيد، أعاد صوته الدماء إلى عروقي بعض الشيء.
ـ "(فريد)، هل أنت بخير؟"
ـ "أعتقد ذلك"
كان صوته حائرًا مرتجفًا، لكنه منحني شيئًا من الاطمئنان وأغمضت عيني أتمتم بالحمد لله على نجاته من الموت، قبل أن أسأله في سرعة من جديد:
ـ "أين أنت؟"
تأخر لثوانٍ في الإجابة، وكأنه يبحث عن الكلمات المناسبة أو يحاول استيعاب موقعه.
ـ "يبدو أنني في حفرة ما"
رددت الكلمة تلقائيًا محاولًا استيعاب الأمر.
ـ "حفرة! كيف!؟"
قال في حيرة ممتزجة بالألم:
ـ "لا أدري، ربما سقطت فيها عندما قفزت من السيارة بعد أن هاجمنا ذلك الفيل المجنون، لكن ذاكرتي توقفت تمامًا عند تلك اللحظة ولا أذكر شيئًا مما حدث بعدها"
لم أكن أستطيع الحركة لأصل إليه؛ إذ كنت لا أستطيع الإفلات من قبضة السيارة التي تحتجزني.
ـ "هل يمكنك الخروج من تلك الحفرة؟ هل هي عميقة؟"

ـ "ليست عميقة إلى حد كبير، لكن يبدو أن ساقي قد كسرت من أثر السقطة ولن أستطيع التسلق وحدي، هل يمكنك مساعدتي هنا؟"

أجبته في يأس وصوتي يرتجف دون إرادتي من البرد:

ـ "للأسف لستُ أفضل حالًا منك، أنا محتجز تحت حطام السيارة ولا أستطيع تخليص جسدي"

جاء صوت (فريد) يحاول إدعاء بعض الثبات:

ـ "لا بأس.. سوف نجد حلًا"

قلت محاولًا مجاراته:

ـ "بالتأكيد هناك طريقة للخلاص"

ـ "هل رأيت (راموس)؟"

ـ "لا، لم يجب ندائي أيضًا!"

صرخ (فريد) بأعلى صوته مناديًا:

ـ "(رااااموس)!"

مرات عديدة كرر فيها الاسم بلا جدوى من المحاولة، ولا رد سوى ببعض الأصوات من القردة على الأشجار، وبدا جليًا أن (راموس) قد أصابه أمر ما.

انطلقت نغمات هاتفي المحمول من مكان قريب، كان جرس المنبه يذكرني بموعد جرعة دواء (الملاريا)، فخفق قلب (فريد) بالأمل الذي بدا على صوته وهو يسأل:

ـ "هل أسمع جرس هاتف نقال؟"

كنت قد وضعت هاتفي في حقيبة الظهر الصغيرة التي كانت معي، لكنها سقطت بعيدًا عني مع انقلاب السيارة.

ـ "لا يا (فريد)، إنه جرس المنبه لكن الهاتف ليس في متناول يدي، أين هاتفك؟"

ـ "نعم.. دعني أبحث، لكنني لا أعتقد أننا سنجد شبكة اتصال هنا"

ـ "أخبرني أنك وجدته أولًا"

تردد لحظات قبل أن يقول:

ـ "لقد وجدته بالفعل.. لكنه لا يعمل؛ لقد ابتلت بطاريته تمامًا"

عدت أنظر إلى الشمس التي أوشكت على الاختفاء وقلبي يخفق في شدة، كانت مخاوفي العظمى في ذلك الوقت هي أن يحل الظلام ونحن مقيدا ن في هذا المكان.. لم أفكر يومًا

أنني قد أموت بين أنياب حيوان ما، تلك الميتة غير الشاعرية على الإطلاق بالنسبة لي، ولم تكن طموحاتي في الموت أكبر من أن أموت هادئًا في فراشي بلا ألم أو مرض.

عاد (فريد) يقول في سرعة، وكأنه تنبه إلى الأمر:

ـ "جهاز اللاسلكي في السيارة. لن نحصل أبدًا على إشارة لشبكة اتصال على الهاتف المحمول، لكن ربما يمكننا التقاط إشارة للنجدة عبر اللاسلكي"

رفعت رأسي على الفور محاولًا البحث عن ذلك الجهاز داخل السيارة، فتشت كل الأجزاء التي أمكنني الوصول إليها، لكنني لم أجد سوى قداحة (راموس) وسجائره.

هززت رأسي في أسى، وأنا أقول:

ـ "لا يوجد شيء.. ربما قذفه الاصطدام إلى مكان لا أستطيع الوصول إليه"

صمت (فريد) لحظات قبل أن يقول في صوت يائس:

ـ "لا يوجد هاتف محمول ولا جهاز لاسلكي ولا مزيد من البشر المعتوهون في تلك الغابة، ألم يتبق لنا من الاختيارات سوى أن نموت في محبسنا هذا جوعًا!؟"

ـ "لا أدري يا (فريد)، لكن إن كانت هذه فقط هي الخيارات المتاحة أمامنا، فأنا أفضل الموت جوعًا عن أن يلتهمني حيوان جائع"

صمت (فريد) لحظات، ولابد أن كلماتي قد أثارت المزيد من الخوف في نفسه أكثر مما اعتقدت، حتى أنني شعرت بالندم وبدأت أفكر في قول ما يصلح أثر تلك الكلمات غير المحسوبة.

ـ "(فريد).."

قاطعني هو في سرعة:

ـ "لا أعتقد أن حيوانًا قد يستطيع النزول إلى تلك الحفرة، أليس كذلك؟"

قالها في ثقة كاذبة وصوته يقطر خوفًا رغمًا عنه تشي به أنفاسه اللاهثة وصوته المرتجف، كان يريد أن يبث بعض الطمأنينة إلى نفسه، فعدت أشاركه تلك المحاولة في استقطاب الأمل رغم أن الأمر كان دراميًا إلى حد يثير السخرية.

ـ "لا تقلق يا (فريد).. بالتأكيد سوف نجد حلًا يخرجنا من هذه الورطة قبل أن يأتي الوقت الذي نخشى فيه الجوع أو الحيوانات"

قال (فريد) في رجاء:

ـ "لابد أن الله سينجينا من أجل (ماريا)؛ فليس لها في هذه الدنيا سواي، ولا أريد لقلبها أن يتألم لفقدي"

تذكرت (ماريا) زوجته، تلك المرأة الحنون الطيبة التي لم أقابل مثلها كثيراَ في حياتي، وتذكرت أبي و(ريم). ليتني أستطيع أن أستمع إلى صوت أبي في تلك اللحظات، أو أكتب لك يا (ريم) الخطاب الأخير في رحلتي هذه!

ـ "بالتأكيد يا صديقي، سوف تعود إليها سالمًا.. بالتأكيد لا تخف"

كنت أحاول دفع بعض الأمل الكاذب إلى قلبه، لكنني كنت أعلم يقينًا أنه لا مفر لنا من تلك الغابة سوى معجزة تنقذنا من السماء.

عزيزتي ريم..

وصلت لتوي إلى الفندق..

لم أفعل شيئًا بعد مهاتفة والدي أطمئنه أنني قد وصلت سالمًا إلى (أوغندا) سوى الجلوس أمام (اللاب توب) لأكتب إليك أول خطاباتي كما طلبتِ، ولعلك الآن نائمة منذ ساعات، لكنني أحببت أن تستقبلي رسالتي عند استيقاظك تأكيدًا لتنفيذي ما اتفقنا عليه دون إخلال.

وصلت طائرتي مطار (عنتيبي) قبيل الفجر، ساحة ضخمة شبه مظلمة تلك التي توقفت بها الطائرة وكأنها مخزن قديم مهجور، لم تكن توقعاتي مبهرة بشأن المطار هنا، لكنها لم تكن تصل إلى هذا الحد. كان في استقبالي أحد موظفي الشركة المضيفة، رجل لفتتني إليه ملامحه المصرية الصميمة وتلك الابتسامة على شفتيه وسط الوجوه المتجهمة قبل أن ألتفت إلى اسمي المدون على اللوحة التي يرفعها أمامه، عرّفني الرجل بنفسه ورحب بي وكأنني صديق قديم، لا أدري لماذا يصر الجميع على عادة التقبيل هذه ولا يكتفون بالمصافحة العادية وحسب!؟ قام بعد ذلك بإنهاء إجراءات خروجي من المطار في سرعة تعجبت لها، وخاصة أنه جعلني أتخطى طابور الانتظار الطويل بمساعدة أحد رجال الأمن هناك، أخبرني الرجل الذي عرفت خلال الطريق أن اسمه (حسين) أنه مسؤول العلاقات العامة في الشركة، وبدا لي من الحديث معه أن له بعض العلاقات القوية في (أوغندا) بحكم طبيعة عمله.. ساعة طويلة قضيناها في ذلك الطريق المخيف من المطار قبل أن نصل إلى الفندق.. توقعاتي أيضًا لم تخالف ما رأيته كثيراً، بلد إفريقي فقير آخر.. لكن ما زاد على ما توقعت أن هذه البيوت أو (العشش) الصغيرة المصنوعة من الطوب وألواح الصاج والخشب توجد بامتداد طريق المطار.. لم أكن أعتقد أن الناس هنا يعيشون في مثل هذه البيوت، ولا أن الطريق الضيق الذي لا يتجاوز عرضه في بعض المناطق خمسة أمتار والممتد من المطار حتى العاصمة (كمبالا) غير مضاء تقريبًا، والسيارات تسير فيه في كلا الاتجاهين بصورة تكاد تجعل النجاة من الحوادث أمرًا عسيراً على السائق المحترف.

(كمبالا) بدت مختلفة، وكأننا انتقلنا إلى الجانب المتحضر من البلاد؛ فما إن بدأنا نخطو فوق الإسفلت حتى ظهرت بعض المباني الراقية التي يحمل معظمها لوحات مضيئة لبنوك أو شركات كبرى، أخبرني مرافقي أن هذه هي منطقة الأعمال، والتيت فيها أغلب

الفنادق والشركات، ثم أشار إلى أننا اقتربنا من الفندق وهو يطلب من السائق أن ينعطف في اتجاه ما.

الفندق الذي حجزت به يبدو أنيقًا بداية من بوابته الضخمة، وحديقته الشاسعة التي لم يتسن لي رؤية معالمها بشكل واضح في الظلام، وبدا من طريقة موظفي الاستقبال في التعامل أن الشعب الأوغندي شديد الطيبة والحفاوة، إن كان هذا الرجل مثالًا حقيقيًا لقومه، وليس مجرد موظف يؤدي دوره المحدد بإتقان.

مسؤول العلاقات العامة بالشركة يعرف موظف الاستقبال هنا أيضًا، ولم يتركني حتى حصلت على مفتاح غرفتي، وتحدث قليلًا مع موظف الفندق بلغة ما ربما هي إحدى اللغات المحلية، ثم التفت نحوي قائلًا بالعربية أنه طلب منه أن يوفر لي أقصي درجات الاهتمام، حيث أنني أحد الرجال المهمين لعمله، ثم أخبرني أن مدير الشركة سيكون في انتظاري في بهو الفندق في الواحدة والنصف بعد ظهر اليوم، قبل أن يتمن لي نومًا هادئًا وينصرف.

أثاث الغرفة رائع، واتساعها وتناسق الديكور فاق ما توقعت حقًا.

لا يمكنني أن أقاوم النوم الآن، لكن ما قرأت على بعض المواقع عن الحشرات هنا يصيبني بالتوتر قليلًا. سأحصل على حمام ساخن، ثم أقوم برش جسدي بذلك البخاخ المضاد للناموس الذي أحضرته معي احتياطًا قبل النوم. لابد أنكِ ستضحكين عند قراءة هذه الكلمات، لكنني حقًا لا أعلم لماذا أخشى الكائنات الصغيرة التي لا تسهل رؤيتها، والحشرات الزاحفة أكثر بكثير من أي شيء آخر.

سأكتب لكِ اليوم بمجرد استيقاظي..

أتمنى لكِ أحلامًا سعيدة..

تصبحين على خير..

عزيزتي ريم..

استيقظتُ منذ دقائق وقد تخطت الساعة الثانية عشرة ظهرًا. لابد أنني كنت بحاجة شديدة للنوم؛ إذ لم أستيقظ على رنين هاتفي المحمول الذي وجدت على شاشته خمسة اتصالات من الشركة في مصر.

والحقيقة أنني توقعت أن تتصلي بي أيضًا..

لكن يبدو أنك تنفذين الاتفاق فعلًا، ولا أدري حقًا لم قطعتِ عليّ ذلك الوعد بأن أكتب لك يوميًا دون أن نتحدث..

ألم يكن من الأفضل أن أتصل بك تليفونيًا بدلًا من تلك الرسائل الإلكترونية!؟

لقد تقدم الزمن وأصبحت وسائل الاتصال أكثر سهولة ولم تعد الرسائل تستخدم سوى في المعاملات التجارية للإثبات والتوثيق.

هل تريدين أن أكتب إليك كي تحتفظي بأدلة تدينني في أمر ما؟ إن كان هذا هو مبتغاك فأخبريني، وسأمنحك اعترافًا مكتوبًا بكل ما تريدين، ثم اقبلي أن نعود لزمن المحادثات التليفونية من جديد.

أعتقد أيضًا أن تلك الرسائل الباهتة لا تليق بشخص مثلك؛ فأغلب الذين يفضلون الرسائل النصية هم الأشخاص الذين يتكاسلون عن استخدام حواسهم، هؤلاء الذين يضنون بالابتسام في وجهك إن كان بإمكانهم أن يكتفوا بإرسال وجهٍ سخيف ضاحك بعد كلماتهم بينما هم يفعلون شيئًا آخر بذات الإهمال والبرود.. حياة بلا معنى، مجموعة من المشاعر والأيقونات الصفراء المصنوعة دون إحساس حقيقي.

بمناسبة ذكر تلك الأيقونات، لم أتصل سوى بأبي كي أطمئنه أنني بخير وأن الأمور هنا على ما يرام، واكتفيت بإرسال بريد إلكتروني إلى مديري في الشركة أخبره بوصولي إلى (كمبالا) ملحقًا إياه بذلك الوجه الباسم الأصفر إذ لا أجد في نفسي الرغبة في تلك المحادثة التي يستمر فيها السؤال عن (كيف الحال؟) مع تكراره طوال الحديث بعشرين صياغة مختلفة ليس لها إجابة في كل مرة سوى أن (الحمد لله)!

مازلت أشعر أنني بحاجة للمزيد من النوم، ولم أكن أحب أن أفارق غرفتي اليوم، لكن يجب أن أستعد لمقابلة مدير الشركة بعد قليل.

لقد أضعت موعد الإفطار، ولا أدري بعد ما الذي كنت سأستطيع أكله في هذا البلد، وخاصة مع تلك التحذيرات المنشورة للمسافرين على مواقع الإنترنت.

سوف أغتسل وأصلي، ثم أذهب للبحث عن شيء يصلح للأكل في المطعم.. بعدها سأهبط إلى البهو لأنتظر السيد (باتريك) حتى نبدأ اجتماعات التخطيط للعمل..
أتمنى أن يكون يومك جميلًا كوجهك..

ما أصعب لحظات الفراق!

لم أرجُ يومًا أن تطيل الشمس البقاء أكثر من تلك المرة؛ إذ كان رحيلها يملأ رأسي بمخاوف يرتجف لها بدني، وأخشى مجرد التفكير فيها..

يغيّر الظلام كل شيء.. وكأن عالمًا آخر غير الذي نحياه يبدأ مع اختفاء الشمس وحلول الظلام سيدًا على الأشياء، كل شيء يبدو غامضًا ومخيفًا حتى الأشجار التي تحيط بالمكان من كل اتجاه تكاد تتحول إلى أشباح مرعبة. لا أدري لماذا يغير الظلام صورة الأشياء في عقولنا، حتى تلك الألعاب المحشوة بالقطن التي كنا نلهو بها في الطفولة كانت ملامحها تتغير وقت النوم وإغلاق الأضواء، وكأن لها وجهًا طيبًا في النهار وآخر قاسيًا يصنعه الليل.

ـ "هل أنت بخير؟"

قالها (فريد) يسألني وصوته لا يستطيع أن يخفي الألم الذي يشعر به، فأجبت محاولًا أن أبدو متماسكًا:

ـ "أنا بخير. أخبرني كيف حال ساقك؟"

ـ "يمكنني احتمال الألم، لكنني مازلت لا أستطيع الوقوف"

ـ "لا تقلق.. سيجدنا أحدهم قريبًا"

كان (فريد) يعلم أن ما أقوله قد يكون مجرد كلام نمنّي به أنفسنا فقط؛ فدخولنا إلى المناطق المحظورة في الغابة لم يكن أمرًا صائبًا، مما يجعل العثور علينا مصادفة أمرًا غير وارد إلا بمعجزة ما، وضوء الشمس الذي اختفى من حولنا قد انسحب معه حتى الأمل في البقاء على قيد الحياة حتى الصباح الجديد.

كنتُ قد بدأت أرتجف من البرد، ولا أعرف هل حقًا قد انخفضت الحرارة إلى هذا الحد أم أنه أثر الخوف الذي يتملكني.

نظرت إلى السماء.. لم أكن أرى حتى النجوم؛ إذ كانت السحب المتراكمة تحجب الضوء، وبدا أنها قد تمطر قريبًا، حيث بدأت الرياح تشتد وتضرب أغصان الأشجار لتزيد الجو من حولي رهبة.

ـ "ماذا يمكننا أن نفعل الآن يا (فريد)؟"

أتى صوته مترددًا:

ـ "هل تعتقد أنه قد ينفعنا الصراخ لطلب النجدة الآن؟ أعني هل سيكون هناك من يسمعنا؟"
خرجت من صدري زفرة يائسة، وأنا أقول:
ـ "أي نجدة هنا!؟ لقد توغلنا كثيراً في الغابة، ولسنا بالقرب من أي مخيم، ولا أعتقد أن الصراخ سيفيد سوى في استهلاك ما تبقى من قوتنا"
لا أدري هل أقنعته كلماتي أم لا، لكن يبدو أنه تنبه إلى أمر آخر؛ إذ عاد يقول في صوت مرتجف:
ـ "أنت على حق. ليس من أمل في ذلك، بل ربما تدعو الصرخات بعض الحيوانات المفترسة إلينا قبل أن تصل أصواتنا إلى أحد"
عاد جسدي يرتعد من البرد أو الخوف.
ـ "هل تعتقد أن الحيوانات تخرج للصيد ليلًا؟"
انخفض صوت (فريد) من الخوف، حتى كاد يبدو همسًا غير مسموع، وهو يجيب:
ـ "بعض الحيوانات لا تنشط للصيد إلا ليلًا"
ـ "فليرحمنا الله!"
مرت لحظات من الصمت، قبل أن يبدأ (فريد) في الترنم باللغة الإنجليزية بصوت خفيض يثير الشجون.
ـ "أيتها الأم الطيبة ♫ وحيد أنا من دونك ♫ أيتها الأم الحنون ♫ أنقذي أبناءك من الألم ♫"

ينساب صوت (فريد) وسط ذلك السكون..
يترنم بكلماته الحزينة..
ـ "وحيد حقًا أنا من دونك في ذلك العالم ♫ خائف كطفل ضل طريقه وهاجمه ظلام الليل ♫"
يكمل كلمات أغنيته نصفها بالإنجليزية، والنصف الآخر بلغة غير مفهومة بالنسبة لي، لكنه يترنم بها على نفس اللحن، ورغم ذلك لا أفقد المعنى وكأنني أشعر بالكلمات مباشرة في قلبي.

تتحدث الأغنية عن طفل تائه يطلب من أمه أن تمد إليه يدها وتحمله بين أحضانها، وربما كانت ترنيمة مسيحية، وتشير الكلمات رمزًا إلى السيدة العذراء (مريم)، والسائل يدعوها في رجاء أن تنتشله من ظلام الحياة.

لكم أتمنى لو عدت طفلًا من جديد، بين أحضان أبي وأمي، هناك في ذلك البيت الذي يعلو الوحدة الصحية حيث كان مقر عمل أبي في (بني سويف)، تلك القرية التي ساقته الأقدار وتكليف الأطباء ليغادر (القاهرة) إليها ليكون طبيبًا للوحدة الصحية.

مازلت أذكر كل شيء مر بي هناك..

أذكر تلك الحقول الممتدة إلى مالانهاية وزهور عباد الشمس الباسمة.. أذكر جلوسنا في الليل بجوار مصباح الكيروسين في شرفة البيت، نتأمل السماء بينما تتسلى الضفادع بالنقيق ومشاركة الغناء مع صراصير الحقل.

أذكر السماء القريبة التي احتشدت فيها النجوم، وكأنها تتأملنا كما نتأملها، والرهبة التي كانت تعتري قلبي وسط هذا الظلام عندما يشير أبي إلى السماء، ويتكلم عن مجموعة الدب الأكبر والأصغر، يصف لأمي تلك المجموعات النجمية التي لم أكن أفهم معانيها في ذلك الوقت، وأنظر إلى السماء في خوف لا أفهم أين وكيف يحيا الدببة هناك.

ومن مكان غير بعيد تأتينا رائحة النار التي يشعلها الفلاحون في الليل، ويجتمعون حولها يستمدون الدفء ويطهون الشاي.

أذكر كذلك ما حكت لي جدتي عن الفترات التي كنت أقضيها معها في القاهرة أثناء انشغال أمي بالاستعداد للامتحانات في الجامعة.. كان عمري وقتها ربما عامين أو أقل.

تقول جدتي رحمها الله أنه كان لأمي ثوب متروك عندها، فكنت أبحث عنه، ثم أدفن وجهي فيه، وأجهش بالبكاء.

عزيزتي ريم..

في لفتة لطيفة منه، حضر السيد (باتريك) مدير الشركة الإنجليزي إلى الفندق في موعده للترحيب بي، وجلس معي قرابة الساعة في ذلك المطعم المطل على الحديقة الشاسعة بالفندق. بدا الرجل متعاونًا، وقد أفادني ببعض المعلومات المبدئية عن الشركة ونظام العمل بها، وأخبرني أنه رتب لي مواعيد المقابلات مع مديري الفروع، كما أن جميع المستندات جاهزة في المقر الرئيسي تحت تصرفي وقتما أشاء، واتفقنا على بداية العمل من صباح الغد.

بعد انصرافه قررت أن أحصل على جولة في الجوار كي أستغل الوقت ولأبدأ بالتعرف على معالم المدينة.

بدلت ملابسي الرسمية، وارتديت الجينز وقميصًا قطنيًا، وانتعلت حذاءً رياضيًا ليساعدني على المشي، واتجهت إلى مكتب الاستقبال لأسأل الموظف هناك عن الأماكن التي يمكن زيارتها في (كمبالا)، فأشار مبتسمًا إلى مكتب قريب تجلس عليه إحدى الموظفات، وأخبرني أن بإمكانها مساعدتي في ذلك الأمر.

ابتسمت الفتاة في ترحاب عندما سألتها عن الأماكن السياحية التي يمكن زيارتها في العاصمة، وعددت لي بعض الأشياء البسيطة، وأخبرتني أن السياحة داخل العاصمة قليلة للغاية لكن يجب عليّ ألا أفوت فرصة زيارة إحدى حدائق الحيوان المفتوحة والتي يجب الترتيب لزيارتها مسبقًا، وتستغرق المسافة إلى أقربها حوالي ست ساعات من العاصمة، فأخبرتها أنني في زيارة عمل، وربما أستطيع الحصول على إجازة بعد الانتهاء من مهمتي لكي أقوم بتلك الرحلة، لكنني أريد الآن معرفة بعض الأماكن التي يمكن زيارتها في حدود المدينة. فعادت تبتسم بذات الود وأعطتني خريطة للعاصمة وحددت لي عليها دائرة حول مكان الفندق بالقلم، وأشارت إلى موقع سوق المنتجات اليدوية القريب.

شكرتها وطويت الخريطة، ثم اتجهت خارجًا من الفندق لأحصل على بعض التمشية. وبعد أن اجتزت الحديقة إلى البوابات الخارجية، حييت رجل الأمن فبادلني التحية باسمًا، كان يبدو ودودًا أيضًا، ويبدو أن الجيش هنا هو من يقوم بحماية المنشآت إذ كانت حلته تبدو مثل الحلة الرسمية للجيش وليس لرجل أمن خاص. سألني إن كانت هناك سيارة بانتظاري فأجبته بالنفي، وأخبرته أنني أريد مشاهدة المدينة قليلًا وسألته

عن أقرب مكان سياحي يمكنني زيارته بخلاف السوق، فأشار إلى مبنى الكازينو المقابل للفندق وقال أن الوقت مازال مبكرًا على الذهاب إلى هناك، فعدت أوضح له أنني أريد معالم سياحية أو حتى مجمعًا تجاريًا، ففكر قليلًا ثم أخبرني أيضًا أنني لن أجد شيئًا قريبًا وأن الأمر يجب ترتيبه مسبقًا حيث يمكنني الاتفاق مع سيارة (ليموزين) لتصحبني من الفندق في رحلة سياحية إلى منابع النيل أو حديقة الملكة (إليزابيث) حيث يمكنني مشاهدة الحيوانات والطبيعة.

لم يكن هناك بدٌ من محاولة الخروج بلا هدف لاستطلاع المكان بنفسي، وقررت أن أحصل على أي سيارة أجرة والتجول بها قليلًا، وتذكرت أن أسأله عن الأمان في الخارج، فأجابني وقد اكتسى وجهه بالصرامة أن الطرق آمنة تمامًا إلا إن كنت قاتلًا ما.. لم أفهم ماذا كان يعني في البداية، لكنه عاد ليوضح قائلًا أن فقط من يمكن أن يشعر بعدم الأمان هم الأشرار؛ لأننا لا نتركهم بالخارج أبدًا.

ابتسمت لجملته إذ أوحت لي فعلًا بشيء من الاطمئنان رغم التحذيرات المشددة على مواقع الإنترنت من الخروج وحيدًا، وشكرته، ثم خرجت من البوابات لأسير قليلًا حتى وصلت إلى الطريق الرئيسي.

لفت نظري في البداية أن الطرق المرورية هناك مصممة على الطريقة الإنجليزية، تسير السيارات عكس ما تعودنا عليه في (مصر)، حتى عجلة القيادة في الجهة اليمنى وليس اليسرى، وقد أزعجني هذا قليلًا أثناء عبور الطريق.

وقفت لأكثر من عشر دقائق أنتظر سيارة أجرة، ولم تمر من أمامي أي واحدة، جعلني ذلك أنتبه إلى أنني لم أرَ مواصلات عامة أيضًا، كان الجميع عدا أصحاب السيارات الخاصة يسير على قدميه، ثم بدأت ألحظ أمرًا آخر وهو أن الكثير من الدراجات النارية تسير في الطريق، وفهمت بعدها عندما رأيت فتاة تشير إلى إحدى الدراجات النارية فتتوقف لتركب خلف سائقها، أن وسيلة المواصلات المعتادة هنا هي الدراجة النارية.

قررت بعد ذلك السير لبعض الوقت بدلًا من الوقوف مكاني بلا جدوى.

كانت الطرق خالية من المعالم التاريخية التي كنت أبحث عنها. مجرد مبان سواء لفنادق أو بنوك وربما شركات، ولا توجد حتى متاجر أو محلات في ذلك المربع الضخم الذي استغرقت ساعة كاملة في السير حوله قبل أن أعود إلى الفندق، وقد قررت أن أقوم لاحقًا بالترتيب لرؤية (أوغندا) بشكل أفضل. سأكتفي الآن بعد الإرسال لك

بالعمل قليلًا حتى موعد العشاء، قبل أن أخلد مبكرًا للنوم كي أستعد لبداية يوم العمل في الغد.
تحياتي ومحبتي الدائمة.

لا أدري هل هي دموع تلك التي انسابت على وجهي أم أنها قطرات من المطر سقطت وانحدرت على خدي.. نظرت إلى السماء فلم يتبين لي أي من النجوم اليوم.. كانت السماء ملبدة بالغيوم تمامًا، حتى أن القمر كان يحاول الظهور بصعوبة، فيَبين ضوؤه بين السحب لحظات خاطفة، قبل يختفي دون إرادته من جديد.

ـ "سوف تبدأ الأمطار يا (فريد)"

لم يرد مباشرة، لكنه استغرق عدة ثوان، وكأنه يختبر الجو، قبل أن يقول في صوت قلق:

ـ "سيزيد هذا الأمر من صعوبة العثور علينا"

قلت محاولًا التفكير في أي مصدر للأمل:

ـ "هل تعتقد أن (راموس) قد نجا وذهب ليحضر من ينقذنا؟"

ـ "ربما"

قالها وصمت؛ إذ كان صوته يوحي بعدم تصديق تلك الفكرة، فما الذي يجعله يذهب ليحضر من ينقذنا قبل أن يتأكد من كوننا على قيد الحياة أولًا!؟ لكننا آثرنا دون اتفاق ألا نناقش الأمر وأن نتمسك بذلك الوهم الخافت، على الأقل حتى يتبين لنا أي ضوء لأمل آخر.

ترى ماذا أصاب (راموس)؟ لقد كان يجلس بجواري في مقعد القيادة ولم تفصلنا سوى تلك الثواني القليلة التي حدث فيها ما حدث، وهاجمنا ذلك الفيل الغاضب.

قلت في ضيق، وكأنني ألوم نفسي على الأمر:

ـ "لم يكن من المفترض أن نوافق (راموس) على تتبع تلك الأفيال إلى داخل الأحراش.. لم يكن قرارًا صائبًا أبدًا أن نخرج عن الطريق"

قال (فريد) في صوت يحمل الكثير من الندم:

ـ "بل لم يكن قرارًا صائبًا أن نقتحم تلك الغابة الممنوعة من الأصل. على الأقل حادث كهذا في حديقة عامة كان سيعطي احتمالات كبيرة للعثور علينا من أي شخص، أما الآن فالأمر يكاد يكون مستحيلًا"

ضربت بقبضتي على السيارة التي تحتجزني في إصرار كجبل يجثم فوق صدري، وقد بدأ الخوف بداخلي يتحول إلى غضب، وأخذت أحاول دفع جسدي للخلاص إلا أن قوتي لم تعينني على ذلك، فأطلقت بعض السباب بالعربية، وأنا أضرب بقبضتي مجددًا على السيارة حتى كدت أحطم أصابعي، فهتف (فريد) محاولًا تهدئتي:

ـ "أرجوك لا تفقد أعصابك. دعنا نفكر في طريقة للخروج من ذلك المأزق بدلًا من هدر ما تبقى من قوتنا على الغضب"

توقفت عن ضرب السيارة وقد أدميت قبضتي، وأنا أقول من بين أنفاسي اللاهثة:

ـ "ماذا تعتقد أننا قد نفعل الآن؟"

قال (فريد) في سرعة كأنه يحاول أن يتمسك بأي فكرة قد تعطي بعض الأمل:

ـ "ألن يحاول أحد زملائك الاتصال بك، أو يفتقد أحدهم اتصالك؟"

شعرت بسخافة الفكرة، أو أن (فريد) يريد أن يختلق احتمالات غير منطقية لمجرد الاحتفاظ بالأمل، فأجبت بطريقة حادة رغمًا عني:

ـ "ربما يتصل أحدهم يا (فريد)، لكنه لن يتعجب إن وجد هاتفي مغلقًا. لقد أنهيتُ عملي وبدأت رحلتي في الأحراش حيث لا شبكة اتصال كما يعلمون، ولن يفتقدني أحدهم قبل أن أتحول إلى مجموعة من العظام المبعثرة في هذه الغابة اللعينة"

لم يرد (فريد)، وقد بدا أنني كنت حادًا بصورة مبالغة، فتمالكت نفسي وعدت أسأل في صوت حاولت أن أجعله هادئًا قدر ما استطعت:

ـ "متى في اعتقادك أنت أن (ماريا) سوف تبدأ في الارتياب والإبلاغ عن اختفائك؟"

فكر لحظات قبل أن يجيب:

ـ "ربما بعد يومين أو ثلاثة أيام"

انطلقت من فمي ضحكة عصبية ساخرة، قبل أن أقول في يأس:

ـ "بالتأكيد ليس قبل ذلك. هي تعلم أيضًا أن خطوط الاتصال غير متاحة معظم الأحيان وسط الغابة، وأننا لن نصل إلى حيث يمكنك الاتصال بها قبل يومين، وحتى في حالة إبلاغها عن اختفائك، فلن يفكر أحد في البحث عنا في هذا المكان المجهول"

مرت لحظات من الصمت، قبل أن يقول (فريد):

ـ "ربما علينا أن نبتهل للنجاة"

قلت وقد بدأ الضغط الجاثم فوق صدري يفقدني قدرتي على التنفس ويدفعني للجنون:

ـ "لا أدري. لا أري أمامنا أي أمل في النجاة. ربما علينا أن نتلو صلواتنا الأخيرة"

كنت أعلم أنه يشاركني نفس الشعور، ولكنه قال محاولًا التمسك بآخر خيوط واهية من الأمل:

ـ "دعنا لا نصل إلى هذا الحد أرجوك. لابد أن هناك سبيلًا للنجاة"
استسلمت للتعب، وتوقفت عن محاولة الخلاص، ووضعت رأسي على الأرض، وأنا أقول في إنهاك:
ـ "ربما أصبح الأمر في اعتقادي سيان"
سألني في خوف:
ـ "ماذا تعني؟"
كنت أشعر باستسلام غريب، وكأن الخوف من انتظار الموت أصبح يزعجني أكثر من الموت ذاته.
ـ "أعني أن نهاية الحياة لابد أن تأتي في وقت ما، إذن فما الفارق بين موتي الآن أو أن أموت غدًا!؟"
ـ "لا تتحدث بهذه الطريقة رجاءَ. أنت تخيفني!"
ـ "لكنها الحقيقة التي نتجاهلها يا (فريد). ماذا إن أفلتُّ من الموت اليوم بعد كل هذه المعاناة؟ هل من أجل أن أنتظر معاناة جديدة تقودني مرة أخرى إلى الموت!؟"
صمت (فريد) كثيراَ بعد جملتي، ثم انخرط فجأة في البكاء. كان يبكي في حرارة وبطريقة لم أتوقعها، ولابد أن كلماتي حطمت جدار الثبات الزائف الذي كان يستند إليه.
ـ "(فريد)!"
لم يجب، وإن بدا أنه يحاول أن يكتم بكاءه حتى لا أسمعه.
ـ "أستحلفك بالله أن تتوقف يا (فريد). ذلك البكاء يؤلم قلبي أكثر من الموت نفسه!"
أجابني بصوت متهدج من أثر البكاء:
ـ "ولماذا تتألم!؟ ربما عليك أن تبتهج لأن شخصًا مثلي سيغادر تلك الحياة البائسة التي يحياها.. بالتأكيد سيكون ما وراء الموت أفضل مما أنا فيه"
لم أجد ردًا مناسبَا، فازداد صوته عصبية وهو يقول:
ـ "أليس كذلك؟ لا أفهم أبدًا ما الذي يجعل رجلًا مثلي يتمسك بالحياة ورجل مثلك يفكر بتلك الطريقة!؟ ما الذي يجعل رجلًا لا يجد ما يطعمه لزوجته في بعض الأحيان.. رجل يحيا في بيت من الصفيح والخشب، بلا كهرباء، ولا ماء نظيف، ولا رصيد من عدة (شلنات) يرغب في أن يستمر على ظهر الأرض!!؟"

حاولت مقاطعته، وقد بدا أن أعصابه على وشك الانهيار، لكنه عاد يقول:
ـ "هل تعلم ما الذي يجعلني أفكر في التمسك بالحياة رغم ذلك؟؟"
قالها وصمت كأنه ينتظر إجابتي.. لكنني لم أرد..
كنت أعرف أنك على حق يا (فريد)..
هناك أشياء حقًا تجعلنا نتمسك بالحياة رغم كل شيء..
حتى في الأوقات التي تبدو فيها السماء مظلمة، ولا حتى شعاعًا واحدًا من الأمل يشير لنا في الأفق البعيد..

عندما تخطيتُ مرحلة الطفولة أصبحت أشعر بالخوف أكثر من ذي قبل..
لم يكن خوفي في ذلك الوقت من ألم الموت، ولكن خوف من أن أفقد والديّ.. ربما لم يعد يحركني نفس الدافع الذي كان في طفولتي؛ فلم أعد أخشى أن أكون في الدنيا وحيدًا دون حماية أبي وأمي كما كنت.. لكنني بدأت متأخرًا أدرك أنني لم أقدم لهما ما يستحقانه.. ولم أكن أدري حتى ماذا يمكن أن أقدم.
كان الأمر يؤرقني بشدة وأنا أراهما يتقدمان في العمر والأيام تمضي..
أتأمل ملامح وجهيهما كلما سنحت لي فرصة دون أن يشعرا.. أحصي التجاعيد البسيطة التي بدأت ترتسم على وجه أمي الجميل والشعيرات البيضاء التي تزداد في رأس أبي..
لكم أخشى ذلك اليوم!
كم من ليلة استيقظت من نومي فزعًا أهرع إلى غرفتهما أنظر إلى جسديهما الراقدين في الظلام، وأصغي السمع لأتأكد من انتظام أنفاسهما، قبل أن أعود إلى فراشي وأنا أتمتم بالدعوات لهما بالعمر المديد.
تمنيت في إحدى تلك الليالي أن أموت قبل أن أشهد يومًا أفقد فيه أحدهما؛ فأنا لن أحتمل ذلك اليوم.. بل كان مجرد التفكير في ذلك الأمر يكاد يجعلني أجن!
لم أكن مريضًا بالخوف، ولكنني كنت محبًا..
محبًا إلى درجة أنني عندما رفعت يومًا يدي إلى السماء كي أدعو الله أن يعجل منيتي قبل أن يقضي أجل أحدهما تراجعت..
فإن كنت أنا لن أحتمل فراقهما، فكيف بهما..
وعدت لأرفع يدي أسأل الله أن يرحم قلوبنا جميعًا من عذاب الفراق..

عزيزتي ريم..

كنتُ قد قررت النوم بعد يوم عمل طويل استمر من الصباح إلى ما بعد عودتي إلى الفندق، وانشغلت فيه حتى أنني لم ألحظ الوقت إلا عندما شعرت ببعض الآلام في رقبتي من انكفائي على (اللاب توب)، وأعدت ظهري إلى الوراء أنظر إلى الساعة في زاوية الشاشة أمامي. كانت قد تجاوزت الحادية عشرة مساء، وبدا لي أنه لابد من الحصول على قسط من الراحة، وخاصة أنني سأستيقظ مبكرًا، حيث يبدأ يومي غدًا في السابعة صباحًا.

أغلقت (اللاب توب)، وتركت كل شيء في موضعه، ثم قمت متجهًا إلى الفراش بخطوات بطيئة وقد تيبست عضلات جسدي من طول الجلوس.

خاطر ما جعلني أتوقف عندما رأيت وجهي في المرآة الجدارية بالقرب من الفراش. كنت أ نظر إليه وكأنني أرى وجهًا آخر يشبهني، لم أجد تلك الألفة التي يشعر بها كل شخص تجاه وجهه عندما يراه في المرآة. كان وجهًا شاحبًا تشبعت ملامحه بالحزن. دققت في ملامحي لحظات أحاول استعادة الألفة معها من جديد، قربت وجهي من المرآة وأخذت أقوم ببعض الحركات الحمقاء، أرفع حاجبي وأخفضه، أفتح عيني ثم أضيقها وأبتسم ثم أعبس، هو وجهي حقًا لكن يبدو أن الأحزان قد نقشت عليه آثارها إلى الأبد دون أن أدري.

تذكرتك في تلك اللحظة، ووجدتني أتجه تلقائيًا إلى حيث وضعت صندوق الرسائل الذي أعطيتِني إياه، وكأنني ألتمس في تلك الأوراق بعض الأمل. لا أعرف لماذا أشعر بتلك البهجة حقًا وأنا مقبل على فتح كل مظروف جديد من رسائلك! كم رائعة هي فكرة (صندوق ريم) تلك!

أمسكت بالمظروف الأبيض الصغير، وخفّفت إضاءة الحجرة سوى من (أباجورة) خافتة، وجلست في الفراش وفي نيتي أن أقرأ ما كتبتِ ثم أخلد للنوم معتذرًا لكِ في سري، لأنني لن أكتب إليك الليلة، وخاصةً أنه لم يمر بي اليوم ما يمكن أن يثير اهتمامك، ولم أقم سوى بمقابلات عمل مع مديري الفروع استمرت حتى وقت متأخر من النهار، ولم يكن أمامي سوى العودة إلى الفندق لتناول العشاء على عجل، ثم الانتهاء من كتابة تقارير العمل وإرسالها إلى شركتي في القاهرة.. لكن كلماتك تلك جعلت النوم يفر من عيني، وبددت أحلامي في الراحة هذه الليلة.

كانت وصاياك هذه المرة أن أكتب، أن أستعيد تلك الأحداث التي أحاول الفرار منها في استماتة، وأكتب مذكرات عن كل ما علق بذهني من أحداث مرت بي خلال الأشهر الماضية.

لا أعرف إن كنت أريد هذا أم لا، ولا أفهم هذه المرة ما الهدف الذي ترمين إليه من كتابتي لهذه الأحداث المؤلمة التي أحاول محوها من ذاكرتي من الأساس.

لقد وعدتك منذ اتفقنا أن أستمع إلى الوصايا التي تسوقها رسائلك، وأنفذها كما هي بلا تحريف.

لكنني هذه المرة أسألك أن أتجاوز عن واحدة منها قد يصبح ضررها بالنسبة لي أكبر من نفعها، إن كان في اعتقادك أن لها أي نفع.

وإن كنت لا أعتقد أن لها نفعًا بالنسبة لي، ناهيك عن تأجيج النار وإثارة الأوجاع.

لقد تبخر النوم الذي كان يملأ عيني منذ قليل..

لا أعلم ما الذي جعل ذهني يستفيق إلى تلك الدرجة، ولا ما الذي جعل الذكريات تتقافز أمام عيني بتلك الطريقة، وكأن ما كنت أعتقد أنه خبا قليلًا بمرور الوقت مازال متقدًا ينتظر أي سبب واه كي يشتعل من جديد.. لكنني على الرغم من ذلك سوف أظلم المكان حولي الآن، وأحاول أن أسترضي النوم مرة أخرى.. ولعله يشفق ويرضى..

تصبحين على خير..

كانت كشعاع الشمس في صباح يوم الشتاء..

تنظر إليها، فتملأ روحك البهجة..

وتقترب من نورها، فيهتز قلبك طربًا ودفئًا..

كانت الحب مجسدًا في صورة امرأة..

لابد أن تكون هذه هي البداية، لا أعرف بدايات أخرى يمكن أن أبدأ بها ذكرياتي..

كانت تقف أمامي يومها وأنا أحزم حقائبي استعدادًا للسفر وتبتسم، تلك الابتسامة الحانية التي أعرفها منذ كنت طفلًا، تداري بها الحزن الذي يملأ قلبها وتلك الأفكار التي تراودها بشأن سفري، وكأنني ما زلت صغيرها الذي تخشى عليه من الضياع..

وابتسمت وأنا أراها تقاوم الدموع في عينيها، وتحاول أن تتماسك من أجلي وهي تقول:

ـ "لا تهمل في الطعام، واهتم بصحتك"

اقتربت منها وربتت على كتفها، لا أدري لماذا كنت أشعر دائمًا بأنها هي طفلتي التي تستحق الرعاية، كنت أراها دائمًا كذلك، بوجهها البريء الذي لم يستطع الزمن أن يقهر نضارته، وعينيها العسليتين الصافيتين، كنهر لم يعكر صفاءه شيء من أنواء الحياة.

ـ "لا تقلقي يا أمي، لن أغيب طويلًا، هي ستة أشهر وسوف تنتهي سريعًا لتجديني معك من جديد قبل أن تدركي أنني قد سافرت من الأساس"

كانت تعلم أن كلامي ما هو إلا الجزء الجميل من الحقيقة؛ فقد أصدرت لي الشركة تأشيرة زيارة تجارية لفرعها في (المملكة العربية السعودية) لأنهم يتعجلون سفري، ولم يستطيعوا استخراج تأشيرة عمل في الوقت الحالي بسبب تعقيدات إدارية ما هناك، وعودتي إلى مصر بعد ستة أشهر ما هي إلا لأستلم تأشيرة العمل وأنهي إجراءات السفر كي أعود للإقامة في مدينة (الرياض) بشكل كامل.

ـ "أنا أعرفك، تهمل أمر نفسك دائمًا إن لم تجد من يعتني بك"

كانت هذه هي المرة الأولى التي أسافر فيها خارج مصر كل تلك المدة، وعلى الرغم من أنني لم أكن أقبل بفكرة العمل في الخارج من قبل إلا أن السفر هذه المرة كان هو خياري الوحيد، وقد بدا كل شيء حولي وكأنه يدفعني للرحيل إلى أبعد مكان ممكن.

ـ "لا تقلقي يا أمي، عليك أنت أن تعتني بنفسك من أجلي"

تبتسم تلك الابتسامة العذبة، وتقول:

ـ "لا تشغل بالك بي، فكر في نفسك، وإن أزعجك أمر الغربة عد. ربّ هنا هو رب هناك، ولن تجني أكثر مما كتب الله لك"

أبتسم في صمت، وأتشاغل بالتأكد من إغلاق حقائبي، وتخرج شقيقتي الصغرى من حجرتها لتقف بجوار والدتي تسألني إن كنت بحاجة إلى مساعدة في أي شيء.

لم يكن قرار السفر سهلًا بالنسبة لي، لكن شعورًا داهمًا بالفشل في كل شيء جعل الهروب هو الطريق الوحيد الذي أمامي.

ـ "هل ستأتي (شاهندة) لتوديعك في المطار؟"

تسألني أمي، فأجيبها دون أن ألتفت إليها متشاغلًا بالنظر في جواز السفر وتذكرة الطائرة، وكأنني أستوثق أن كل شيء على ما يرام، محاولًا في ذات الوقت ضبط أنفاسي كي لا تلحظ ذلك الاضطراب الذي أصابني، وتسارعت معه دقات قلبي في عنف.

ـ "لا يا أمي، لقد ودعتها بالأمس، وطلبت منها ألا تأتي إلى المطار كما طلبت منك أيضًا؛ لا داعي لوجودكما في المطار، لا تمزقا قلبي بلحظات الوداع"

ابتسمت في حنو، وهي تقول:

ـ "المرة القادمة تسافر معك إن شاء الله. لن أطمئن عليك إلا عندما تتزوج، ويصبح معك من يرعاك"

كان أمر زواجي يشغل أمي بصورة تكاد تكون هستيرية، لذلك لم أخبرها بما حدث مع (شاهندة)، وفضلت أن تظل على اعتقادها بأن الأمور ما زالت على ما يرام.

ـ "إن شاء الله"

أقولها في سرعة، ثم أحمل حقيبتي، وأقف مواجهًا إياهما..

ـ "يجب أن أذهب الآن، لقد تأخرت"

يظهر أخي مسرعًا من حجرته وقد ارتدى ملابسه ليحمل الحقيبة بدلًا مني في إصرار، وتقترب شقيقتي، فترتمي في أحضاني، قبل أن تبكي وتدفن وجهها في كتفي.

ـ "لم أكن سأخرج لتوديعك، لا أحب تلك اللحظات.. اعتن بنفسك، واتصل بنا وقتما يتاح لك"

تقولها، ثم تعدو مسرعة إلى حجرتها وهي تمسح دموعها التي انهالت على وجنتيها..

أحتضن والدتي، فتضمني بيديها في قوة، ثم تقبل وجنتي، وتربت بيدها على ظهري مشجعة وهي تقول في صوت تعتقد أنه نجح في التظاهر بالثبات:

ـ "هيا، والدك ينتظرك في السيارة"

يسبقني أخي إلى الباب حاملًا حقيبة السفر، فأضع حقيبة اليد على كتفي، وأحتضن أمي من جديد لثوان أتمنى لو تستمر إلى الأبد، ثم أتبعه في سرعة، ومن خلفي يأتيني صوتها الدافئ، وقد تركت لدموعها العنان:

ـ "حفظك الله يا بني وأعادك سالمًا!"

نتشبث بالحياة من أجل من نحب يا (فريد)..
أعلم هذا..
لكن رحيلهم عنا يجعل الحياة بالنسبة إلينا عذابًا لا يطاق، وألمًا ما بعده ألم..
تغشي أعيننا غمامة الحزن فلا نرى من الدنيا إلا قتامتها، وتتبدل صور الأشياء حولنا، فلا يتراءى لنا فيها إلا ما هو مظلم وكئيب..
أعلم أيضًا أنك تبكي الآن خوفًا على (ماريا)، وليس خوفًا من تلك الظلمة التي تبتلعنا، وتهدد أرواحنا بالهلاك..
كان صوت بكائه المكتوم مازال يصل إلى سمعي، يؤلم روحي أكثر مما يؤلمني ذلك الثقل الجاثم فوق صدري، ويمنعني من الحركة رغم محاولاته لحبس أنفاسه كي لا يصل تهافته إلى أذني.
لم أكن أدري ماذا أقول، لكن يبدو أن انهياره جعلني أتخذ موقفًا أكثر هدوءًا؛ لعلني أستطيع صنع بعض التوازن في تلك الأزمة.
ـ "(فريد).."
لم يجبني بأي شيء، فعدت أقول في ندم:
ـ "أنت على حق، سامحني لقد فقدت أعصابي"
ظل صامتًا، فتوقفت عن الحديث من جديد أنصت إلى صوته، قبل أن أهتف في قلق:
ـ "(فريد)، هل تسمعني؟"
أتاني صوته خافتًا مختنقًا متقطعًا؛ من أثر البكاء:
ـ "هل تدري.."
أصغيت السمع، كي أفسر كلماته، وقد بدا صوته حزينًا للغاية وهو يتابع:
ـ "ربما يعدني الله مذنبًا.. لا أعرف حقًا.. لكنني لم أكف يومًا عن التفكير في ذلك السؤال رغمًا عني"
ـ "أي سؤال؟"
قال في صوت ينطق بالمعاناة:
ـ "إن كان الله يحبنا، فلماذا يتركنا للشقاء!؟ هل سمعت هذا السؤال من قبل؟"
"إن كان الله يحبنا، فلماذا يتركنا للشقاء!؟"
ـ "هل تدري يا (فريد)؟ لقد تذكرت الآن قصة النبي (يونس).."

لم يجبني بأي شيء، فعدت أقول:
ـ "لا أعرف كيف تنطقون اسمه لديكم هنا، لكنني أعرف أن اسمه (يونان) في النسخة العربية من الإنجيل.. ذلك النبي الذي ابتلعه الحوت.."
إن كان الله يحبنا، فلماذا يتركنا للشقاء!؟
ربما جال بخاطري نفس السؤال في بعض أوقات الضعف والوهن..
أذكر ذلك اليوم القريب..
في ذلك المسجد الصغير الملاصق للمقابر في بلدة أمي، حيث جلست بعد صلاة الفجر وقد خلا المسجد تقريباَ من الناس سوى ثلاثة نفر قد اتخذ كل منهم ركنًا، وجلس يقرأ في مصحفه، وقد خفف خادم المسجد الإضاءة سوى من مصابيح صغيرة خافتة، فبدا الأمر مقبضًا بعض الشيء، وخاصة مع تلك النوافذ المفتوحة المطلة على المقابر حولنا.
كنتُ غريباَ عن المكان، وكان الأمر واضحًا لأي شخص، دون حاجة لبذل جهد في التخمين، وخاصة أنه من الطبيعي أن يعرف هؤلاء الذين اعتادوا صلاة الفجر في مسجد قروي وجوه بعضهم البعض على الأقل، لذا اقترب ذلك الشيخ في هدوء ليجلس بالقرب مني، ثم مد يده بزجاجة صغيرة من المسك ليضع مسحة منها على ظهر يدي اليمنى.
ابتسمت له في ود مفتعل؛ إذ لم أكن أحب تلك الروائح الزيتية، لكن العجيب أن الرائحة كانت على غير ما توقعت، كانت رائعة للغاية حتى أنني أحببت أن أملأ أنفي منها.
وعاد الرجل يبتسم، ويسألني:
ـ "لست من الجوار، أليس كذلك؟"
أومأت برأسي مجيباَ، وأنا أقول:
ـ "أنا من القاهرة"
ـ "في زيارة إذن لأحد أقاربك؟"
ـ "لا"
كان ردي مقتضباَ، وبدا للرجل أنني لا أريد أن أفصح عن سبب وجودي في هذا المكان، فابتسم في سماحة، ثم جلس بجواري يحرك مسبحته بين أصابعه في صمت.
لا أعرف لماذا لم أتحرك من مجلسي، بل ظللت في مكاني بجوار الرجل، وقد بدأت أشعر بالراحة في ظل جواره، وكأنه يحيط المكان حوله بطاقة جميلة من النور، أصابتني

وبدأت تتخلل قلبي، وتريح نفسي شيئًا ما. ووجدتني أنظر للرجل أتأمل ملامحه. كان الرجل في الستين من عمره تقريباَ، وجهه أبيض مشوب بالحمرة تزينه لحية بيضاء مهذبة، وعلى وجهه الهادئ ابتسامة طيبة. كانت عيناه مطرقتين إلى الأرض، بينما تتحرك شفتاه بالذكر، بينما يحرك حبات المسبحة بين أصابعه.

ووجدته ينظر لي، ويبتسم من جديد وهو يقول في صوت هادئ:

ـ "بداخلك أسئلة تحيرك، ولا تجد لها إجابات؟"

ترددت لثانية، قبل أن أجيب:

ـ "الجميع لديه أسئلة تؤرقه، ولا يجد لها إجابات"

ـ "بالتأكيد.. أنا أيضًا لدي أسئلة تحيرني كثيراَ"

هززت رأسي، ولم أعقب. فعاد يقول:

ـ "لم أفهم يومًا نظرية النسبية لأينشتاين، وأمور تقلص وتمدد الزمان والمكان، وهذه الأشياء"

دفعني الأمر للابتسام، وأنا أقول:

ـ "من العسير فهم نظرية النسبية لغير المتخصصين"

نظر لي في اهتمام، وهو يقول:

ـ "تبدو ممن يفهمون هذه الأشياء، هل تستطيع أن تشرحها لي؟"

هززت رأسي نفياَ، وأنا أقول:

ـ "لا للأسف، لست متخصصًا في تلك الأمور على الإطلاق"

أومأ برأسه مبتسمًا، ثم قال في هدوء:

ـ "لا بأس.."

كان المسجد قد خلا من الناس سوانا وخادم المسجد الذي تمدد على أريكة في أحد الأركان، وعاد الرجل ينظر لي، ويسأل:

ـ "وأنت.. ما هو أكثر الأسئلة التي تحيرك؟"

كانت طريقة الرجل في الحديث قد كسرت الجليد الذي حاولت فرضه من البداية، ووجدت الحديث معه مريحًا، فأجبت:

ـ "ربما سؤالي لا يكون ملائمًا، أو أنه أحد الأسئلة التي ليس لها إجابات"

ـ "إن كان سؤالك في شيء آخر سوى نظرية النسبية ربما أمكنني إجابتك"

ضحكت رغماً عني، ومرت لحظات من الصمت، قبل أن أقول:

ـ "تعتريني الحيرة دائماً بشأن الحياة، ولماذا يتركنا الله لنعاني في الدنيا، ونتعرض لتلك الاختبارات القاسية التي قد نفشل فيها، ولا نطيق معها صبراَ!؟"

ظل الرجل ينظر لي في صمت، دون أن تفارق وجهه تلك النظرة الهادئة، وكأنه يريد أن يمنحني المزيد من الوقت حتى أنهي ما بداخلي من أسئلة، دون أن يقاطعني. فعدت أقول:

ـ "أعلم أن سؤالي قد يتجاوز الخطوط الحمراء، لكنني أكاد أفقد قدرتي على الاحتمال"

ظل الرجل يتأمل وجهي لثوانٍ دون أن يتكلم، قبل أن يقول:

ـ "دعني أروي لك قصة.. قبل عيسى عليه السلام بقرون طويلة، أرسل الله نبيه (يونس) إلى قوم يعبدون الأصنام ليدعوهم إلى عبادة الله، لكنهم لم يستجيبوا وسخروا منه، فغضب، وتوعدهم بعقاب يحل بهم من الله في يوم محدد، ثم قرر الرحيل وتركهم لمصيرهم من العذاب القادم لا محالة.. وذهب إلى شاطئ البحر، فوجد سفينة على سفر فركبها، لكن ما أن أصبحت تلك السفينة في عرض البحر حتى بدأت الرياح في العصف والأمواج في التخبط، وبدا أن السفينة توشك على الغرق"

كنت أعرف القصة، لكنني شعرت بالرغبة في تركة ليكمل السرد.

ـ "يقال أن السفينة كانت مليئة بالناس والبضائع، وكان لابد من التخلص من بعض ما عليها، حتى تثبت وسط تلك الأمواج المتلاطمة، لذا بدؤوا بإلقاء البضائع، ثم بدؤوا يقترعون فيما بينهم ليلقي البعض نفسه في الماء حتى ينجو الآخرون، وبدأ من تقع عليه القرعة بإلقاء نفسه في البحر، حتى جاء الاختيار على (يونس)، ويقال أن أهل السفينة لم يقبلوا التخلص من (يونس)، لأنهم أحسوا فيه بالصلاح، وأعادوا القرعة مرة بعد مرة، ولم يزل (يونس) هو من يصيبه الدور، لذا بدا أنها رسالة ما، فاستجاب لمصيره، وألقى بنفسه في الماء.."

توقفت الرجل عن الحديث لثانية، يرى مدى متابعتي، قبل أن يتابع السرد:

ـ "استجاب (يونس) للأمر، وألقى ملابسه، ثم قفز في الماء، وفي نفس تلك اللحظة كان الله قد أرسل حوتًا ضخمًا ليبتلعه.. وعندما أفاق وجد نفسه أسيراً في الظلمات، فظن في البداية أنه مات، ثم حرك يديه، فتحركت. وبعد بعض الوقت أدرك أنه ما زال حيًا في جوف الحوت، وأدرك أن في الأمر درسًا إلهيًا ما. لقد ترك هو القوم لمصيرهم وذهب

دون أمر من الله بالرحيل، لذا كان مصيره أن يبقى حبيسًا في بطن الحوت إلى أن يأذن الله له بالخروج.. نعم، كان الأمر إعجازًا، حيٍ في بطن الحوت يسبح الله ويستغفره على ذنبه، فيسمع الملائكة تسبيحه، ويقولون نعرف هذا الصوت، لكنه يأتي من مكان لا نعرفه وأرض لا نألفها.. ويقال أنها كانت ثلاثة أيام بلا طعام ولا شراب، ولا بصيص من الضوء، قبل أن يأمر الله الحوت، فيلفظه على الأرض سقيمًا من الجوع والعطش، ليكتب له الحياة من جديد"

قلت في شيء من الضجر:

ـ "أعرف القصة جيدًا، لكن سؤالي لا يمت لذلك الأمر بصلة"

ـ "ربما لم تفهم المغزى جيدًا بعد، لذلك دعني أعيد لك صياغة الأمر"

هززت كتفي في لامبالاة، فعاد يقول:

ـ "كلنا نفشل في الاحتمال لأننا بشر، لكن الله لا يتركنا أبدًا. فشل (يونس) في احتمال رفض قومه، وذهب مغاضبًا، لكن الله لم يتخل عنه بفعله، بل طهره من ذنبه، وجعل سجنه في بطن الحوت له درسًا.. هكذا نحن في الحياة.. نذنب فيبتلينا الله ببعض الأمور التي تطهرنا من ذنوبنا، وتعدينا إلى صورتنا الأولى من جديد.. كل ما علينا هو أن ندرك الأمر، ونتقبله كما فعل (يونس) في جوف الحوت"

ـ "لست مثل (يونس)، ولا حتى مثل هؤلاء الذين يستطيعون الوصول إلى رؤية حقائق الأمور، وليس كل الناس كذلك أيضًا. أنا أتكلم عن هؤلاء البشر العاديين أمثالي، ممن لا طاقة لهم على رؤية الأمور بتلك الطريقة"

ـ "من قال أن هناك بشرًا عاديين وبشر غير عاديين!؟ البعض يعتقد أن القليل هم من يمتلكون القدرة على التحول من صورة اليرقة إلى صورة الفراشة المكتملة، ويقضون أعمارهم دون أن يحاولوا مجرد التفكير في كسر الشرنقة والخروج إلى النور، لاعتقاد كاذب في أنفسهم أنهم ليسوا من ضمن هؤلاء المختارين؛ لكن الحقيقة أن الجميع قد خلق وبداخله تلك القدرة الرائعة على التحول.. تلك القدرة التي تمكنه من تحطيم الشرنقة والطيران إلى السماء"

عزيزتي ريم..

لم أكتب لكِ في الصباح؛ فقد استيقظت فزعًا بعد ساعتين من النوم على اتصال موظف الاستقبال يخبرني أن السائق في انتظاري.

لقد قضيت معظم الليل ساهراً، واستعصى عليّ النوم، ولم يهدأ عقلي إلا قبيل الفجر بقليل، ولم يكن اليوم أيضًا كأروع ما يكون؛ إذ صاحبتني آلام الرأس طوال اليوم، ولم تفلح فناجين القهوة في علاجها. ومن الجيد أنني استطعت أن أقوم بمهمتي اليوم في الاجتماع بمديري الفروع دون أن أفقد تركيزي.

دعاني اليوم (باتريك) مدير الشركة الإنجليزي على الغداء في مطعم أوغندي جميل، وعلى الرغم من أنني لا أحب الأسماك، فقد طلبت طبقًا أوصى لي هو به بعد أن أخبرته أنني لا آكل اللحم دون أن أوضح السبب.

أعجبني الطعام كثيراً أيضًا، وأخبرني (باتريك) أن لديهم هنا أطباقًا رائعة كثيرة، وأنهم أفضل من يقدم اللحوم في (أوغندا)، ثم سألني لماذا لا آكل اللحم، فأخبرته أنه لأمر ديني فقط حيث أننا لا نأكل إلا اللحوم المذبوحة، ولا أعلم كيف يتعاملون مع الأمر هنا، فأخبرني أنه منذ سنوات طويلة أصبح الذبح هو الطريقة المستخدمة في (أوغندا) لأسباب صحية.

كان حديث الرجل المشرف على عامه الستين شيقًا، تركت له الوقت ليتحدث ويحكي لي عن بعض الأمور التي عايشها في (أوغندا). كان يعيش وحيدًا مع خادمته بعد أن رحلت زوجته عن الدنيا، وعادت ابنته إلى (لندن). وبدا لي أنه كان في حاجة ماسة ليتحدث عنهما مع أحد، وبدا أن ذكرهما في الحديث قد أسعده.

أنتِ على حق يا (ريم).. ربما الحديث عن الأمور التي نخفيها بداخلنا قد يسبب لنا الراحة، وربما الحديث عمن نحبهم حتى وإن كانوا قد رحلوا عن الحياة قد يعيدهم إلى حياتنا من جديد؛ إذ نشاركهم بعض اللحظات من حاضرنا ونحن نحكي عن ماضينا معهم.

عند عودتي إلى الفندق وجدت ثلاث دراجات نارية تقف على بوابة الفندق، بينما ثلاثة سائحين يبدو من اللغة التي يتحدثونها فيما بينهم أنهم فرنسيون قد أقبلوا من داخل الفندق، ثم صافحوا سائقي الدراجات وسمعت حوارًا قصيراً بالإنجليزية بينهم عن

جولة في سوق المنتجات اليدوية، ثم استقل كل واحد منهم دراجة خلف سائقها وانطلقوا في خفة.

سأجرب ذلك الأمر غدًا، أما اليوم فسوف أستغل الوقت في الكتابة قبل أن أنام مبكرًا، سأحاول أن اكتب كل ما يمر بخاطري عن تلك الأيام.

محبتي الدائمة لكِ..

شاهندة.. هل كانت هي ذلك الحب الأول الذي تتحدث عنه أساطير الحب؟ ذلك الذي يسيطر على كيانك دون أن تدري، ويتعلق بقلبك تعلقًا لا مفر منه سوى بانتزاع جزء من قلبك ذاته ليتركه داميًا مفتقدًا إلى ما انتزع منه إلى أبد الآبدين.

رأيتها أول مرة عندما عدت إلى شركتي في منتصف اليوم بعد اجتماع عمل بدأ من الصباح لدى أحد العملاء الجدد. كانت تجلس بجوار (هالة) موظفة الاستقبال، وأدركت أنها لابد أن تكون السكرتيرة الجديدة التي يبحثون عنها منذ بعض الوقت بعد أن أصبحت (هالة) حاملًا في شهرها الأخير، ولابد من وجود بديل لها في الوقت الحالي.

عادية الجمال جدًا مقارنة بسابقتها، مستديرة الوجه، دقيقة الملامح، صغيرة السن ولابد أنها لم تتجاوز الثانية والعشرين على أقصى تقدير، يبدو ذلك جليا في عينيها السوداوين المفتوحتين حتى آخرهما كعيني قطة صغيرة خائفة.

اقتربت منهما، فنظرت لي في سرعة، وتلعثمت وهي تقول:

ـ "تحت أمرك يا أفندم"

قلت مازحًا دون أن أبتسم:

ـ "أستاذ (يوسف السيد)"

ـ "ثانية واحدة من فضلك"

كتمت (هالة) ضحكتها، وأشرتُ لها بطرف خفي أن تصمت، بينما أسرعت الأخرى في توتر تنظر إلى قائمة أسماء الموظفين الموجودة أمامها تبحث عن رقم الهاتف الداخلي، فضحكت (هالة)، ونظرت لي وهي تقول في لوم:

ـ "لا تكن سخيفًا، إنه يومها الأول"

قلت ضاحكًا:

ـ "أنا أقدم نفسي فقط"

ابتسمت الفتاة في براءة، وقد أدركت الأمر. فعادت (هالة) تقول:

ـ "هذا هو أستاذ (يوسف السيد)، مدير بقسم التطوير"

وأشارت إلى الفتاة تقدمها لي..

ـ "(شاهندة)، زميلتنا الجديدة في السكرتارية. فكما ترى لم أعد أستطيع الوصول إلى لوحة المفاتيح بسبب بطني المنتفخة، وسوف أحصل على إجازة لمدة ستة أشهر مع بداية الأسبوع القادم"

ابتسمت قائلًا في صدق:

ـ "سوف نفتقدك يا (هالة) بكل تأكيد"

ابتسمت في ود وهي تقول:

ـ "أنا أيضًا"

نظرت إلى (شاهندة)، وأنا أقول:

ـ "أهلًا بك يا (شاهندة).. أتمنى أن تستمتعي بالعمل معنا"

ابتسمت (شاهندة) في ذات البراءة الطفولية.. لن تحتمل معنا هذه الفتاة لأكثر من أسبوعين في مستشفى الأمراض العقلية هذه.

ـ "هل (باسم) في مكتبه؟"

أشارت لي (هالة) أن نعم، فحييتهما بابتسامة، واتجهتُ إلى المكتب لأطرق الباب وأدخل، لأجده منهمكًا في قراءة شيء ما، لكنه ما إن رآني حتى تهلل وجهه وهو يسألني:

ـ "هل أنهيت الأمر مع العميل؟"

أشرت برأسي مؤيدًا، بينما أجلس وأنا أقول:

ـ "تم الأمر بشكل جيد، لا تقلق"

ـ "لست قلقًا بكل تأكيد؛ كنت أعرف أنك سوف تقوم بالأمر على أكمل وجه"

ابتسمت مازحًا، وأنا أقول:

ـ "المشكلة الآن أكبر من ذلك"

نظر لي في توتر، وهو يسأل:

ـ "ماذا حدث؟"

قلت مدعيًا الجدية:

ـ "ألم تجدوا سكرتيرة أفضل من تلك!؟"

قطب (باسم) حاجبيه في عدم فهم، وهو يقول:

ـ "ماذا بها!؟ الفتاة ممتازة في اللغة الإنجليزية، ولم تُختبَر في العمل بعد"

هززت رأسي نفيًا، وأنا أقول مازحًا:

ـ "أعني فتاة أجمل قليلًا"

فطن لدعابتي، فنظر لي في غيظ وهو يقول:

ـ "نحن لا نبحث عن (موديل) لعرض الأزياء، ورغم ذلك الفتاة على قدر لا بأس به من الجمال، ثم ألا تذكر ما حدث مع تلك الفتاة (ميرنا) التي كانت هنا منذ عدة أسابيع لوظيفة السكرتارية؟ لقد ترك الجميع عمله ليتجاذب معها أطراف الحديث"

ضحكت عندما تذكرت الأمر، وأنا أقول:

ـ "أنت على حق.. لقد كان الأمر ليصبح كارثيًا لولا أنها لم تتحمل العمل لأكثر من بضعة أيام"

ضحك هو الآخر، ثم قال:

ـ "(شاهندة) تبدو مجتهدة، وهي خريجة كلية التجارة.. وليس مخططًا أن تستمر في وظيفة السكرتارية لأكثر من ستة أشهر حتى تعود (هالة)، بعدها سوف أنقلها لقسم الموارد البشرية لتبدأ تدريبها هناك"

ـ "لا بأس بما تراه، إن كانت ستتحمل المكوث هنا لستة أشهر من الأصل"

كنت على ثقة أنها لن تتحمل جنون العمل في الشركة هنا..

لكن الغريب أنها تحملت!

ومع الوقت بدأت أراها بعينين مختلفتين.. بدأت أرى جمالًا نادرًا مختبئًا خلف تلك الملامح العادية..

كانت (شاهندة) هي الأخت الكبرى لثلاث فتيات أصغرهن في السابعة عشرة من عمرها، وقد توفي والدها وتركها قبل أن تبلغ عامها السادس، وتولت الأم تربية الفتيات وحدها، لذلك لم أتعجب عندما عرفت أن أمها تأتي بسيارتها لتقلها كل يوم بعد العمل، لكن عندما بدأت العلاقة بيني وبينها تصل إلى مرحلة الصداقة، وبدأت تحكي لي عن تفاصيل حياتها الخاصة، تعجبت من ذلك الحصار غير العادي الذي تضعه الأم حول الفتيات، حتى أن واحدة منهن لا تجرؤ على رفض شيء تفرضه الأم عليهن.

تحكي (شاهندة) عن أمها، وتضحك في براءة. كان واضحًا أن الأمر لم يكن يؤرق الفتيات إلى حد كبير؛ فقد اعتدن عليه وبتن يتعاملن مع الأم بالطريقة التي تريحها إشفاقًا عليها، ويقينًا منهن أن ما تفعله ما هو إلا نوع من الحب المبالغ فيه نتيجة أنها تولت دوري الأم والأب كليهما منذ سنوات طويلة وحدها دون أن يساعدها أحد، حتى من أقرب الناس سواء من الأخوال أو الأعمام الذين لا يظهرون إلا في المناسبات ليرسلوا إليهن نصيبهن من عائد أرض يملكونها بينهم على المشاع.

كيف ومتى تحولت تلك الصداقة إلى حب؟

تلك هي التحولات التي لا يمكن لأحد أن يفهم متى أو لأي سبب تحدث..

بدأت الأمطار تتساقط تدريجياَ، تسقط لتضرب الأشجار في هدوء مصدرة صوت تلك النقرات الرتيبة..
كان ذراعي يؤلمني بشدة، والثقل الجاثم فوق صدري قد أنهكني، فبدأ جسدي يرتعد قليلًا رغم أن الجو لم يكن باردًا إلى تلك الدرجة، وتنبهت إلى أمر فهتفت:
ـ "(فريد)!"
أجاب في إجهاد:
ـ "أنا هنا، لم أذهب إلى أي مكان"
ـ "ربما لدينا فرصة أخيرة للذهاب"
ـ "حقًا!!؟"
ـ "نعم، لقد مرت بخاطري توًا طريقة قد تساعدنا على الخلاص"
سألني على الفور في لهفة:
ـ "أخبرني ما هي إذن!"
نظرت للسماء، وأنا أقول:
ـ "الأمطار.."
سألني من جديد في تشكك:
ـ "كيف ذلك؟"
قلت وأنا أدعو الله في قلبي:
ـ "سوف ننتظر قليلًا حتى تبتل الأرض، ولعل الأمطار تخلخل التربة تحت السيارة وأتمكن من سحب جسدي خارجًا، وقتها يمكننا البحث عن اللاسلكي أو الهاتف المحمول الخاص بي وطلب النجدة"
ـ "لندعو إذن ألا تمتلئ الحفرة التي أرقد فيها بالماء قبل أن تتمكن من ذلك"
كانت الفكرة مرعبة أن تمتلئ الحفرة بالماء بينما هو عاجز عن الخروج، ولكنني قلت مطمئنًا:
ـ "لا تقلق؛ ما زالت الأمطار خفيفة، وسوف تبتل الأرض بالتأكيد قبل ذلك بكثير"
لم أكد أكمل جملتي حتى دوى صوت الرعد، وأضاء المكان حولنا للحظات، ثم فتحت السماء علينا وابلًا من المياه.
صرخ (فريد) في خوف وهو يقول:

ـ "ربما عليك الآن أن تسرع قليلًا!"
ـ "حسنًا سأحاول"
قلتها وأسرعت أحاول تحريك جسدي وسحب يدي من تحت السيارة. كانت المياه تنهمر في غزارة إلا أن الأرض كانت لا تزال صامدة.
ـ "كيف الحال؟"
سألني (فريد) في صوت خائف متعجل، فعدت أحاول من جديد بلا فائدة.
ـ "يبدو أنني أخطأت في توقعاتي يا (فريد).."
ـ "ماذا تعني!؟"
قلت وأنا أضغط على أسناني، وأحاول بكل طاقتي سحب ذراعي الذي يكاد ينخلع من الألم:
ـ "يبدو أن الأمطار بدأت تساهم في غوص السيارة أكثر في التربة الطينية، وبدأ الوزن يزداد على جسدي بشكل قاتل"
صرخ (فريد) في خوف، وقد بدأ يفقد أعصابه نهائيًا:
ـ "اللعنة! الحفرة تمتلئ بالماء سريعًا، وأنا لا أستطيع الوقوف علي قدمي. هل سأموت غرقًا هنا!؟"
رائحة الوقود المتسرب من السيارة بدأت تزداد، وبدأت أسعل لا أدري لماذا، لكن السعال كان قويًا ومستمرًا، حتى أنني كدت ألفظ ما في معدتي..
وفجأة، كما بدأت الأمطار توقفت، وقد تجمعت حولي برك صغيرة من المياه والوقود..
كنت لازلت أسعل بشدة، وبدأت أفقد أنفاسي.
ـ "(يوسف)!!"
كنت أحاول التنفس، وبدأت أشعر بالاختناق، وبدا أنني سأفقد الوعي.
صرخ (فريد) في ذعر، بينما كانت أنفاسي تكاد تذهب من السعال المتواصل، وبدأت عيناي تدمعان بشدة، وكأنني أختنق حتى الموت.
ـ "(يوسف)! ماذا يحدث لك!؟"
حاولت أن أتمالك زمام نفسي، وبدأت ألتقط أنفاسي في بطء مقاومًا ذلك السعال حتى بدأت في الهدوء تدريجيًا، فأرخيت رأسي وسط الطين وأغمضت عيني أحاول أن أجمع شتات نفسي.

ـ "ماذا أصابك؟ هل أنت بخير؟"

قالها (فريد) في صوت يكاد يبكي.

أجبت في صعوبة، وقد توقفت عن السعال محاولًا رفع صوتي المختنق قدر الإمكان حتى يصل إليه:

ـ "لا تقلق.. أنا بخير"

ـ "ماذا حدث؟"

عدت لأقول لاهثًا، وصوتي يخرج بصعوبة بالغة:

ـ "ربما أثارت الأمطار رائحة الوقود المتسرب في كل مكان حولي"

ـ "نعم، الرائحة تصل إلى أنفي"

هززت رأسي مؤيدًا بحركة تلقائية، وكأنه يراني وأنا أقول:

ـ "بالتأكيد"

عاد (فريد) يسأل:

ـ "هل يمكنك أن تجرب الخلاص من السيارة مرة أخرى؟"

كنت منهكًا بشدة، ولكنني استجمعت طاقتي كلها، وبدأت أجذب جسدي الحبيس لكن بلا فائدة، كانت السيارة مطبقة على ذراعي بشكل كامل حتى الكتف..

ـ "لا فائدة"

ـ "حسنًا.. اهدأ قليلًا"

تركت رأسي وسط الطين، وأغمضت عيني في استسلام وأنا أحاول أن أتمالك نفسي من الألم والخوف وأفكار الموت.

عزيزتي ريم..

هل تعرفين أسوأ ما يواجهه الإنسان في حياته، ويجعله عاجزًا ربما حتى عن التنفس؟؟

الخوف!

ذلك الشعور الطفيلي القاتل الذي يتسلل إلينا ويُدخِلُنا إلى دائرته المفرغة، الممتلئة بالمشاعر المقيتة، ونظل منساقين بعدها في طريقِة لاإراديًا دون أن نبحث عن سبيل للنجاة.

يجعلنا الخوف لا نصدق أننا في أزمة، وأن علينا أن نبحث عن العون، لا نصدق أننا قد يصيبنا مثل ما يصيب الآخرين.. لسنا مثل هؤلاء الذين يصابون في حوادث الطرق كل يوم، ولسنا مثل هؤلاء الذين تصيبهم الأمراض أو تسقط البيوت فوق رؤوسهم..

لا أدري لماذا..

ربما لأننا إذا تنبهنا إلى أننا في خطر طوال الوقت لأصبحت حياتنا جحيمًا لا يطاق..

وربما عدم رغبتي في الكتابة كان لنفس السبب، وكأنني إن حاولت ألا أدفع بالذكريات إلى رأسي فسوف يختفي الألم مع الوقت..

إلا أن الحقيقة غير ذلك بالفعل؛ فمحاولة تخطي ذلك الإنكار كانت بمثابة فتح جرح عميق، تم إغلاقه دون تطهير فأصبح شفاؤه مستحيلًا للأبد.

تعيدني الكتابة إلى وقت مضى، فأتذكر كل تلك الأحاسيس التي مرت بي وكأنني أحياها من جديد..

الغريب أنني أشعر حتى برائحة الأماكن، ويدق قلبي نفس تلك الدقات التي عايشها من قبل مع كل موقف، لكن الحقيقة أنني أرى الآن أشياء لم أكن أراها من قبل وكأن الأمر يحدث من منظور علوي مختلف.

هكذا هي أمور الحياة كلها، لا نرى حقيقتها إلا إذا ابتعدنا عنها مسافة كافية، ويعطينا الزمن تلك الفرصة لنرى الأمور من جديد.

لم أكتب الكثير حتى الآن، ولكن رأسي تزدحم بالذكريات والأفكار التي تريد أن تخرج كلها إلى الورق، وسأفعل ذلك إن حييت في الأيام التالية.

عندما ارتفعت بي تلك الطائرة المتجهة إلى (الرياض)، لأبتعد عن كل شيء أحبه، كنت أعتقد أنني سأترك خلفي أيضًا كل الذكريات الأليمة والأوجاع.
لكنني وحدي في بلاد لا أعرفها ولا تعرفني، اكتشفت أنه لم يملأ وقتي سوى الذكريات الأليمة، ولم يشغل بالي سوى إحساسي بأن الحياة قد انتهت عند تلك اللحظة التي فارقت فيها (شاهندة).
لم أتخيل أبدًا أننا قد نفترق بعد أن وجد كل منا الآخر، وبعد أن تيقن القلب أنه وجد مبتغاه دون بحث أو ترتيب.
مازلت أذكر ابتسامتها يوم صارحتها برغبتي أن تكون لي إلى الأبد.. تلك الابتسامة التي تلتها تنهيدة حارة انطلقت وكأنها قد حبستها بداخلها دهراَ، ودموع غزيرة سالت على وجنتيها بينما تخبرني أنها ظنت أنني لن أتكلم، وأنها لن تسمع مني تلك الكلمة أبدًا، وقد انتظرتها في شوق منذ وقت طويل.
كانت المشكلة الوحيدة أمامنا في ذلك الوقت هي والدتها؛ فقد تأكدت من حديث (شاهندة) عنها أنها لن تقبل أن تتزوج إحدى بناتها من شخص اختارته إحداهن دون أن يكون لها هي الرأي الأول في الأمر.
لذلك عندما سألت (شاهندة) كيف ستخبر والدتها بأمر رغبتي في مقابلتها، قالت بكل براءة أنها ستخبرها الحقيقة وهي أنها تحبني ولن تتزوج بشخص سواي، فطلبت منها ألا تفعل ذلك وأكدت لها إنها إن فعلت، فلن تقبل والدتها أبدًا بأمر زواجنا وسألتها أن تخبر والدتها أنني مجرد زميل عمل عرض عليها الأمر، وطلب أن يقابل والدتها، وأنها تنتظر منها أن تشير عليها برأيها الذي ستقبل به أيا كان، ثم تدع لي باقي الأمر في إقناع والدتها بي.
لكنها عندما أخبرت أمها بالأمر لم تفعل مثل ما طلبت ولم تراعِ أنها بذلك حصلت على رفض والدتها المسبق، فلم تقبل السيدة رؤيتي وطلبت من (شاهندة) تأجيل التفكير في الأمر حتى يعود خالها من السفر بعد أسبوعين، وعدم الحديث معي نهائيَا وإلا سوف تجبرها على ترك العمل.
كان ما يحدث جنونًا لا يطاق، مرت عدة أسابيع دون أن تعطي والدتها الإشارة بقبول رؤيتي دون مبررات وقد عاد خالها من السفر منذ وقت طويل، وبدأت أشعر بالغضب وبدأت (شاهندة) في الإلحاح على والدتها، حتى جاءت ذلك الصباح ورأيتها في الشركة،

وهي تحاول أن تخفي جانب وجهها الأيسر بينما تجلس على مكتبها، ورأيت ما أثار جنوني؛ كانت علامة زرقاء تحت عينها عرفت أنها آثار ضرب بسبب اعتراضها على تأجيل والدتها للمقابلة.

وكانت هذه هي الإشارة التي أفقدتني القدرة على الاحتمال، فاتصلت بخالها، كان كما عرفت منها رجلًا عقلانيًا، ويعمل بإحدى الجهات السيادية، لذلك حادثته بشكل موضوعي، وطلبت منه أن يضع نهاية لذلك الأمر، كنت حادًا بعض الشيء بسبب غضبي لرؤيتي إياها وقد تم ضربها بهذا الصورة، وأخبرني أنه سيتحدث مع والدتها ويحدد لي موعدًا قريبًا، ثم اتصل بي بعدها وأخبرني أن والدتها حددت لي موعدًا، وصارحني بتفضيله لذهابي وحيدًا في المرة الأولى وقد كان.

الغريب أن الرجل لم يتحدث بكلمة طوال الجلسة، كانت والدتها فقط تتحدث بكل غطرسة وكأنها تحاول أن تجعلني أخطئ في أي شيء، تسألني عن أحوالي المادية بصورة استفزازية وكأنها تبحث عن أي مبرر للرفض، وفهمت لماذا أرادت أن أكون وحيدًا في تلك المقابلة.

وانتهى الحوار كما بدأ، بلا ملامح ولا تحديد لشيء سوى أنهم سوف يفكرون في الأمر ويخبرونني برأيهم في خلال أسبوع آخر.

لم أفهم كيف يتعامل هؤلاء الأشخاص مع الأيام والأسابيع، ثلاثة أسابيع أخرى تحملتها على مضض قبل أن أفقد صبري، وأتصل بخالها لأسأله عن الأمر وكيف لم يتم الرد على طلبي، فيجيبني بكل بساطة أن والدتها مازالت تفكر في الأمر.

عرفت بعد ذلك أنها طلبت منها أن تقدم استقالتها وقد وجدت لها عملًا آخر، وخيرتها بين ذلك أو ترك العمل نهائيًا والمكوث في البيت، وفهمت أن كل ذلك التأجيل لم يكن لسبب سوى أن تبحث لها عن عمل آخر تبعدني به عن عينيها قبل أن تعلن رفضها غير المسبب.

وكأي أحمق قمت بعشرات الاتصالات بوالدتها وبخالها وطلبت أن أعرف حتى إن كان هناك سبب للرفض، لكن والدتها أعلنت الأمر صراحة في وجهي بعد أن فشلت في التخلص مني، أنها لن تزوجها لشخص تحبه حتى وإن كان آخر رجل على وجه الأرض، وأنها لن تترك ابنتها لتتعذب على يد رجل أبدًا بسبب الحب.

كانت المرأة مريضة حقًا، مريضة إلى الدرجة التي جعلت (شاهندة) تتصل بي وتطلب مني أن أقابلها سرًا وتخبرني أنها تشاجرت مع والدتها، وأخبرتها أنها لن تتنازل عن حبها لي، فأخبرتها الأم أنها لن توافق على الزواج وأنها إن أصرت فلتذهب إلى خالها ليزوجها ولا تريها وجهها مرة أخرى، فأعلنت (شاهندة) موافقتها على ذلك وأخبرتها أنها تقتلها بموقفها بلا سبب، فضربتها الأم بكل قسوة وأخبرتها أنها سوف تقتلها بالفعل ولن تزوجها مني أبدًا ما كانت على قيد الحياة.

يومها طلبت مني (شاهندة) أن أتزوجها رغمًا عن موافقة والدتها، وأنها لم تعد قاصرًا وأنها لن تترك حياتها تضيع بلا سبب، وطلبت مني أن أخبر أهلي برغبتها وأن آخذها إليهم لنتزوج.

كانت تلك أقسى لحظة تمر بي في حياتي..

أن أحب فتاة إلى تلك الدرجة، وأن أعتقد أن سعادتي لن تكون إلا في وجودها، وأن أخبرها أنني أرفض الزواج منها بهذه الطريقة.

انهارت (شاهندة) في البكاء والنحيب حتى مزقت قلبي، لكنني لم أكن لأفعل بها هذا الأمر.

لا أدري إن كنت قد أخطأت في ذلك القرار وقتها أم لا، لكنني كنت أفكر فيها، كنت أعلم أنها ستندم مع الوقت إن فعلت ذلك، ووعدتها أنني سأستمر في المحاولة ولن أستسلم، لكنها نظرت لي نظرة لوم مزقت قلبي وتركتني وذهبت تهرول مبتعدة.

تبتعد عني لتختفي تدريجيًا، وتبدأ الأمطار في التساقط بينما أقف مكاني بلا حراك، لا أدري كيف يمر الوقت ولا ما الذي يحدث في العالم حولي، وقد أصبح كل شيء بلا معنى ولا لون.

لم أكن أتخيل أن تنتهي حياتي بهذه الطريقة..
في غابة مجهولة على أطراف (أوغندا)، أسيراً تحت هيكل سيارة مقلوبة في العراء.. في انتظار الموت جوعًا أو بين أنياب أسد بري جائع.
ربما لن يعرف أحد أبدًا ما حدث لنا هنا؛ لأنه على الأرجح لن يصل إلى هذا المكان سوى الصيادون غير الشرعيين، وهؤلاء لن يعيروا الأمر اهتمامًا، وسيعبرون فوق جثثنا مثلما يعبرون فوق جسد أي حيوان نافق.
كنت في حالة استسلام، مستلق ووجهي للسماء أتأمل النجوم اللامعة التي تظهر من بين السحب المتراكمة.. ولا أدري كيف أو لماذا تملكني كل هذا الهدوء في تلك اللحظات العصيبة.
لماذا لا ندرك مبكرًا أن الرحلة قد تنتهي في أي وقت!؟
لربما لو أدركنا ذلك لاختلفت نظرتنا للحياة، ولتغيرت طريقتنا في التعامل معها ومع الآخرين من حولنا.
كان (فريد) أيضًا على قدر خوفه من الموت وقلقه على (ماريا)، قد بدا أنه استسلم للأمر الواقع. كان يرتعد على الرغم من ذلك بسبب البرد وبركة المياه التي يجلس فيها.
لم أكن أريد الموت في تلك اللحظات؛ ربما لأنها لحظة من اللحظات النادرة التي يتسنى للمرء فيها أن يدرك روعة الحياة، وكم هو جميل ذلك القمر الذي ينظر إلينا من السماء.. كنت في حالة من النشوة كطفل يرى الليل والنجوم للمرة الأولى في حياته..
أحسست بالحنين إلى أبي وأمي يعصف بكياني وقتها، وشعرت بدموعي تنساب دافئة على وجهي، كم أود لو أستطيع احتضانهما طويلًا! أغمضت عيني وتخيلتهما بجواري يبتسمان.
أخذت أتمتم بالدعاء، أحاول أن أتذكر كل ما يمكنني الدعاء به، وكأنها لحظاتي الأخيرة في الحياة، وسمعت (فريد) يترنم بكلمات لم أعرف إن كانت أغنية أم صلاة..
"أعلم أنني المسيء في كل وقت..
لم أكن مثاليًا في يوم من الأيام..
إيماني وصلاتي هي كل ما أستطيع الآن..
أن أبكي وأنتظرك أن تأتي لتنقذني..
يا حبيب القلب أنقذني..

أنا هنا تائب إليك، فهل تراني؟؟

أقولها وأؤمن أنني سأتغير..

فهل تعطيني فرصة أخرى؟؟

لقد ضللت طريقي، فأقبِل وأعدني..

المجد لك."

عزيزتي ريم..

رأيت خلال نومي حلمًا غريبًا..

كنت كأنني تائه في صحراء بلا نهاية، وقد أعيتني حرارة الشمس وليس حولي شيء أستظل به ولا ماء..

أخطو بصعوبة على الرمال الملتهبة فتحرق باطن قدمي، والعرق يغمرني، ويتسلل إلى عيني يؤلمها، ويحجب عني الرؤية.. لم أكن أعرف كيف بدأت تلك الرحلة ولا ما الذي ألقي بي في هذا الهلاك، لكنني كنت أعرف أن لتحملي سببًا وأن شيئًا ما يستحق معاناة الوصول.

ولسبب ما مددت يدي في جيبي فوجدت إحدى رسائلك..

فتحتها وقرأت ما فيها. كانت كلمات قليلة، كررتها مرات عدة أحفظها في ذاكرتي وكأنني أعلم أن ما يحدث حلمًا ربما لا أذكر منه شيئًا، ورغم ذلك لم أتذكر كلماتها بعد استيقاظي.

كنت في أمس الحاجة إلى شربة من الماء وقد جف حلقي وامتلأ بطعم الرمال..

وعلى البعد رأيت الماء يتلألأ..

وأخبرني عقلي أنه سراب وسط الصحراء، لكن الأمل أطلق في نفسي شيئًا من الرغبة في الوصول؛ لعلني أجد ما يطفئ لهيب الحر والعطش.

تحاملت على نفسي وحثثت السير إلى حيث الواحة، وعندما اقتربت توقفت وقد رأيت ما جعلني أنسى الحر والعطش والتيه..

رأيت أمي جالسة على وسادة حريرية وعلى وجهها علامات الرضا والسعادة، وإلى جوارها تقف فتاة شابة تحادثها بينما توليني ظهرها، فلم أعرف من هي أول الأمر.

اقتربت في سرعة وقلبي يخفق من الفرح، لكن أمي لم تكن تراني ولم أكن أتقدم مهما أسرعت السير وحاولت الوصول.

هتفت كي تسمعني أمي لكن صوتي لم يصل إليها لا أعرف كيف..

ووجدتها تقف على قدميها ثم تمسك بكف الفتاة وتسيران مبتعدتين رغم هتافي بها أن تنتظرني..

وتوقفت مكاني ذاهلًا عندما التفتت لي الفتاة ورأيت وجهها..

كانت أنتِ!

لم أفهم معنى الحلم ولا لماذا تركتماني في الصحراء مبتعدتين..
هل تدركين تفسيراً لحلم كهذا؟
سأبحث في مواقع تفسير الأحلام عند عودتي من العمل، وأتمنى ألا يشغلني التفكير في ذلك الأمر عن العمل اليوم..
أتمنى لك صباحًا جميلًا.

شيء غير مفهوم في تلك المدينة. تفتقد الحياة في (الرياض) إلى الروح، ولا أدري لماذا كنت أتأمل بعض الأشجار في طريقي إلى العمل كل يوم متعجبًا، كنت أشعر وكأنها مجرد صورة مرسومة بلا حياة، وأظل أحاول فهم ما هو الغريب فيها. كانت مجرد مجموعة من الأشجار الخضراء أمام ساحة من الرخام يلهو فيها الأطفال بدراجاتهم الصغيرة، لكن الصورة العامة كانت دائمًا تفتقر إلى شيء ما، حتى فهمت ذات مرة عندما تنبهت أن تلك الأشجار لا تسكنها الطيور.

لم يكن هناك ما يمكن فعله بعد أوقات العمل سوى الجلوس في مقهى الإنترنت، أتصل يوميًا بأمي وأبي عبر برامج المحادثة لأطمئن عليهما، وأبارك ما تبقى من نفسي وروحي بسماع صوتيهما، ثم أقضي بعض الوقت في تصفح مواقع التواصل الاجتماعي دون مشاركات، ثم أعود إلى الفندق لأقلب في قنوات التلفاز حتى وقت النوم.

يوم واحد متكرر بلا انقطاع، مقابلة نفس الوجوه العابسة في الصباح وتصفح الإنترنت والتنقل بين قنوات التلفاز في المساء، كنت أفتقد حتى إمكانية السير في شوارع على قدمي بسبب حرارة الجو الشديدة الارتفاع.

قضيت الأيام الأولى هناك أحاول تناسي أمر (شاهندة)، وكأنني قد تقبلت الأمر وطويت تلك الصفحة من حياتي.

مازلت أذكر الاتصال الأخير بيننا قبل سفري، أخبرتني أن أبتعد وأنه لم يعد هناك أمل في أن نكون سويًا في هذه الحياة.

لم أتقبل الأمر وقلت لها أنني لن أتنازل عن وجودنا سويًا مهما حدث، وأنني اتصلت بوالدتها بالأمس، فقالت أنها سمعت الاتصال وسمعت والدتها تهددني بالقتل، فأخبرتها أنني لا أخشى الأمر ولن أتركها أبدًا حتى إن كانت صادقة في تهديدها، لكنها قالت أنها تعبت من كل شيء ووجودي في حياتها أصبح مصدرًا للألم. ألم أنها لا تستطيع أن تكون بجواري وألم معاملة أهلها لها كأنها ارتكبت جرمًا دون ذنب اقترفته بذلك الحب، وأخبرتني أنها ستقبل بالشخص الذي اختارته لها والدتها وليكن ما يكون، وسألتني إن كنت أحبها حقًا أن أبتعد وأتركها حتى تستطيع النسيان.

وقتها فقط قررت الهروب من كل شيء إلى أبعد مكان ممكن.. إلى أي مكان يمكنني الذهاب إليه، ولعل الأيام تساعدني أنا الآخر على النسيان.

لكنني بعد عدة أسابيع بدأت أشعر برغبة جارفة في الاتصال بها. كنت أريد فقط أن أسمع صوتها وأطمئن عليها، وأن أتأكد أنها بخير.. كنت أعلم أنه ربما لم يعد من حقي الاتصال بها بعد أصبحت لشخص آخر، لكنني كأي محب لم يكن قلبي يصدق أن ما حدث هو نهاية القصة، وأنها يمكن أن تكون لأحد غيري.

ترددت كثيراَ في الاتصال، ومنعت نفسي أيامًا مرت عليّ كسنوات طويلة، حتى وجدتني في تلك الليلة أطلب الرقم دون تردد، وأضع الهاتف على أذني أسمع تلك الرنات الطويلة، وقلبي يدق في وجل منتظرًا أن يأتيني صوتها لتهدأ تلك النيران المتأججة في قلبي قليلًا، لكنها لم ترد.

جعلني عدم الرد أشعر بالقلق الشديد، وجعلني في احتياج أكبر للاطمئنان عليها، وقررت الانتظار حتى اليوم التالي لأتصل بها، لكن بعد دقائق طويلة من الأفكار المتخبطة دق جرس هاتفي، فأسرعت أنظر إلى الاسم الأثير الذي ارتسم على الشاشة وقلبي يدق في جنون.

ـ "(شاهندة)!"

جاءني صوتها عبر الهاتف منهارًا باكيَا تقول:

ـ "افتقدتك حتى الجنون!!"

أغمضت عيني، وكأنني أحبس صوتها بداخلي، وأتركه ليسري في عروقي ويعيد لي الحياة.

ـ "افتقدتك أيضًا يا (شاهندة)"

انخرطت في بكاء شديد، وبقينا لدقائق طويلة لا أسمع منها سوى نهنهة متقطعة حاولت خلالها أن أعزيها وأعزي نفسي ببعض الكلمات التي نعرف كلانا أنه لا طائل منها، وقد قدر لنا ألا نكون سويًا.

ـ "أنا أحبك يا (يوسف)، أنت تعلم أنني أجبرت على ذلك الأمر، وأنا لا يمكنني الحياة من دونك ولا أريد سواك"

لم أكن أستطيع أن أفهم كيف يحدث هذا في زماننا الحالي، من يستطيع أن يجبر فتاة على الزواج بغير إرادتها! هل نحن في القرن التاسع عشر!؟

ـ "وماذا بعد يا (شاهندة)؟"

لم يرد على كلماتي سوى المزيد من البكاء، قبل أن تقول في لهفة باكية:

ـ "يجب أن تعود يا (يوسف). لا تتركني وحدي وسط كل هذا الجحيم. أنا لا أستطيع الاحتمال. فقط عد وسوف نحاول من جديد"

كان بكاؤها يمزق أوتار قلبي..

ـ "يمكنني قضاء عمري في المحاولة دون فتور حتى تكوني معي إلى الأبد. فقط عديني أنك لن تكوني إلا لي"

ـ "لن أكون إلا لك يا (يوسف).. صدقًا لن أكون إلا لك"

كان قرارًا صعبًا، ولكنني لم أتردد لحظة في اتخاذه، وفي اليوم التالي كنت قد أبلغت الشركة برغبتي في العودة إلى القاهرة.

كان الأمر مفاجأة بالنسبة إليهم، لم يقبلوا به في البداية، لكنني أصررت على موقفي، وأخبرتهم أن الأمر بالغ الأهمية بالنسبة لي، وأنني سوف أعود حتى وإن كان الأمر سوف يستدعي تقديم استقالتي من الشركة والبحث عن عمل آخر.

بصعوبة بالغة حصلت على الموافقة، وفي خلال أيام عدت إلى القاهرة، لأجد مفاجأة أخرى في انتظاري. تلك المفاجأة التي قلبت حياتي رأسًا على عقب، وأحرقت آخر شراع لي من الأمل في الحياة.

ارتفع صوت عواء مخيف بشكل مفاجئ، جعلني أنتفض في مكاني تحت السيارة المقلوبة التي تحتجزني بلا رحمة ولا قوة لي على الخلاص، فتلفت حولي أبحث عن مصدر الصوت.

ـ "(فريد)، هل تسمع ذلك؟"

همست أسأل في ذعر، لم يرد (فريد) على الفور، ولكن يبدو أنه أصغى السمع لثوان يستمع إلى الصوت من جديد قبل أن يجيب مؤكدًا:

ـ "نعم"

كان الخوف قد ا ستبد بي إلى أقصى درجة وأنا أسأل، بينما ترتعد أوصالي رغمًا عني وأشعر بالعرق يغمر جبهتي على الرغم من برودة الجو.

ـ "ما هذا الصوت؟"

أجابني في صوت خافت مرتعد:

ـ "ربما يكون ذئبًا. لا أعرف تحديدًا"

لاشعوريًا وجدت نفسي أحاول من جديد تحريك جسدي من تحت السيارة، وكأنني نسيت عشرات المحاولات الفاشلة السابقة.

ـ "ماذا يمكن أن أفعل يا (فريد)؟"

قال (فريد) محاولًا بث الطمأنينة إلى نفسي، لكن صوته المرتجف لم يكن يستطيع الكذب:

ـ "لا تجعل الخوف يتملكك.. ربما هو ليس بقريب، وقد يكون مجرد ذئب عجوز تائه"

كنت أعلم أنه عاجز عن التصرف مثلي تمامًا، لكنني كنت خائفًا وغاضبًا للغاية.. خائف من الموت، وغاضب لأنني سأموت بهذه الطريقة.

كنت مستمرًا في محاولة تخليص نفسي ضاغطًا على أسناني مستجمعًا كل قوتي وأنا أسأل:

ـ "كيف تعرف ذلك؟"

ـ "يبدو صوتًا مفردًا، لابد أنه ذئب شارد عن مجموعته وفي الأغلب هو ذئب عجوز منهك"

كانت كلمات (فريد) المطمئنة مع صوته المذعور لتزيد خوفي، لولا أنني كنت قد وصلت إلى أقصى درجات الخوف من الأساس، وبدأت أشعر أن السيارة قد اهتزت من محاولاتي، لكن ليس إلى الدرجة التي تمكنني من الخلاص.

كنت قد أنهكت من المحاولة، فتوقفت عن الأمر، وتركت جسدي ممددًا على الأرض من جديد، وأغمضت عيني للحظات أحاول التنفس، قبل أن أفتح عيني هذه المرة لأجد أسوأ ما يمكن أن يجده شخص ملقى على الأرض، مقيد الحركة، أمام عينيه على الإطلاق.

لم أكن خبيراً في أنواع الحيوانات، لكن الأمر لم يكن يحتاج إلى خبرة ما لأعلم أن ما يقف أمامي ذئب متوحش ينظر لي في شراسة، وقد بدت أنيابه الحادة من بين فكيه.

اقترب الذئب حتى صار على بعد سنتيمترات مني، وقد انتفضت عروق رقبتي حتى كادت تنفجر، وأنا أحاول إبعاد جسدي في استماتة من تحت السيارة، بينما أفتش بيدي في هيستيريا عن أي شيء حولي يمكن أن أدافع به عن نفسي ضد هذا المخلوق.

نغمات هاتف محمول ترددت فجأة لتعيدني من حالة بين اليقظة والغياب عن الوعي بسبب كل تلك الجرعة المبالغ فيها التي أفرزها جسدي من الأدرينالين.

كان رنين منبه هاتفي المحمول يدق من جديد ليذكرني بموعد جرعة الوقاية من (الملاريا).. كنت قد ضبطت المنبه ليدق عدة مرات حتى لا أنسى، وكأن الإصابة بـ(الملاريا) هي أكبر مخاوفي في ذلك الوقت.

أغمضت عيني ثم عدت لأفتحها في سرعة أحاول أن أستوعب أثر هرمون الخوف الذي تدفق في دمي بصورة مفزعة، وعلى وجهي سقطت بعض حبات المطر، فأجفلت في ذعر.

أنظر إلى تلك الأنياب المرعبة، وهي تقترب في هدوء وثبات، بينما أحاول أن أمنع الدموع التي ملأت مقلتي من صنع غشاوة على عيني تمنعني من الرؤية.

عزيزتي ريم..

ربما لم يكن ما في منامي رؤيا حقًا كما تقولين، لكنني قرأت تفسيرك للحلم ولم أقتنع سوى بجملتك الأخيرة، أنه لو كانت أتيحت لكِ الفرصة لتعرفي أمي جيدًا لأصبحتما صديقتين حميمتين. أنت حقًا تشبهينها في بعض الأشياء، وأهمها ذلك الاهتمام الذي تقدمينه للجميع بلا مقابل.

أما بشأن معنى الصحراء كما تفسرين، وأنها تلك العزلة الاختيارية التي فرضتها على نفسي، فأنا لم أقبل تلك العزلة إلا بعد أن أطاحت الحياة بكل ما أحب وألقت بي مجبراَ في ذلك الطريق.

سؤال آخر يجول بخاطري أحيانًا..

هل تعتقدين أن الحياة تحب أن تتلاعب بنا، فتبتسم في وجوهنا تارة وتعبس أحيانًا أخرى، أو تفاجئنا بأشياء لم تكن أبدًا في الحسبان؟؟

لا أعرف ما هي الحقيقة..

يعتقد البعض أننا مسؤولون عما يحدث لنا في الحياة، ويتحدثون عن تلك الأسرار في قوانين الجذب، وغيرها من الأفكار الغربية. ويحاولون في مجتمعنا تدعيم كلماتهم البراقة بغلاف من الأحاديث النبوية أو الآيات القرآنية التي يؤوّلونها وفق ما يشاؤون.

لكنني أعتقد أنه لا دخل لنا بتصاريف الأقدار، وأنها قد كتبت وفرضت علينا وأن الحياة ما هي إلا اختبارات، سواء تلك الأجزاء السعيدة منها أو المؤلمة.. اختبارات لا تنتهي سوى بالموت.

لكنني أعرف أيضًا أنني قد أكون أضعف من أن أحتمل..

ليت كان باستطاعتي أن أعتزل الحياة في كهف مثلما كانوا يفعلون قديمًا.. نعم.. كهف بعيد في الصحراء، ربما بجواره بئر ماء ونخلتين..

يا لها من حياة لم أعد أطمع في سواها!

لكن ترى هل كنت سأحتمل الأمر؟

لابد أن المزيد من الاختبارات كانت لتأتيني أيضًا هناك وأنا في ذلك المنفى الاختياري..

ربما كانت ستأتي حتمًا؛ فهي سنه الحياة التي لا يفلح عقلي القاصر في استيعابها.

فخطيئة آدم في الجنة، وعصيان الأمر الإلهي، وحصوله على الثمرة المحرمة التي ألقت به في الأرض كان مقدراً ربما من قبل خلق آدم.

ألم يكن خلق آدم من الأصل ليكون في الأرض خليفة!؟

أفكر كثيراَ في ترك الأمور تجري كما هو مقدر لها وألا أشغل بالي بشيء أو حتى بأين سيستقر المركب الذي أطاح به الطوفان؛ لأنه حتمًا يعرف طريقه مسبقًا.. لكن الأمر أحيانًا يكون أصعب من قدرات هذا القلب ضعيف الإيمان.

يا لتخبطي وعنائي!

أسألك أن تذكريني بالدعاء في صلواتك، ربما يستجيب الله لقلب طاهر مثل قلبك.

عندما كانت تبتسم أمي، وكأن الدنيا كلها تبتسم لي في ذات الوقت.

كنت أفتقدها بشدة، وعندما عدت، وألقيت بنفسي بين ذراعيها، كنت كمن يتنفس من جديد بعد أن كاد يموت اختناقًا، أو كمن عادت الدماء إلى عروقه مرة أخرى، ليعلم أنه مازال على قيد الحياة.

وعلمت أن ما من سبب على وجه الأرض قد يدفعني لتركها والسفر من جديد..

مخطئ بلا شك أن كنت أريد الهروب من ذكرى حب، فأترك مصدر الحب الرئيسي وشريان الحياة.

في ذلك المساء جلسنا سويًا تسألني كيف كنت أهتم بطعامي وشرابي وكيف كنت أقضي الأيام وحدي، وسألتني عن (شاهندة).. لم أكن قد أخبرتها شيئًا مما حدث على أمل أن الأمور قد تتحسن، ولم تعلم سوى أنني أجلت موعد مقابلة والدتها حتى عودتي من السفر، فأخبرتها أنني سأتصل بوالدتها وأحدد موعدًا قريبًا كي نذهب لمقابلتهم والاتفاق على كل شيء.

كنت قد أرسلت رسالة إلى (شاهندة) بمجرد نزولي من الطائرة، أنني قد عدت إلى (القاهرة) وطلبت منها أن تتصل بي وقتما تستطيع، لكنني لم أتلق ردًا على تلك الرسالة حتى المساء تخبرني بكلمات قصيرة أنها لا تستطيع الاتصال بي؛ لأنهم في المنزل لا يتركونها وحدها أبدًا، وأنها ستقوم بمحادثتي في الغد عندما تذهب إلى العمل.

وفي صباح اليوم التالي اتصلت بي، واتفقنا أن نلتقي بعد ساعة مرت كأنها سنة كاملة لا تنتهي.

كنا في سعادة لا توصف عندما رأت عينا كل منا الآخر، نتمنى أن يتوقف الزمن عند تلك اللحظة إلى الأبد.. ترتعش أطراف أصابعها دون إرادتها، ويبدو على وجهها التعب والهزال، وتحت عينيها سواد من كثرة البكاء، وأتمنى لو أستطيع أن أخفف عنها آلامها وأعوضها عن كل ما فات.

ـ "هل عدت من أجلي حقًا؟"

سألتني في تشكك بفم مرتعش، وفي عينيها نظرة لم أفهمها..

ـ "بالتأكيد يا (شاهندة)"

هزت رأسها في حيرة، وهي تقول:

ـ "لا أدري إن كنت قد سافرت حقًا أم أنك كنت تدعي ذلك لتبتعد عني"

كان الأمر جنونًا بالنسبة لي أن تعتقد أن كل ما حدث ما هو إلا مجرد تمثيلية، لكنني لم أجد ما أقول سوى أن أخرج جواز سفري أمده إليها في ذهول قائلًا:

ـ "يمكنك أن تتأكدي من ختم العودة على جواز السفر"

أمسكت بجواز السفر، وقلبت صفحاته تنظر إلى تأشيرة السفر، وأختام الذهاب والعودة، قبل أن تقول في ذات التشكك:

ـ "ربما تكون قد سافرت بالفعل، لكنني لا أصدق أنك عدت من أجلي، وإلا لماذا لم تتصل بي طوال ذلك الوقت!؟"

كنت لا أصدق ما يحدث منها الآن، فهتفت في ذهول:

ـ "لقد تركتك، لأنه كان طلبك أن أبتعد!"

صمتت، ونظرت إلى الأرض، وبكت.. لم أكن أفهم ما الذي يحدث لها، لكنني كنت أشعر أنها لم تكن هي (شاهندة) التي تركتها قبل أسابيع.

ـ "ماذا بك يا (شاهندة)؟"

هزت رأسها وهي لا تزال منخرطة في البكاء، قبل أن تقول:

ـ "لا أدري ما الذي يحدث لي، لقد تعبت من كل شيء، تعبت حتى من الحياة"

ـ "لا تقولي هذا"

ـ "لم أعد أحتمل يا (يوسف)"

قلت محاولًا بث الطمأنينة إلى نفسها:

ـ "سوف أطلب من والدي أن يتصل بخالك وبوالدتك، سوف أفعل كل ما تشاء حتى توافق على زواجي منك"

لم ترد، لكنها أطرقت إلى الأرض، واستمرت في البكاء، فعدت أقول في حنو:

ـ "لقد عدت من أجلك يا (شاهندة)، فقط عديني أنك ستكونين لي وسوف أقاتل من أجلك حتى نكون سويًا إلى الأبد"

رفعت وجهها نحوي، وصمتت، ولم أرَ في عينيها سوى نظرة حائرة، لم أفهم معناها في ذلك اليوم.

في تلك الليلة لم يهنأ عقلي بالنوم، بل ظل يدور بلا هوادة يفكر ويحلل ما حدث بيني وبين (شاهندة)، ويجلب لي كل الأفكار السيئة، ويجسدها أمامي بلا رحمة.

صوت أمي هو ما جعلني أستفيق من تلك الخيالات، سمعتها تنادي على أخي الذي كان نائمًا، فلم يسمعها وكان أبي ما زال بالخارج.. استيقظت على صوتها الواهن مذعورًا، فقفزت من فراشي، وانطلقت أهرول إلى حجرتها.. كانت نائمة على ظهرها فمدت إليّ يديها في ضعف طالبة مني أن أساعدها على النهوض كي تذهب إلى الحمام.

أمسكت بيديها، وأجلستها على الفراش، ثم أمسكت بقدميها، ووضعتهما على الأرض، وألبستها نعليها، ثم ساعدتها على النهوض.. كانت لا تقوى حتى على زحزحة ساقيها..

كان قلبي قد بلغ ذروة انفعاله عندما رأيتها في تلك الحالة من التعب والضعف، ووجدتني أشعر بالأرض تتمادى تحت قدمي، إلا أنني تحاملت على نفسي، وأنا أحاول مساعدتها حتى أوصلتها إلى هناك، ثم خرجت وأغلقتُ الباب خلفي، وأخبرتها أن تطلبني عندما تريد، وعدت أهرول إلى أقرب أريكة قبل أن أسقط أرضًا.. لأعود وأتحامل من جديد بعد دقائق كي أعيدها إلى فراشها.

أخبرنا الطبيب الذي أتينا به إلى المنزل أنها تعاني من التهاب في الأعصاب، وكتب لها بعض الأدوية، ونصحنا بنقلها إلى إحدى المستشفيات لإجراء فحوصات طبية كاملة حتى يتأكد من سبب ما يحدث.

وبعد أسبوع كامل من الإقامة بالمستشفى، وفحوصات على المخ والعمود الفقري والفقرات والأعصاب، وتحاليل لا حصر لها على كل أجزاء الجسم، وأدوية للأعصاب لم تفلح في إضافة أي شيء سوى أنه في خلال بضعة أيام كانت قد عجزت تمامًا عن المشي أو الحركة، واشتد ألم معدتها فامتنعت حتى عن الطعام.. جاء تقرير الطبيب ليفصح عن مصيبة وجود ورم بالكبد.

لم أحتمل يوم عرفت ذلك الأمر.. كنت عائدًا من المستشفى أمشي كالتائه وقد انتصف الليل بينما أسير دون هدف وسط ذلك الجو القارس البرودة والأمطار التي لا تتوقف.

أخطو بحذائي وسط برك المياه، غير آبه بالبرد الذي يخترق عظامي وملابسي التي ابتلت تمامًا، وتحولت إلى رداء من الجليد يلتصق بجسدي.

كنت أريد أن أصرخ وسط الطريق.. أن أعدو بلا هدف حتى تنقطع أنفاسي.. أن أمارس الجنون بأي صورة حتى لا يصيبني الجنون.

وربما كنت حقًا في حاجة إلى شخص أرتمي بين يديه، وأجهش بما في صدري من هموم..

أخرجت هاتفي المحمول من جيبي، وطلبت رقمًا كنت ما زلت أحفظه عن ظهر قلب.. وبعد لحظات جاءني صوت (شاهندة) ناعسًا وكأنها استيقظت للتو..

ـ "(يوسف)، كنت أنتظر اتصالك"

لم يكن مرض أمي قد أمهلني الوقت لمفاتحة أبي في أي شيء، فاتصلت بها يوم دخلت أمي إلى المستشفى، وأخبرتها بما حدث وسألتها أن تساندني حتى تنتهي هذه المحنة، ثم نبدأ المحاولة مع والدتها من جديد، لكنها طوال أسبوع كامل من الألم والتعب لم تتصل بي سوى مرتين، كنت أعرف أنها ربما تحت ضغط قاس من والدتها، لكنني في داخلي كنت أتمزق وحيدًا.

ـ "كيف حالك يا (شاهندة)؟"

ـ "أنا بخير، كيف حالك أنت؟"

ـ "الحمد لله"

صمتت لحظة، وكأنها تنصت للأصوات حولي، قبل أن تسأل:

ـ "أنت في الخارج؟"

ـ "نعم"

قالت متعجبة:

ـ "ماذا تفعل في هذا الطقس السيئ إلى الآن؟"

ـ "كنت في المستشفى"

كان صوتها فيما مضى يحمل حنانًا محببًا، حاولت البحث عنه، لكنني لم أجده.

ـ "كيف حال والدتك الآن؟"

خرجت من صدري زفرة تشكلت في صورة بخار أمام وجهي، وأنا أقول في يأس:

ـ "لم تتحسن حالتها"

قالت في صوت بدا مصبوغًا بالحزن:

ـ "أسأل الله أن يشفيها من أجلك"

مرت فترة من الصمت، قبل أن تقول في تردد:

ـ " ربما لا يبدو الوقت مناسبًا يا (يوسف)، لكن يجب أن أخبرك أن الأمور تتطور بسرعة غير عادية دون إرادتي"

ـ "ماذا تقصدين؟"

بدا صوتها متوترًا، وهي تقول:
ـ "لقد حددوا موعدًا لخطبتي"
ـ "حقًا!؟"
لم أجد سوى هذه الكلمة التي لا تعني أي شيء سوى أنني لم أكن أصدق كيف يحدث لي كل هذا، ولا أدري لماذا كان صوتها هذه المرة في أذني مختلفًا وكأنني أحادث شخصًا لا أعرفه.
ـ "نعم، منذ يومين، ولم أستطع إخبارك بسبب مرض والدتك"
تتأجج النار بداخلي، وأحاول كتم تلك المشاعر كيلا أنفجر من الغضب.
ـ "وماذا يجب أن يحدث الآن يا (شاهندة)؟"
ـ "لا أدري"
ـ "هل وافقتِ على الخطبة؟"
قالت في صوت مختنق بالبكاء:
ـ "أنت تعلم أن الأمر لم يعد بيدي"
ـ "كنت أعتقد أن ما بيننا يستحق أن نقاتل من أجله.. لقد عدت من أجلك!"
ـ "أعرف أنك فعلت، لكنني..."
قاطعتها في عصبية، وقد كدت أجن مما يحدث:
ـ "لكنك ماذا يا (شاهندة)!؟"
لم تجب عن سؤالي، ولم أستمع سوى لأنفاسها الباكية، فعدت أقول محاولًا تمالك أعصابي:
ـ "لا عليك، لا تجهدي نفسك في البحث عن إجابات يا (شاهندة)"
عادت تصمت من جديد للحظات، قبل أن تنفجر في البكاء وهي تقول:
ـ "كما تشاء. لم أعد أعرف ماذا أفعل من أجل الجميع. أمي تتهمني بالعقوق وأنت تتهمني بالتخاذل. أنا لم أعد أتحمل أي شيء، ولم أعد أريد أي شيء على الإطلاق"
لم أجد كلمات للرد على ما تقول، لكنني حاولت ألا أفقد أعصابي في تلك اللحظة، وأنا أقول:
ـ "وأنا لا أريد أن أحمّلك ما لا طاقة لك به يا (شاهندة)"
لم ترد، واستمرت في البكاء، فعدت أقول:

ـ "ماذا تريدين يا (شاهندة)؟"
استمرت في صمتها للحظات، قبل أن تجيب:
ـ "لا شيء"
لم أجد ما أقول، وشعرت بالصور تهتز أمام عيني.
ـ "كما تشائين"
ـ "وداعًا يا (يوسف)"
ـ "وداعًا"
قلتها ثم أنهيت الاتصال. كانت مشاعري مبعثرة لا أعرف من أين تبدأ وإلى أين تنتهي.
كنت يومها بحاجة إلى شخص يمكنني أن ألقي همومي بين يديه، وأبكي دون أن أشعر أنني استجدي عطفًا، وبلا خجل، لكنني لم أكن أملك ذلك الشخص.
ووقفت لا ألوي على شيء.. أحمل في نفسي همومًا لا أجد من يشاركني شيئًا منها..
وتزأر الرياح حولي لتزيد شعوري بالضعف والوحشة..
أقف وسط الطريق شاردًا لا أدري ماذا أنتظر.. والناس حولي تعدو تختبئ من الأمطار والبرد.
وحيدًا في الطريق الخالي تُغرق الأمطار رأسي وملابسي، أنظر في وجوم إلى لا شيء.. أتمنى لو أن كل ما يحدث كابوس قد ينتهي.

أن ترى تلك الأنياب الحادة البارزة أمامك، وتلك العينين المخيفتين المتحفزتين للنيل منك، هو كابوس لا يمكن وصفه بكلمات.
كان ذلك الحيوان الذي بدا لي أنه ذئب أو كلب بري متوحش يقف على بعد خطوات مني، وقد بدأ يتحفز لكي يقترب، ينظر لي من مسافة أمتار قليلة يحاول أن يعرف حجم المخاطرة التي قد تواجهه عند الاقتراب مني، ولا يدري ذلك الأحمق أنني كالفريسة التي تم الإيقاع بها في الفخ، محكم الوثاق تحت ثقل السيارة في انتظار أن يلتهمني ذلك المخلوق النحيل، وربما الأكثر يأسًا في هذه الغابة، ذلك الذي لم يفلح في اصطياد أي كائن يمكنه الحركة، فخرج ليلًا يبحث عن أي طعام، ليجدني في طريقه.
اقترب الذئب خطوة واحدة، وهو يصدر عواءً مرعبًا من بين فكيه المخيفين، والزبد يتطاير من بين أنيابه، فمددت يدي بصورة تلقائية، وخلعت حزامي ملوحًا بالجزء الحديدي في الهواء، فتوقف مكانه، ثم عاد ليحوم حول السيارة من بعيد.
يصدر الذئب تلك الزمجرة، ويقترب، وعيناه تلمعان تحت ضوء القمر، فأصرخ تلقائيًا مصدرًا زمجرة مماثلة في وجهه من فرط الذعر.
كان (فريد) في ذلك الوقت يهتف بي ملتاعًا، يسألني عما يحدث، لكنني لم أكن في حال يسمح بالرد عليه؛ كنت أرتعد خوفًا وأصدر ذلك الزئير كأنني أحاول إخافة الذئب، الذي بدا أنه تردد في بادئ الأمر، ثم اتضح أنه اعتبر ذلك الأمر تحديًا، فعاد ليقترب في شراسة من جديد.
طوحت يدي في قوة لأضرب بالجزء المعدني من حزامي أبواب السيارة، فأصدرت قرعًا شديدًا جعل الذئب يتراجع مرة أخرى.
كان الأمر مجرد وقت بالنسبة إليه ليعتاد الأمر، ويعلم أن كل ما أفعله ما هو إلا أصوات لا خوف منها، ولكنني أخذت أقرع المعدن، وأنفاسي تكاد تذهب من الذعر، ثم تنبهت إلى أن الذئب يقف أمامي في وسط بركة من المياه التي يسبح الوقود على سطحها.
وعندما عاد الذئب هذه المرة للاقتراب، مددت يدي إلى داخل السيارة والتقطت قداحة (راموس) في سرعة.

كان الاختيار في تلك اللحظة هو الموت بين أنياب الذئب، أو إعطاء فرصة لطاقة الحياة التي بدأت تعود إلى نفسي، وتحاول أن تجعل كل ثانية أطول في الحياة هي هبة لا يجب أن تضيع.
عجيب أمر هذه الدنيا!
نتعلق بها ونتمنى لو ندوم فيها أبد الدهر إذا ابتسمت لنا، وعندما تدير لنا ظهرها نتمنى أن نتركها بلا رجعة. وفي ثانية أخرى نتحول فيها من الرغبة في الموت إلى الرغبة في البقاء.
ولأن الموت ما هو إلا بداية طريق الأبدية التي لا تنتهي بعدها الحياة أبدًا، وضع الله في قلوبنا حب الحياة، وزينها في أعيننا كي نبقي ونستمر.. ولولا ذلك لفضل الجميع أن ينهي آلامه ويذهب ونسي أنها رحلة تتلوها رحلة أخرى لا تنتهي.
هل سمعت يومًا عن رجل قفز من شرفة منزله عندما هاجمه حريق؟
رأيت هذا الأمر في بعض المشاهد المصورة من أحداث حقيقية.. يقفز أحدهم من شرفة منزله محاولًا النجاة من الحريق.. أي منطق هذا الذي يجعله يقفز من الطابق العاشر فيموت تلك الميتة لكي ينجو من النيران المشتعلة في شقته!؟
إنها الرغبة في الحياة! حتى الثواني التي سيحياها خلال رحلته من الطابق العاشر إلى الأرض يفضل المرء أن يتمسك فيها بالأمل والرغبة في أن يبقى.
رحلة مرعبة هي ما بعد الموت بالنسبة لنا نحن البشر.. إن الدنيا حلوة خضرة..
والآن يصبح أمامي الاختيار بين أنياب هذا الذئب أو الاستمرار في التمسك بالأمل..
كان الذئب قد أصبح قريبَا إلى حد مرعب، وبدأت رائحة أنفاسه الكريهة تصل إلى أنفي. مددت يدي المرتعشة أمام وجه الذئب، وأشعلت القداحة، فالتمع اللهب في عين الذئب وأجفل لحظة، ثم ألقيت بالقداحة في بركة الوقود التي يقف بها، لتشتعل النار في الوقود، ويضيء المكان حولي في ثوان معدودة، بينما ينطلق الحيوان وقد كادت النيران تشتعل بأطرافه، ليعدو مبتعدًا وهو يطلق عواءَ أليمًا، والنيران تتحرك لتصل إلى برك الوقود الأخرى بجواري، وتستمر في الانتشار في كل مكان حولي، وتبدأ في الوصول إلى هيكل السيارة التي تحتجزني تحت براثنها!

عزيزتي ريم..

لقد مللت الجلوس في غرفتي لأوقات طويلة بعد العمل، والحقيقة أن ذلك الملل لم يستطع أن يقهر تلك الرغبة في الانزواء، والجلوس لأتصفح (الفيسبوك) أو أكتب بعض الصفحات في قصتي، لكنني قررت أنَّ عليّ اتخاذ إجراء حاسم في ذلك الأمر، وخاصة أنني أعرف جيدًا نفسي وميلها التلقائي للعزلة والكآبة في الكثير من الأوقات.

قررت اليوم أن أعود من العمل سيراً، لم تكن المسافة بين الشركة والفندق بعيدة على كل حال، وكان الجو لطيفًا، لذا طلبت من سائق الشركة الموكل بي أن ينصرف ثم بدأت بالسير.

كنت أخشى أن أفقد الاتجاهات، لكنني كنت أستخدم الخريطة التي حصلت عليها من الفندق محاولًا السير في الطرق الرئيسية كي لا أضل الطريق.

المنطقة التي تجاور الشركة منطقة تجارية بها الكثير من المحلات والمطاعم الأوغندية، لذلك لم يكن التسكع في الطرقات مملًا، ولم يكن من خطورة ما في السير مترجلًا.

لم أتوقف عند أحد المحلات، لكنني فضلت أن أشاهد البضائع أثناء سيري، وأصنع فكرة عامة عن الحي، كما لم يراودني التفكير في تناول الطعام في أحد تلك المطاعم برغم أن بعضها كانت واجهته تبدو جذابة بشكل كبير.

حالة من الهدوء تسيطر على الجميع. يبدو كل الأوغنديين الذين رأيتهم حتى الآن وكأنهم في حالة سلام مع النفس، على عكس بعض الأفارقة الذين قابلتهم من جنسيات أخرى، هؤلاء الذين يتحركون بصورة مبالغ فيها بينما تعلو أصواتهم، وهم يعبرون عن أنفسهم بإشارات حادة من أيديهم.

كم أتمنى لو أستطيع الوصل إلى حالة سلام مع النفس! تلك النفس التي وكأنها سُلّطت عليّ فلم تعد تفعل شيئًا سوى تذكيري بكل الآلام وتكدير صفو حياتي بالتفكير في مستقبل لا يحمل شيئًا من السعادة.

أخبرني أحد أصدقائي المهتمين بعلم النفس يومًا أن هذه هي مشكلة العقل البشري، أو لعنته تحديدًا.

وأن الإنسان إن لم يستطع أن يحكم زمام عقله، طاح به في وديان الماضي أو انطلق به في سفوح المستقبل.

يهمل العقل عمدًا التفكير في الحاضر، ويستمر في شطحاته مبتعدًا قدر المستطاع، فإذا فشل الإنسان في السيطرة عليه فقد كل شيء وتاه بين غياهب الماضي والمستقبل.
أخبريني إن كنت تعرفين كيف يجد المرء سلامه النفسي، وكيف يستطيع الخروج من حالة اللامبالاة بكل شيء؟
لا أنكر أن الكتابة عن الماضي تساعدني كثيراَ في تجاوز بعض الأمور، وأدرك أن مرارة تناول الصبار لا تزول بسهولة من الحلق.. لكنني ما زلت أشعر بعدم الرغبة في شيء وعدم القدرة على بذل أي جهد في شيء.
الحياة تتساوى عندي مع الموت باستثناء خوفي من الحساب.. وأنا على علم يقيني أن على الجميع تسديد فواتيره الخاصة.
هل تعرفين شيئًا يمكنه أن يساعدني على تجاوز حالة فقدان الاهتمام هذه؟
أتمنى أن أجد لديك إجابة لسؤالي.

سؤال شغلني كثيراَ، ولم أجد له إجابة أبدًا..

ما الذي كان يدور برأس أمي قبل أن يحدث كل هذا؟

دومًا كنت أسمع منها أن أحلامها تتحقق كما هي.. كانت لديها شفافية غريبة، وهو ما أقلقني بل وأفزعني تلك الليلة.

رأيتها جالسة وحيدة في الظلام..

لم تكن كل هذه الأمور قد تطورت بتلك الطريقة. كانت وقتها في أتم صحة، تمارس حياتها بصورة طبيعية وتذهب إلى عملها سيراَ ولا يؤرقها سوى تعب بسيط بالقلب لا يشكل خطراَ حقيقياَ ولا يستلزم سوى بعض الأدوية التي عليها أن تنتظم في تناولها..

لمَ إذن ما أخبرتني به ليلة عودتي من السفر؟

كنت جالسًا أقرأ كتابًا حتى ساعة متأخرة من الليل، ربما كانت الساعة قد قاربت على الثالثة صباحًا عندما رأيتها تتحرك خارجة من حجرتها، لتجلس في ردهة المنزل صامتة مطرقة في الظلام.

أقلقني ذلك الأمر، ولكنني حاولت أن أتماسك قليلًا حتى لا أزيد مما بها بخوفي عليها..

لم أكن أعلم أنا الآ خر ما سر قلقي الشديد عليها في الفترة الأخيرة، فقمت أسألها عمّا بها فأجابتني في صوت خفيض أنه لا شيء سوى بعض ألم الرأس، وأنها فقط لا تستطيع النوم، فسألتها أن تأخذ مسكنًا فقالت أنها فعلت لكنها لا تزال تشعر بالألم.

لم أجد ما أفعله سوى أن أسألها إن كان هناك ما يمكنني فعله لها، فلما أجابت بالنفي وأخبرتني أنها سوف تعاود النوم، عدت لأجلس أستكمل القراءة وقد اعتراني الحزن من أجلها، حتى أنني أصبحت عاجزاً عن التركيز.. وبعد لحظات رأيتها تأتي ثم تجلس أمامي.

كانت تحاول أن تبدو متماسكة، أعرفها جيدًا عندما تكون حزينة وتحاول ادعاء الصمود.

نظرت لي، ثم قالت بصوتها المختنق بالدموع:

ـ "إذا حدث لي شيء فأخبر أباك أن يسدد باقي أقساط بعض الأشياء اشتريتها. هذا هو اسم الشركة التي لها المال"

أعطت لي الاسم، ثم اختنق صوتها وهي تقول:

ـ "لا تنس يا (يوسف) أن تفعل"

قالت هذا وأنا أنظر إليها لا أفهم شيئًا، ثم انهارت في البكاء.
لم أعرف بم أرد عليها، لكنني وضعت يدي على كتفها وقلت وقد كادت عيني تدمع لبكائها:
ـ "أطال الله عمرك يا أمي! سوف أفعل، لكن ما الداعي لهذا الكلام؟ ولِمَ البكاء الآن!؟"
قالت من بين دموعها:
ـ "لأنني سأموت وعليّ دين"
كنت أعرف أنها تساعد البعض، وكثيراَ ما تشتري لهم ما يحتاجونه في الأعياد أو مع بداية فترات الدراسة وتدفع هي الأقساط لهم من مرتبها. ليت ما تتحدث عنه كان دينًا يخشى المرء أن يقابل الله به!
ـ "لا تقولي هذا يا أمي. لا يموت المرء لأن لديه بعض آلام الرأس"
لم تتوقف دموعها.. كنت أعلم أنها لا تبكي بسبب الدين؛ لأنه كان مبلغًا ضئيلًا ومن السهل سداده في أي وقت إن شاءت، ولكنني أحسست أن رسالة ما قد تناهت إلى قلبها، وتريد من تشاركه ذاك الإحساس المخيف، ومن بين دموعها نظرت لي وقالت تفصح عما في قلبها.
ـ "لقد رأيت جدك والد أبيك رحمه الله في المنام.. ولم يحدث أن رأيته في منام من قبل، وقد أتى ليخبرني أنهم بانتظاري"
حاولت أن أبدو متماسكًا كي لا أزيد من أوهامها، فقلت متهكمًا، وكأنني غير مقتنع بالأمر:
ـ "ولم والد أبي خصيصًا!؟ يا أمي هي أضغاث أحلام ولا ريب"
هزت رأسها في يأس.
ـ "لا، لقد كان رجلًا صالحًا، وأنا أشعر حقًا بأن أجل الموت قد حان"
لم أجد ما أقول، ولم تنتظر هي مني الرد، لكنها قامت في صمت لتدخل حجرتها وتتركني لهواجسي الأليمة.
وفي الظلام عدت لأجلس وقلبي يحترق، قبل أن أسمح للدموع بالتسلل من عيني، وأنا أدعو الله لها بالصحة وطول العمر.

أشعلت النيران في الوقود، وبدأ كل ما حولي يحترق..

تتراقص ألسنة اللهب من الوقود الطافي على سطح برك المياه، التي تجمعت حول السيارة، تنتقل النيران في سرعة لتتصل بأماكن أخرى تشبعت بالوقود، ثم بدأت النار تصل تدريجياَ إلى هيكل السيارة نفسه!

تفاجأ الذئب بهذا الهول، فابتعد يعدو فزعًا من منظر الحريق الذي أنقذني من أنيابه، وانطلق لاعنًا حظه العاثر يبحث لنفسه عن فريسة أخرى في ذلك الوقت من الليل، والذي لابد أن جميع الحيوانات قد آوت إلى مخابئها، بينما بدأت أنا أستعد لوصول النار إليّ في أي وقت. كنت لحسن الحظ بعيدًا عن مكان تجمع الوقود المتسرب ومبتلًا، ومغطى بالطين الذي لم يصل إليه أثر الوقود الذي تسرب من الخزان، لكن اشتعال السيارة لابد أنه سيجعل أمر احتراقي معها أمرًا لا مفر منه.

كان (فريد) مازال يصرخ في هستيريا محاولًا تحفيزي على الإفلات، وكأن ذعره قد يساعدني، لكنه لم يكن يضيف شيئًا أكثر من إثارة توتري وقلقي أكثر مما أعانيه.. وعلى الرغم من محاولاتي المستميتة للخروج من تحت السيارة، لم أستطع أن أرفع ذلك الوزن الهائل ولم أجد سوى أن أعيد غمر يدي في المزيد من المياه الطينية علها تخفف من حرارة النيران الملتهبة حولي.

كان (فريد) مازال يتحدث بنفس الطريقة الهستيرية، فهتفت به في غضب وقد بدأت أشعر بسخونة النيران تقترب مني:

ـ "اصمت يا (فريد)! أنت تثير توتري!"

حاول أن يبدو صوته أكثر هدوءاَ، لكنه لم يفلح في ذلك بينما يصيح في رجاء:

ـ "سوف أهدأ لكن أرجوك حاول الإفلات، لا يجب أن نموت في هذا المكان"

كانت الأمطار تكاد تعاود الهطول، فعاد (فريد) يقول محاولًا إعطائي بعض الأمل:

ـ "سوف تمطر من جديد، والأمطار قد تخمد تلك النيران"

قلت في غضب، وأنا أتمنى ألا تهطل الأمطار في تلك اللحظات:

ـ "لا يا (فريد)، سوف تزيد الأمطار من ثورة النيران؛ المكان حولي مغطى بالوقود"

ـ "لا تخف.."

لم يجد كلمات ليكمل جملته التي يشجعني بها علي عدم الخوف، ولم أجب كلماته المرتعدة، لكنني كنت أحاول بذل كل طاقتي في زحزحة جسدي، والخروج من تحت

ذلك الوزن الجاثم فوق صدري، بينما بدأ (فريد) يبكي وهو يرفع صوته بترنيمة حزينة تجمع كلماتها بين الإنجليزية والأوغندية لم أفهم أغلب كلماتها، ولكن بدت أنها دعاء ما للخلاص، وبدأت حرارة النيران تصل إلى يدي.

كانت بعض كلماتها تتحدث عن الخلاص من الخطايا.

أنت على حق يا صديقي؛ ربما ما زال أملنا الوحيد الآن أن يغفر الله لنا خطايانا، ولعل تلك اللحظات التي أحياها الآن هي أهم لحظات في حياتي.. لحظات التطهر من الخطايا والتوبة.

وبدأت أرفع صوتي بالدعاء، وكأن لحظات الموت قد دنت، ولم يعد لي مفر سوى الاستعداد للنهاية.

عزيزتي ريم..

لقد بدأتُ اليوم أولى جولاتي إن كان هذا هو ما سيبدل حالة فقدان الاهتمام التي تسيطر على مشاعري كما تقولين.

لم أتناول غذائي بعد عودتي من العمل؛ فقد كنت أريد التجول اليوم قبل أن ينتهي النهار، وخاصة مع التحذيرات بشأن الخروج في (كمبالا) ليلًا.. فقط اتصلت بوالدي لأطمئن عليه وأخبره أنني بخير. لم نعتد على الحديث طويلًا في السابق، لذا لم نجد شيئًا لنقوله، لكنني أشعر كثيراً بالشوق إلى المزيد من الحديث معه دائمًا.

بدلت ملابسي وتوجهت إلى بوابات الفندق، حيث يقف سائقي الدراجات النارية، علمت أنهم يطلقون عليها هنا اسم (بودا بودا)، لا تسخري مني ولكنني عندما سمعت هذا الاسم لأول مرة وسط حوار ما بالأوغندية بين شخصين يجلسان بجواري في المطعم اعتقدت أنهم يتحدثون عن معبد ما، وعندما عدت إلى الفندق بدأت بالبحث على شبكة الإنترنت عن معبد (بودا بودا) إلا أنني لم أجد أي معابد بوذية في (أوغندا).. لابد أنك تضحكين الآن فقد ضحك زملائي في العمل كذلك عندما سألتهم عن معبد (بودا بودا) ولم يفهموا في البداية، ثم فطن أحدهم إلى الأمر وانهار ضاحكًا قبل أن يخبرني أنه لا يوجد معبد بهذا الاسم، وأن الدراجة النارية هنا يطلقون عليها (بودا بودا). لابد أنه مسمى بلا معنى مثل (التوك توك) لدينا في مصر.

عندما خرجت من بوابات الفندق وجدت ثلاثة أوغنديين يقفون بدراجاتهم النارية، ويشيرون لي فسألت أحدهم كي يقلني إلى سوق المنتجات اليدوية، فطلب خمسة عشر ألف (شلن)، يبدو الرقم مخيفًا عند سماعه لكن الحقيقة أن المبلغ يوازي تقريبا خمسة دولارات، فوافقت وركبت الدراجة المتهالكة خلفه ثم انطلق في سرعة.

لم يستغرق الأمر أكثر من ثلاث دقائق حتى نصل، وهناك أعطاني السائق (فريد) رقمه، وطلب مني أن أتصل به بمجرد انتهائي من التسوق كي يعود، ويقلني إلى الفندق إن أردت.

منذ بدأت التجول في السوق أخذ البائعين يرحبون بي بطريقة لطيفة كي أدخل وأشاهد معروضاتهم، وبدأت بدخول المتاجر والحديث مع أصحابها والاستفسار عن المنتجات المختلفة وقمت بشراء بعض التحف الخشبية الصغيرة، يقدم لي البائعين مصنوعات معينة ويخبرونني أنها من الأبنوس الأصلي مؤكدين على ذلك وكأنه أمر متميز، لكنني

لست على دراية بتلك الأمور، لذلك أنتقي ما يعجبني من تلك الأشياء الصغيرة المنحوتة على هيئة أفيال أو زرافات. توجد أيضًا تلك الوجوه الخشبية التي تذكرني بفيلم (القناع The Mask)، منذ وقت طويل أحببت أن أقتني بعضها، لكنني لا أدري إن كنت سأجد الجرأة على تعليق تلك الوجوه المرعبة على جدران المنزل أم لا!

كان معظم البائعين في السوق من النساء، ويبدو أن البدانة هي السمة السائدة في (أوغندا) للنساء، أما الرجال فكانوا على العكس تمامًا، وكان الجميع شديدي الود واللطف في التعامل، وبدا لي أمرًا غريبًا أن أكثر من شخص عرف على الفور أنني مصري الجنسية دون أن أتكلم، حتى أنني تعجبت وسألت أحدهم كيف عرف هذا ولماذا لم يخمن أنني قد أكون مغربيًا أو حتى إسبانيًا، فلم يجب ولكنه اكتفى بالابتسام.. هل يمارس الناس هنا السحر أم ماذا؟ أعلم أن السحر منتشر في هذه الأنحاء، وقرأت على الإنترنت بعض الأمور المرعبة عن آكلي لحوم البشر.

اتفقت بعد عودتي مع السائق على مكالمته كلما أردت التجول في المدينة. كان (فريد) رجلًا لطيفًا في بدايات العقد الثالث من العمر، ويبدو من طريقته الكلام أن لديه قدرًا لا بأس به من التعليم، حتى لغته الإنجليزية بدت لي رائعة النطق.

أعتقد أن كسر دائرة الوحدة له أثر إيجابي حتى وإن لم أكن في حالة من القبول التام للأمر، لكنني ما زلت لا أفهم سبب عدم حديثنا التليفوني. لقد فكرت في كل الاحتمالات التي يمكن أن تجعلك تطلبين مثل هذا الطلب، وأن نكتفي بالمراسلات الإلكترونية حتى عودتي من (أوغندا) فلم أجد سببًا واحدًا مقنعًا. أرجو ألا تفاجئيني بأمر خطبتك مثلًا.

أريد أن أتحدث إليك هاتفيًا الليلة إن كان لديك وقت، ولنجعل تلك المكالمة استثناء -إن قبلتِ- من ذلك الاتفاق.

أتمنى أن تقرئي رسالتي اليوم، وتجيبي ذلك الطلب البسيط. سأضع الهاتف بجواري وأنتظر اتصالك في أي وقت.

كنت في عملي ذلك اليوم، أجلس شاردًا أمام الكمبيوتر عندما اقترب صديقي (عمرو)، ويبدو أنه قد وقف بجواري طويلًا قبل أن يقول:

ـ "فيمَ شرودك؟"

تنبهت إلى وجوده، فنظرت إليه مجيبًا، وأنا أحاول تصنع الابتسام:

ـ "لا شيء"

ـ "كيف حال والدتك؟"

ـ "الحمد لله"

ـ "هل تتحسن حالتها؟"

ـ "ليس بعد. لم يتم اكتشاف سبب مرضها حتى الآن"

كان (عمرو)، بالإضافة إلى أنه زميلي في العمل، صديقًا منذ المرحلة الإعدادية، يكاد يكون أخًا لي، لكنني لا أدري لِمَ كنت أخفي عنه ما أعرف عن مرضها، ربما لأنني لم أكن أصدق ما يحدث، أو كنت أتمنى أن تخيب ظنون الأطباء ويمر ذلك الكابوس بسلام.

ـ "لا تقلق سوف تشفى قريبًا بإذن الله"

أومأت برأسي في صمت، فابتسم وهو يتابع:

ـ "لقد أوصتني والدتك عندما اتصلت لتبارك خطوبتي قبل سفرك أن أشجعك على الزواج، وقد وجدت لك الفتاة المناسبة"

ظننته يحاول ممازحتي، فابتسمت دون تعقيب، فقال على الفور:

ـ "أنا لا أمزح. لن يسعد والدتك شيء قدر زواجك، وهناك فتاة تناسبك تمامًا وأريدك أن تراها"

نظرت له في عدم تصديق قائلًا:

ـ "وهل تجد الوقت مناسبًا لمثل هذه الأمور!؟"

قال على الفور كمن ينتظر هذا الرد:

ـ "أعلم هذا بالطبع، وقد حاولت تأجيل مفاتحتك في الأمر حتى تشفى والدتك، لكن والد الفتاة سوف يسافر إلى دولة الإمارات بعد أيام ولن يعود إلا في إجازة الصيف القادمة، وقد رأيت أن تقابلها وتتعرف بأسرتها ثم تؤجل الحديث في أي شيء في حال حدث قبول متبادل حتى تشفى والدتك وتعود سالمة"

قلت في حسم محاولًا إنهاء ذلك الحوار:

ـ "لا يا (عمرو)، لست في حال يسمح لي برؤية أحد أو التفكير في أمر كهذا في ذلك الوقت، كما أنني لست مؤيدًا لتلك الطريقة في الزواج من الأساس، وأنت تعرف ذلك جيدًا"

ـ "أمازلت تفكر في (شاهندة)؟"

ـ "الأمر ليس له علاقة بها على الإطلاق"

قال محاولًا إقناعي في استماتة:

ـ "إذن فلتقبل برؤية هذه الفتاة. هي تمتلك كل المواصفات التي يمكن أن تتمناها، ولربما ندمت لو لم تراها.. كما أنني لن أتركك حتى أنفذ ما أوصتني به والدتك"

قلت في نفاذ صبر:

ـ "من هذه الفتاة؟"

ـ "هي صديقة لشقيقتي الصغرى، مُدرسة وعمرها أربعة وعشرون عامًا، ومن أسرة ممتازة"

فكرت لحظات، ثم تنهدت في ضيق، وأنا أقول:

ـ "في كل الأحوال، سوف أظلمها لو رأيتها في هذا التوقيت السيئ يا (عمرو)"

هز رأسه نفيًا في ثقة، وهو يقول:

ـ "أعتقد أن الفتاة رائعة، ولن تندم صدقني"

لم أرد فعاد يقول في هدوء:

ـ "جرب، ولن تخسر شيئًا"

من قال أنني كنت أريد أن أجرب شيئًا تلك الأيام!؟

لم أكن أريد من الدنيا سوى أن تعود أمي إلينا من جديد كما كانت.

كنت أنام لأنني سأسهر معها ليلة أخرى، وأقبل الطعام والشراب كي أبقى قادرًا على مراعاتها..

لكن فيما عدا ذلك كانت حياتي كلها هباء لا قيمة له في نظري..

عندما عدت ذلك اليوم إلى المنزل، كان أبي يرتدي ملابسه ويتحرك بين الغرف كمن يبحث عن شيء، ولكنه في الواقع كان يفعل أي شيء كي لا يظهر ذلك التوتر الذي ملأ جوانحه.

كنا جميعًا نحيا ذلك القلق، وخاصة أن اليوم كان موعد ظهور نتيجة تحليل عينة الكبد، وكانت كل آمالنا تتوقف على ذلك التحليل الذي سيحدد طبيعة تلك الأورام.
قلت وأنا أحاول أن أخفي تهدج صوتي من القلق:
ـ "هل ستذهب إلى المعمل الآن؟"
نظر لي محاولًا تصنع الهدوء هو الآخر.
ـ "نعم"
ـ "سوف أذهب معك؟"
ـ "لا داع لذلك، لقد عدت من عملك للتو، اجلس وتناول غذائك"
ـ "لا عليك، أنا أريد الذهاب"
جلس وأخذ يقلب في بعض الأوراق متشاغلًا، حتى نادى المؤذن لصلاة المغرب فقام أبي واتخذ مكانًا ليصلي، فطلبت منه أن ينتظرني كي نصلي معًا.
توضأت وسألته أن يتقدم للإمامة، فرفض وأخبرني أنه غير قادر في تلك اللحظات على التركيز. كان أبي رمزًا للقوة والصلابة في عيني طوال حياتي، وكانت رؤيتي له في هذا اليأس والضعف تعني انهيار آخِر حصون دفاعي.. وتقدمت للصلاة به رغم أنني لم أكن أحسن منه حالًا على الإطلاق.
كان خالي (فاروق) قد أتى ليرافقنا إلى المعمل، وكان خالي هذا من أقرب إخوة أمي إلى نفسي رغم أننا لم نكن نلتقي كثيراَ، وإذا التقينا لم يكن حديثنا يتجاوز حديث المجاملات المعتاد.. لكنني كنت أرى فيه إنسانًا رقيقًا شديد الدماثة، وربما كان ما يعطيه هذا التفضيل في قلبي هو حبه الشديد لجدتي -رحمها الله- والتي كنت أعتبرها أمي الثانية، وعطفه وحنانه على أشقائه بشكل قل ما وُجِد في إنسان.
عندما وصلنا إلى مبنى المعمل لم أجسر على الصعود، فتركت أبي وخالي ليصعدا وحدهما، وانتظرت أنا دقائق مرت كأنها ساعات من فرط القلق والترقب حتى هبط المصعد، وفتح الباب مسفرًا عن وجهي أبي وخالي الذي ابتسم في سعادة مشيراَ بكفيه، وهو يقول وعيناه ممتلئتان بدموع الفرح:
ـ "العينة سلبية.. الحمد لله"
كاد قلبي يقفز فرحًا، ولكنني تماسكت حتى استوثق، فقلت في لهفة:
ـ "ماذا يعني ذلك؟؟"

قال أبي، وقد عادت الروح إليه من جديد:

ـ "مجرد التهابات في الكبد"

هززت رأسي في عدم فهم متسائلًا من جديد، فعاد يقول:

ـ "الحمد لله، ما بها مجرد التهابات، ويمكن علاجها بالمضادات الحيوية"

قال خالي على الفور:

ـ "في الغد سأعرض الأشعة ونتائج العينة على طبيب كبير أعرفه، وسوف يحدد لنا بدقة كيف تتم خطة العلاج المناسب لها"

تنهد أبي في ارتياح، وهو يقول:

ـ "أهم ما في الأمر أننا تأكدنا من عدم وجود ما كنا نخشاه، أما الباقي فبإذن الله ليس صعبًا على الإطلاق"

تمالكت نفسي من البكاء بصعوبة، وأخذت أردد في قلبي: "يا رب لك الحمد".

وعدنا إلى المنزل وقد عاد إلينا الأمل في الحياة.. كانت خالتي الوحيدة وجميع أخوالي في انتظارنا في المنزل مع إخوتي وقد أنهكهم القلق والترقب.. وكانت مفاجأة لهم جميعًا.. فيا ليت لو كانت الكلمات تستطيع رسم تلك العيون الخائفة المترقبة والأجساد المشدودة في توتر تنتظر الخبر، ثم تلك الفرحة الجارفة التي تلتها الدموع، ثم السكينة التي غطت قلوب الجميع بعد ذلك. جلسنا يومها وضحكنا كثيراً، وبكينا فرحًا.

كانت أمي هي أم لهم جميعًا رغم أنها لم تكن أكبر أشقائها، إلا أن حبها لهم كان حبًا جمًا، حتى أنني أحببتهم لحبها لهم.

ولأول ليلة منذ ليال طويلة مضت أنام ملء جفني، وقد جاء الأمل ليبدد ذلك اليأس القاتل.

سوف تشفين يا أمي بإذن الله، وسوف أحقق لك كل أمانيك. لن أسافر مجددًا فرب هنا هو رب هناك كما تقولين دائمًا.

سوف أتزوج بمجرد شفائك، ثم سأنجب لك الأحفاد بإذن الله كي يقبلوا يديك وتسعدي بهم.

فقط عودي وأعيدي لنا الأمل في الحياة.

ERTHA

لم يكن الموت احتراقا هو ما أخشى في تلك اللحظات، بل كان الخوف الحقيقي بداخلي من تلك البوابة التي أنتظر أن تفتح لي بعد قليل للعبور إلى الجانب الآخر.. كنت أعرف أن ربي رحيم، وأن رحمته سوف تشمل عباده الصالحين وغير الصالحين، ولكن حياتي كانت تمر أمام عيني حتى أنني تذكرت أشياء لم تمر بخاطري منذ سنوات طويلة، بل ربما لم أكن أذكرها على الإطلاق.

هل هذا هو الطريق إلى الموت إذن؟ أن تتجلى أمامك أشياء وتمر حياتك كما يقولون أمام عينيك، وكأن ما قضيت على الأرض لم يكن سوى زمن فيلم قصير!؟

مخدر ما يسري بجسدي، ويجعلني أميل إلى الاستسلام.. هل يحاول العقل أن يمارس بعض مهاراته في السيطرة على ذلك الخوف الأصيل فينا من النيران، وقد اقتربت وبدأت حرارتها تحرق يدي على الرغم من الطين الذي يحيط بها.

كان (فريد) يصرخ في ذعر وهو يرى اللهب من مكانه في تلك المصيدة التي حبس فيها عاجزًا عن فعل أي شيء، يحاول تحفيزي بالهتاف المحموم كي أحاول النجاة، لكنني لم أكن أستطيع فعل شيء. لقد قاومت في البداية لكنني الآن أريد الاستسلام.

يدعوني (فريد) للمقاومة بكلمات يختلط فيها صوته الذي كاد يذهب من الصراخ والبكاء.

أتذكر ضمة أبي لي قبل السفر، وكلمات (ريم) الأخيرة: "عد سالمًا"

لم يكن بوسعي أن أفعل أي شيء الآن يا (ريم).. لقد حاولت أن أفعل ما أستطيع لكن الحقيقة أن هناك أمورًا أقوى من قدرتي. سأغمض عيني الآن ولتسامحيني على وعدي الذي لم أفِ به.

أغمضت عيني وأنا أضغط على أسناني من الألم وقد بدأت حرارة النيران تقترب بشدة..

ـ "أرجوك يا (يوسف) أن تقاوم"

يأتيني صوت (فريد) باكيَا..

ـ "لا أريد أن أموت هنا.. لقد وعدتني أنك ستعيدني إلى (ماريا).. أرجوك أن تقاوم"

تبدأ النيران في إحراق ذراعي المحتجزة تحت السيارة، فأفتح عيني وأنتفض صارخًا في ألم.. وينتحب (فريد) ويبكي وكأنه هو من يحترق.

يقولون أن الأوقات الصعبة تساعد الإنسان على أن يظهر أفضل ما فيه.. لم أكن أدري مدى صدق المقولة قبلًا، لكنني أعرف أنني اختبرت شيئًا منها ذلك اليوم.

أصرخ في جنون محاولًا الهرب من ذلك الجحيم المستعر، وتتحفز خلايا جسدي لمحاولة أخيرة للخلاص، فأدفع السيارة بكل ما أوتيت من قوة.

لا أعرف كيف حدث هذا تحديدًا، لكن السيارة كانت ترتفع بعض الشيء، وكنت أستطيع زحزحة جسدي من تحتها تدريجيًا حتى تخلصت منها تمامًا، فأسرعت أتقلب على الأرض مبتعدًا في سرعة وأنا أضرب ذراعي بكف يدي أطفئ النيران التي اشتعلت في قميصي في هيستيريا.

كنت عاجزًا عن الكلام ألهث في انفعال، ولم أكن أصدق أنني استطعت أن أفعل هذا، لكن يبدو أن أجلي لم يكن قد حان بعد.

وقفت على قدمي في صعوبة، وقد خارت قواي بعد ذلك المجهود وكل ذلك الوقت الذي قضيته حبيسًا تحت السيارة.. لكنني تحاملت واتجهت نحو (فريد) أبحث عن مصدر صوته الباكي.

لا يمكنني أن أصف تلك النظرة التي رأيتها على وجهه، ولا كيف يمكن أن يختلط البكاء الشديد بالضحك والذهول في آن واحد.

صرخ (فريد) في جنون وهو يضحك، ويخبرني أنني استطعت أن أفعلها، ويسبني ويسب الغابة، ويسب نفسه، ويضحك من جديد.

نظرت إليه، وابتسمت، وهو شبه ممدد في تلك الحفرة ونصف جسده مغطى بالمياه، فمد يديه نحوي، وهو مازال يتفوه بكلمات نصفها غير مفهوم.

ساعدته بصعوبة على الخروج من الحفرة، لكنه لم يستطع الوقوف على قدميه، فما إن أخرجته من الحفرة، حتى سقط على الأرض وهو يقول في ألم:

ـ "لا يمكنني احتمال الوقوف على ساقي"

أسرعت أتلفت حولي أبحث عن حقيبتي، كانت السيارة تشتعل وقد أضاءت النيران المكان كله حولنا.

ـ "لا تقلق يا (فريد)"

رأيت الحقيبة ملقاة على بعد عدة أمتار، فأسرعت أليها لألتقطها، وأبحث في جيبها الداخلي عن هاتفي المحمول، لم يكن مبتلًا، لكن بطاريته كانت قد أوشكت على الانتهاء، وخفق قلبي في سعادة، فمددت الهاتف إلى (فريد) وأنا أقول:

ـ "هيا يا (فريد) حاول الاتصال بينما أبحث عن (راموس)"

أمسك بالهاتف، ونظر إليه في عدم فهم، وهو يقول:
ـ "لا توجد شبكة اتصال هنا"
قلت، وقد اكتسى صوتي بالأمل:
ـ "لا يا صديقي، جرب الاتصال بالنجدة، الأمر لا يعتمد على شبكة الهاتف المحمول العادية"
ابتسم وقد فهم الأمر، فأسرع يطلب رقم النجدة، بينما راقبته للحظات قبل أن أسرع لتفتيش المكان حول السيارة في حذر بحثًا عن (راموس)، لكنني لم أجد له أثرًا على الإطلاق لمسافة أمتار عدة، ولا أعتقد أن الاصطدام قد ألقى به بعيدًا إلى هذه الدرجة، وفكرت أنه استطاع النجاة، وتركنا لينجو بنفسه في تلك الغابة المظلمة. لم يكن أمرًا منطقيًا، لذا لم يتبق لنا من الاحتمالات المشؤومة سوى أن حيوانًا مفترسًا قد حصل على جثته واصطحبها بعيدًا إلى عرينه.
عدة دورات حول السيارة أبحث على ضوء النيران عن أي أثر له أو لجهاز اللاسلكي، لكن بلا فائدة. بينما عدت أنظر إلى (فريد)، وتوقفت مكاني عندما رأيت ابتسامته تتسع، وقد أجاب أحدهم اتصاله، وبدأ يتحدث بالأوغندية في لهفة.
وابتسمت في سعادة..
وقد بدا أننا على وشك النجاة..

عزيزتي ريم..

اشتقت إلى حديثك كثيراَ، وعلى الرغم من كون الرسائل المتبادلة بيننا أصبحت أحد الأمور الممتعة في حياتي التي فقدت معنى السعادة، إلا أنني مازلت أفتقد الحوار معك والاستماع إلى تعبيرات صوتك لا مجرد تخيلها من كلماتك.

لقد انتظرتك بالأمس طويلًا، حتى أنني كنت أنظر إلى الهاتف كل بضع دقائق أتأكد أنه يعمل وأن شبكة الهاتف بحالة جيدة.

لكنك لم تجيبي سوى برسالتك الصباحية والتي أشرتِ فيها إلى أنك لم تقرئي رسالتي بسبب التعب المفاجئ الذي أصاب خالتك، وجعلك تسهرين إلى جوارها طوال الليل. أتمنى أن يشفيها الله لكم وأن يحفظكم من كل سوء.

لكن هل تعملين أمرَا؟

تدهشني قدرتك غير العادية على احتمال المرضى والبؤساء أمثالي. لقد رأيت بعيني كم كان المرضى يحبونك في المستشفى على الرغم من أن إقامتك مع خالتك هناك لم تكن لوقت طويل كما أعتقد. لك قدرة مبهرة على اجتذاب القلوب، كما أن لك قدرة غير عادية على التأثير في الآخرين.

دعيني أخبرك ما فعلت بعد وقت العمل.. لقد خرجت اليوم أيضًا، تجولت في المدينة قليلًا وصليت المغرب في مسجد العقيد (القذافي). لقد بنى هذا الرجل مسجدًا رائعًا في (كمبالا)، وعرفت أنه كان أحد الداعمين للإسلام في (أوغندا) كما أكد لي البعض هنا. محير أمر هذا الرجل الذي عاش بين العظمة والجنون ثم مات مقتولًا بيد شعبه، لكن الحقيقة التي لا جدال فيها أنه لا أحد كامل، ولا أحد يمكنه الحكم على مصير غيره، فقط القدير هو من يستطيع الحكم على أفعال عباده، ووضعها في موازينها الصحيحة وإصدار الأحكام العادلة.

(فريد) سائق الدراجة النارية هو من أخبرني بأمر ذلك المسجد عندما اتصلت به اليوم بعد العمل، وطلبت منه أن يخبرني عما يمكن أن أفعله في المساء، تجولنا بعض الوقت في المدينة ثم أقلني إلى هناك وجلس بالخارج بينما توضأت وصليت ودعوت الله بما في قلبي.

لم أسأل (فريد) عن ديانته بالتأكيد، فلا أدري مدى لياقة هذا السؤال في تلك البلاد، لذلك لم أطل البقاء في المسجد أكثر من وقت الصلاة، وعدت إليه حيث وجدته جالسًا بالخارج مع رجل الأمن يتحدثان.

أمر آخر أريد أن أخبرك به..

لقد كنتِ على حق.. لقد أفادني السفر وبدأت أشعر ببعض الراحة فعلًا في هذا البلد، وأنني أصبحت أكثر حيوية من الأيام السابقة، حتى أنني بدأت أفكر في الذهاب إلى إحدى رحلات السافاري التي تشتهر بها البلاد هنا. سأحاول أن أنهي العمل المطلوب، ثم أحصل على إجازة أقضيها في رحلة السافاري؛ فقد عرفت أن مثل تلك الرحلات لا تقل عن أربعة أو خمسة أيام متصلة على أدنى تقدير حتى يمكن الاستمتاع بالأمر.

لا أدري كيف أشكرك على كل شيء..

من النادر أن نجد في حياتنا أشخاصًا مثلك لا يريدون سوى إسعاد من حولهم، فقط حاولي إسعادي أكثر باتصالك بي اليوم.

تمنياتي بالشفاء لخالتك، وسلامي لكِ.

هكذا تبدأ أغلب قصص الحب وهكذا تنتهي..

أحلام وردية تنعش الروح، تخفف الجسد من كيانه المادي، ترفعه إلى عنان السماء، تلون السحب حوله بألوان الطيف، ويملأ تغريد الطيور الأجواء حتى يختفي ضجيج العالم، ويتحول كل شيء بخلاف المحبوب إلى عبث.

ثم في لحظة ما تتوقف الموسيقى فجأة، وتبدأ كل الحقائق في التجلي، وتنتهي الأحلام..

تكتشف أنك لم تكن تعرف أي شيء، وأن الأمور أبدًا لم تكن كما كانت تتزين أمام عينيك.

هكذا بدأت علاقتي مع (شاهندة)، وهكذا انتهت.

لم يكن أحد في الشركة يعلم شيئًا مما دار بيننا سوى (عمرو) بحكم صداقتنا، لذا تظاهر بالابتسام والسعادة، وهو يستقبل الخبر من (تغريد) التي أقبلت نحونا، وعلى شفتيها تلك الابتسامة السعيدة.

ـ "لقد تمت خطبة (شاهندة)"

وضعت كوب الشاي الذي بيدي على المكتب وقد ارتعشت يدي، ودفنت وجهي في لوحة المفاتيح أمامي متشاغلًا بالعمل كي لا تلحظ امتقاع وجهي. كان وقع الكلمات مؤلمًا بشدة.

ـ "حقًا!؟ متى حدث هذا؟"

قالها (عمرو) وقد تفاجأ بالأمر هو الآخر، فهزت (تغريد) كتفيها، وهي تقول:

ـ "لا أعرف تحديدًا، هي لم تدع أحدًا، ولم تكتب شيئًا على حسابها على الفيسبوك، لقد عرفت الأمر مصادفة عن طريق إحدى زميلات الجامعة التي نشرت صورتها في حفل خطبة (شاهندة) واكتشفت أنهما صديقتان مقربتان"

كنت مازلت أحاول التشاغل بالطرق على لوحة المفاتيح بشكل عشوائي، وكأنني لا أتابع الموضوع من الأساس، بينما قال (عمرو):

ـ "تمنياتي لها بالتوفيق"

قالت (تغريد) مازحة:

ـ "على الرغم من أنها لم تخبرنا بالأمر، وكذلك عدم دعوتها لأحد من الزملاء، إلا أننا يجب أن نرسل لها باقة من الورود على الأقل، باسم الشركة، أليس كذلك؟"

كنت أرى (تغريد) بطرف عيني، وهي تنظر لي أثناء توجيه كلماتها الأخيرة، ولا أدري هل راودها شك ما بسبب محاولتي إبداء عدم الاهتمام، فرفعت وجهي إليها وخرج صوتي حادًا بعض الشيء دون إرادتي، وأنا أقول:

ـ "هي حرة في دعوتنا من عدمها.. لكن الذوق يجبرنا على مجاملة زميلة سابقة لنا وإرسال مباركتنا لخطبتها"

بدا أن (تغريد) لاحظت لهجتي الحادة، وربما أعزت ذلك إلى انشغالي، فأيدت كلامي، وأخبرتني أنها سوف تحصل على عنوانها من قسم الموارد البشرية، وترسل لها باقة من الورود يتشارك في ثمنها من يشاء من الزملاء، ثم حيتنا وانصرفت.

جلس (عمرو) بجواري في صمت لا يدري ماذا يقول، وأطرقت أنا إلى الأرض وقد بدت الأمور مظلمة تمامًا أمام عيني.

ـ "لا تحزن يا صديقي"

هززت رأسي في أسى، وأنا أقول:

ـ " لست حزينًا على أنها أصبحت لغيري يا (عمرو)، بل كنت أتوقع الأمر وأنتظر حدوثه في أي لحظة"

ـ "أفهم جيدًا ما تشعر به، لكن لا تحاول إخفاء الألم داخلك، فقط حاول أن تتقبل الأمر؛ فلم يكن بيدك شيء لم تفعله، وليكن شكرك لله، فربما كان وجود (شاهندة) في حياتك مجرد سبب كي تعود إلى (مصر) لتكون بجوار والدتك في تلك الأيام"

انطلقت من صدري زفرة حارة، وأغمضت عيني لثانية، قبل أن أقوم من مكاني لأجمع بعض الأوراق، وألتقط سلسلة مفاتيحي قائلًا:

ـ "الحمد لله على كل شيء.. يجب أن أذهب الآن"

قال في اهتمام صادق:

ـ "هل تحب أن نذهب لنجلس سويًا في أي مكان؟"

ربتت على كتفه مقدرًا محاولته مساعدتي، وادعيت الابتسام، وأنا أقول:

ـ "لا عليك، سأكون بخير. فقط عليّ الذهاب لرؤية أمي والاطمئنان عليها"

ـ "كان الله معها ومعك"

رفعت يدي محييًا، ثم انصرفت في سرعة دون مزيد من الكلام..

كانت أمي نائمة عندما ذهبت لرؤيتها، وكان في نومها سعادة لي إذ ترتاح في هذه اللحظات من الألم الذي يعذبها ولا يفلح معه أي أنواع المسكنات.. وكان أبي يتحدث مع خالي (فاروق) في الهاتف.

كان الحديث غامضًا بعض الشيء، ولكنني استطعت أن أشعر بالمضمون من تغير وجه أبي، وبعض الكلمات القليلة التي تناهت إلى مسامعي.

فهمت منها أن الطبيب الذي عرض عليه خالي الأشعة، ونتيجة تحليل عينة الكبد لم يقتنع بما جاء في التحليل، وأوصى بضرورة نقل أمي إلى مستشفى به وحدة متخصصة في علاج أورام الكبد.

وعندما انتهت المكالمة، تحرك أبي مبتعدًا بحجه تدخين سيجارة، فلحقت به، وأنا أقول محاولًا أن أحافظ على رباطة جأشي:

ـ "ما الأمر؟ ماذا قال الطبيب؟"

أشعل أبي سيجارة، ثم نفث الدخان في عصبية واضحة، قبل أن يقول في صوت بدا حزينًا إلى أبعد حد:

ـ "يعتقد أن نتيجة تحليل العينة ربما تكون غير مؤكدة"

قلت في عدم تصديق:

ـ "كيف يمكن أن يحدث هذا!؟"

ـ "يقول أنه ربما قد تم أخذ العينة من أحد الأماكن السليمة حول الورم، لكن الورم نفسه موجود ويبدو سرطانيَا"

ـ "والحل؟ هل يجب إعادة العينة؟"

ـ "يجب أن ندخلها إحدى المستشفيات المتخصصة في علاج الأورام لعمل المزيد من الفحوصات"

ثم عاد ينفث دخان السيجارة، لتشكل سحابة حوله، وهو يقول:

ـ "سوف يسأل خالك عن الإمكانيات المتاحة في مجموعة من المستشفيات، وننقلها في الغد على الفور بإذن الله"

ثم أطفأ سيجارته التي احترقت عن آخرها، وأخرج واحدة أخرى ليشعلها.

قلت في رفق:

ـ "أبي كفاك تدخينًا من أجل صحتك! كفانا ما نعانيه!"

أشعل سيجارة غير آبه بكلامي، ثم نفث دخانها بعيدًا، وهو يقول متهكمًا في حزن:

ـ "وهل كانت أمك تطيق رائحة الدخان حتى يصيبها ما أصابها!؟"

ـ "لا تفكر بهذه الطريقة يا أبي"

هز رأسه دون أن ينظر لي، وهو يقول:

ـ "لا عليك.."

ثم عاد ينفث الدخان في يأس من جديد..

النيران التي تشتعل بجوارنا كانت تعطينا بعض الشعور بالأمان على الرغم من كل ما نحن فيه، والأمل في أن تصل إلينا النجدة، وخاصة أننا استطعنا إبلاغهم بالحادث قبل أن تنتهي بطارية الهاتف المحمول، وبقي لدينا ذلك الدخان الكثيف المتصاعد من السيارة دليلًا على مكان وجودنا في الغابة.

ـ "ماذا تفعل؟"

سألني (فريد)، وقد بدأت أجمع بعض فروع الأشجار ألقيها في النيران المشتعلة كي تستمر، وأضع بعضها جانبَا.

ـ "يجب أن تظل النيران مشتعلة لأطول وقت ممكن"

نظر لي دون أن يتكلم، فعدت أنظر حولي من جديد. كنت قد قمت بتجبير ساق (فريد) بطريقة بدائية غير محترفة، حيث قمت بوضع غصن شجرة وربطته إلى ساقه كي يبقيها مفرودة، وبدأت أفكر في صنع محفة من أغصان الأشجار وبعض الملابس كي أنقله عليها إذا بدأنا محاولة الخروج من هذا المكان لأي سبب.

كان كل ما أرجوه أن تصل إلينا النجدة قبل أن تخمد النيران المشتعلة، وقد بدأ جسد السيارة يتآكل تمامًا، ويصدر عنه المزيد من الدخان.

ـ "شكرَا لك يا (يوسف)"

قالها (فريد) وهو يرمقني في عرفان حقيقي، بينما يمضغ بعض الطعام الذي وجدناه في حقيبتي بجوار السيارة، فابتسمت وأنا أقول:

ـ "لم أفعل شيئًا بعد"

أشار إلى جبيرة قدمه، ثم إلى المحفة التي بدأت في صنعها، وهو يقول:

ـ "ما تفعله الآن يعني لي الكثير حقًا"

أخذت أحكم ربط نقاط اتصال الأغصان بالملابس؛ حتى لا تنقطع المحفة أثناء الحركة، وأنا أقول:

ـ "أنت صديقي يا (فريد)، وسوف أعيدك سالمًا إلى (ماريا) كما وعدتك"

ـ "أعجز عن الكلام حقًا"

عدت أبتسم، وأنا أنظر إلى السيارة التي تحترق أمامنا، ثم نظرت حولي وأنا أقول:

ـ "دعنا نرجو فقط أن يعرف أحدهم طريقنا قبل أن تنطفئ النيران"

أومأ (فريد) برأسه مؤيدًا، ثم قال:

ـ "ماذا إذن لو لم ير أحدهم الدخان المتصاعد أو يُعِر الأمر اهتمامًا!؟"
أشرت إلى المحفة، وأنا أقول:
ـ "في هذه الحالة سوف ننتظر حتى الصباح، ونبدأ في التحرك بحثًا عن طريق الخروج من الغابة"
ـ "هل يمكن أن نفلح في ذلك؟"
ـ "سوف نفعل يا (فريد)"
نظر للمحفة في تشكك، وهو يقول:
ـ "سيكون الأمر عسيراً أن تحملني كل تلك المسافة"
ـ "لا تقلق"
كنت أعرف أن الأمر ليس سهلًا، لكنني ابتسمت، وأنا أتابع قائلًا:
ـ "المهم في الأمر أننا حصلنا على حماية لبعض الوقت. هذه النيران سوف تصرف عنا هجوم الحيوانات حتى تخمد"
ـ "نعم، أعتقد أن الحيوانات سوف تبتعد عن المكان طالما ظلت النيران مستعرة"
عدت أتأمل الدخان المتصاعد من السيارة، وأنا أقول في ندم:
ـ "ليتني كنت أذكر كيف كان إرسال إشارات الاستغاثة بالدخان!"
اتسعت عينا (فريد)، وكأنه تنبه إلى الأمر، ثم قال:
ـ "أنا أعرف إرسال الإشارات بالدخان"
قلت، وأنا أنظر إليه في عدم تصديق:
ـ "حقًا!؟"
أجاب على الفور:
ـ "نعم؛ لقد علمني أبي هذا الأمر عندما كنت طفلًا"
ـ "رائع!"
ـ "هل يمكنك مساعدتي للاقتراب من السيارة؟"
ـ "بالتأكيد"
قلتها، وأنا أساعده على الوقوف، والاستناد إلى كتفي، ثم بدأنا نقترب من السيارة بخطوات بطيئة، ثم أجلسته بالقرب من إحدى عجلات السيارة التي كانت تحترق مصدرة كمية كبيرة من الدخان الذي دفع كلينا للسعال، فخلع (فريد) قميصه ووضعه

حول أنفه وفمه كي لا يستنشق ذلك الدخان، ثم أشار لي أن أخلع قميصي، ففعلت، فقام بأخذه من يدي، ثم طلب مني الابتعاد، وبدأ في استخدام القميص المبتل لحجب الدخان، ثم إبعاده لينطلق الدخان إلى السماء.
وابتسمت وأنا أرى تلك الإشارات التي بدأ (فريد) يطلقها إلى السماء..
كان الظلام يطمس تقريباً تلك الإشارات، ويجعل أمر رؤيتها عسيراً بعض الشيء، لكن في نفس الوقت كان هناك أمل أن تصل إشاراتنا للنجدة أو إلى شخص ما..
وجلست على مسافة من السيارة أراقب (فريد)، وقد شعرت بشيء من الراحة يتسلل إلى قلبي، ونحن نطلق إشارات الدخان لتتخذ طريقها في عنان السماء.

عزيزتي ريم..

استيقظتُ مبكرًا اليوم لأتفقد البريد الإلكتروني قبل ذهابي للعمل، وابتسمت كثيراً عندما قرأت رسالتك. أنت بالتأكيد تمتلكين موهبة غير عادية، لابد أن تصبحي سفيرة للسعادة إن كان هناك مثل هذا اللقب.

هل أخبرك أحد من قبل أنك موهوبة في الكتابة؟ ذكرتني طريقتك الساخرة في السرد بطريقة يوسف السباعي. أعتقد جديًا أنه سيكون لك حظ وافر من الشهرة إن فكرت خوض مجال الكتابة الساخرة.

دعيني أخبرك أنني أيضًا أصبحت أشعر برغبة أكبر في الكتابة، وربما أفكر في تأليف رواية. نعم، ربما لم أخبرك ذلك من قبل، لكنني منذ الصبا كنت أحب تأليف القصص، حتى أنني عندما كنت في السابعة من العمر كنت أحب المبيت في منزل خالي في بعض الأوقات، لأجمع أولاده ممن هم في عمري أو أصغر سنًا وأقص عليهم قصة مسلسلة أؤلفها ارتجالًا كنت قد أسميتها (عم أحمد وأولاده)، ولا أعرف سبب التسمية، لكنني أذكر أنني كنت أرتجل الحكي كل ليلة من تلك الليالي حتى يطلب منا الأهل أن نكف عن السهر أو يغلبنا النوم رغمًا عنا.

اعتدت أيضًا منذ أيام الجامعة كتابة مذكراتي، أرصد بها الأحداث التي تمر في حياتي، لكنني توقفت منذ أعوام طويلة عندما بدا لي أن حياتي سلسلة متصلة من الأحداث غير الهامة التي لا داعي للاحتفاظ بها، أو الأحداث المؤلمة التي لا أريد أن أذكرها فيما بعد.

سأخبرك سرًا.. لقد كتبت عنكِ في اليوم الأول الذي التقيت بك فيه. كنت في هذه الفترة أمر بأسوأ أيامي على الإطلاق.

تلك الأيام التي لم يستطع حتى أقرب أصدقائي أن يكون بجواري فيها. أعلم أنني من لم يترك للآخرين فرصة للمساندة، وربما كان ذلك لأنني لا أطيق أبدًا أن يراني الآخرون في ثوب الضعف.

كنت أحاول أن أحمي نفسي من نظرات الشفقة فأبتعد عن الجميع، ثم أخشى أنني لم أبتعد مسافة كافية فأبتعد خطوات أخرى، حتى نظرت حولي فوجدت نفسي وحيدًا تمامًا.

وحيدًا كتائه في الصحراء..

صموتًا كنت في تلك الأيام.. حائرًا كمن مسه السحر..

أخفي بين ضلوعي ألمًا لا يمكن تصوره إلا لمن أَحَبَ مثلما أحببت..
فلم تكن أمي في حياتي مجرد أم، لكنها كانت ملاكي الحارس ونور عيني وقلبي، ورمزًا نبيلًا يصعب وجوده في الحياة..
رقيقة كانت.. ضعيفة كانت.. طفلة كانت.. ربما نضحك أحيانًا إذا تكلمت من براءة ما تقول.. لكنها كانت عونًا دائمًا لكل الناس ومصدرًا لا ينضب للعطاء والحب والحنان..
كان قلبي يرفض تصديق ما أخبرنا به الأطباء عن مرضها، وكان عقلي عاجزًا عن الاستيعاب.. كنت كمن يثق أن هناك خطأ ما وأنها لا ريب ستتعافى من جديد..
وطفقت أبحث عن كل ما نشر عن السرطان آملًا أن أجد له علاجًا ولو في أقصى أطراف الأرض..
كنت أعرف معلومات غير مكتملة عن عمليات استئصال الأورام وعمليات زرع الكبد، ولكنني لم أكن أعرف معلومات حقيقية حول تلك الأمور.. لذلك شرعت أبحث في كل مكان على شبكة الإنترنت في كل ما يخص ذلك الأمر..
ووجدت العديد من العناوين تشير إلى أبحاث جديدة، واكتشاف علاجات للسرطان، وتصريحات لأحد الأطباء الصينيين عن نتائج أبحاث لأدوية مذهلة أثبتت فعاليتها، وأحد المعالجين بالقرآن يكتب عن نجاحه في علاج ما يقارب مائتي حالة.. وبدأت بقراءة المواضيع. كانت العناوين الرئيسية تشير إلى وجود علاج للسرطان، ولكن داخل التفاصيل تكتشف أن لعنة الكبد هي الوحيدة التي لم يفلح معها أي علاج حتى الآن.
فقط سرطان الكبد لم يفلح معه العلا.ج وحتى العقاقير تحت التجربة لم تثبت نجاحًا يذكر.. لا يوجد معالج صيني أو أمريكي أو أيا كان نجح في ذلك بشكل حقيقي.. لا يوجد معالج بالطاقة إلا وأسقط سرطان الكبد من كلامه.. لا يوجد ساحر هندي أو دجال حتى تركت الكلمات عنه في قلبي بصيصًا من الأمل.
ليس هناك سواك يا رب أبكي بين يديك أن تنهي هذا الكابوس.
كنت غارقًا في شرودي وأنا واقف في انتظار المصعد.. كان كل يوم يمر دون تحسن في صحة أمي يخلف في قلبي أثرًا عميقًا من الحزن.
وإلى جواري وقفت فتاة لم أهتم لها في بادئ الأمر، ولكن التفاتة غير مقصودة مني جعلتني أشعر أنها تنظر نحوي، فنظرت إليها فأرخت عينيها، وأخذت تشغل نفسها بتنسيق باقة الزهور في يدها.

عدت أضغط أزرار المصعد الذي تأخر وصوله في ضيق، والتفاتة أخرى إلى الفتاة جعلتني أتأكد أنها ترمقني بنظراتها، وتفلت عينيها عندما تصطدم نظراتنا.

كانت فتاة تبدو في منتصف العشرينات، بيضاء البشرة، رقيقة الملامح لها عينان واسعتان عسليتان تشعان فضولًا كالأطفال.

وعدت ألتفت إليها، وقبل أن تفلت عينيها هذه المرة، باغتها بسؤالي:

ـ "هل تروقك عدساتي اللاصقة؟"

اتسعت عيناها لتكسبها مزيدًا من البراءة، وهي تقول في دهشة:

ـ "هل هي عدسات لاصقة!؟"

غلبتني طبيعتي الساخرة، رغم ما أنا فيه، فأومأت برأسي:

ـ "هل تبدو لك طبيعية إلى هذا الحد؟"

هزت رأسها في مزيد من البراءة:

ـ "ربما.. ولكن يبدو أنها تؤلم عينيك"

لم أفهم في الحال، فقطبت حاجبي في تساؤل، وأنا أنظر إليها، فعادت تقول مفسرة:

ـ "عيناك شديدتا الاحمرار، لابد أنه بسبب العدسات. هل تسبب لك ألمًا؟"

في تلك اللحظة كان المصعد قد وصل، فباعدت ما بين شفتي محاولًا رسم ابتسامة مجاملة، ثم دلفنا إلى المصعد في صمت.

وفي نفس الطابق هبطنا سويًا، ثم افترق طريقانا دون أن ينظر أحدنا إلى الآخر، فاتجهت هي يمينًا حيث قسم المخ والأعصاب، بينما أسرعت أنا إلى قسم الكبد.

كانت أمي بين اليقظة والنوم تئن في صوت مسموع يمزق القلب، وأبي جالس إلى جوارها يربت على كتفها، ويحادثها محاولًا التخفيف عنها، ويقبل يدها في حب.

كان مازال ساهرًا منذ ليلتين إلى جوارها، وقد جاءت خالتي هذا الصباح لتكون معها بدلًا منه لبعض الوقت كي يحظى ببعض النوم، ولحق بهما أخي (أحمد) بعد انتهاء عمله، إلا أن أبي لم يستطع تركها وهي تتألم بهذه الطريقة.. كنت أشعر بالإشفاق عليه أيضًا من طول السهر الذي بدا جليا على ملامحه المجهدة.

ـ "أبي، يمكنك الذهاب الآن كي تستريح قليلًا"

هز رأسه رافضًا، دون أن ينظر لي، وعيناه متعلقتان بأمي النائمة، وهو يقول:

ـ "لا عليك.. لست متعبًا"

عدت أقول في رجاء:
ـ " أبي.. نحن ثلاثة وسوف نعتني بها حتى تعود.. اذهب ونم قليلًا من فضلك"
لم يجب، ومرت فترة من الصمت، وهو يتأملها، قبل أن يرخي عينيه، ويستسلم للأمر، ويقوم من مكانه في هدوء قبل أن يقول:
ـ "لا بأس.. سوف أذهب وأعود في المساء"
فتحت أمي عينيها في تلك اللحظة في وهن، ومدت يدها، فأسرع ليمسك بكفها وهو يقول في حنو:
ـ "هل تريدين شيئًا يا حبيبتي؟"
لم تستطع أن ترفع رأسها من التعب، ولكنها قالت في صوت واهن اختلطت حروفه من فرط التعب:
ـ "هل ستذهب؟"
قال على الفور:
ـ "لن أذهب إلى أي مكان، أنا معك"
ابتلعت ريقها في صعوبة، وهي تقول في بطء:
ـ "اذهب وارتح قليلًا"
قالتها، ثم أغمضت عينيها، واستسلمت للنوم من جديد، فنظر إليها لحظات قبل أن يقول في حنان، وكأنها تسمعه:
ـ "سوف أعود بعد قليل لأقضي معك الليل كله"
ثم ألقى نظرة خاطفة على المحاليل المعلقة يتأكد من سلاسة تدفقها، ومرر يده على ذراعها في رفق، وذهب.
جلست ذلك اليوم إلى جوارها أحاول أن أطعمها أو أسقيها شيئًا كلما استيقظت، وهي ترفض.
تغمض عينيها، فأربت على كتفها في رفق، بينما تئن من الألم.
أنتظر طويلًا ممسكًا بيدها، قبل أن يسكن صوتها تدريجيًا، وينتظم تنفسها، فأقوم في هدوء أحكم وضع الغطاء فوق كتفيها، وأجلس دون صوت كي لا أوقظها.. لحظات غالية تلك هي التي تنام فيها نومًا عميقًا وسط كل ذلك الألم.

نظرت لي خالتي، ثم أشارت إلى المنضدة في ركن الحجرة حيث توجد بعض الأطعمة وهي تقول في خفوت:

ـ "اتركها تنام قليلًا، وكل شيئًا"

أشرت لها برأسي، وأنا أقول:

ـ "سوف أفعل، لكن ليس الآن"

قالت في صوت يمتزج فيه اللوم بالإشفاق:

ـ "لا يا عزيزي، بل الآن.. أمك بخير، وسوف تتعافى بإذن الله. ولا نريد أن يسقط أحدكم بسبب إهماله لنفسه"

ـ "يا خالتي كل ما في الأمر أنني لا أشعر بالجوع الآن"

ـ "ولن تشعر بالجوع إذا تركت نفسك هكذا. فقط أجبر نفسك على الأكل"

قبل أن أفكر في مبرر للرفض سمعنا طرقة واحدة على باب الغرفة، ثم فتح الباب في سرعة، ودخلت إحدى الممرضات لتلقي علينا التحية في روتينية، وتمسك بزجاجة المحلول التي انتهت تبدلها بأخرى، ثم تمسك بيد أمي تتأكد أن تلك الإبرة المغروسة في عروقها لتنساب المحاليل من خلالها لم تتحرك من مكانها.. وفتحت أمي عينيها، ونظرت للممرضة التي كانت قد انتهت من عملها، ورأتها وهي تنصرف.

واقتربتُ من فراش أمي، ونظرتُ في وجهها المجهد، وابتسمت لها وأنا أقول:

ـ "كيف حالك؟"

قالت بذلك الصوت الذي لا يقوى على الخروج:

ـ "هل هذه الفتاة هي (نجوى)؟"

لم أفهم ماذا تقصد، فقلت في رفق محاولًا التركيز لتبين حروف كلماتها عندما تتكلم:

ـ "أي فتاة؟"

فأشارت بعينيها إلى حيث كانت تقف الممرضة، وهي تقول:

ـ "هذه الفتاة"

قلت معتقدًا أن إحدى ممرضاتها هنا اسمها (نجوى):

ـ "الممرضة؟"

عادت تقول في صعوبة:

ـ "لا.. التي أحضرتها لكي أراها"

ابتسمت خالتي في سعادة عندما رأت أمي تتحدث؛ فقد كان كلامها في الفترة الأخيرة شديد الصعوبة، فاقتربت منها وهي تحاول حثها على متابعة الكلام:

ـ "هل تقصدين الفتاة التي ينوي الزواج بها؟"

أشارت برأسها دون أن تفتح عينيها بالموافقة، فقلت وقد خفت أن أمي قد بدأت تفقد تركيزها إلى درجة خلطها بيني وبين أخي:

ـ "أنا (يوسف) يا أمي.."

ثم نظرت إلى (أحمد) أسأله إن كانت تقصد الفتاة التي ينوي خطبتها، فهزت أمي رأسها نفياَ وقد أغمضت عينيها، ثم قالت:

ـ "لا.. أنت"

قالت خالتي في صوت مرتفع، محاولة أن تستنفر انتباه أمي:

ـ "هي تريد أن ترى عروسك أنت يا (يوسف).. أليس كذلك يا حبيبتي؟"

فأومأت أمي برأسها إيجاباً. لم تكن أمي قد رأت (شاهندة) بعد، ولم تكن تعرف أن الأمر قد انتهى، لكن يبدو أن الأسماء قد اختلطت في رأسها، وعادت خالتي تقول:

ـ "إن شاء الله سوف يفعل.. لكن يجب أن تقاومي المرض، وتتعافي سريعًا كي نذهب لنخطب له"

قالت حبيبتي:

ـ "لا، لن أنتظر.. هو سيحضرها لي هنا كي أراها"

ربتُ على كتفها، وأنا أقول:

ـ "هل تريدين أن أحضرها لك في المستشفى؟"

نظرت لي، وأومأت برأسها وفي عينيها أمنية.

ابتسمت لها، والدمع يكاد يفر من عيني، وأنا أقول:

ـ "لا تقلقي، سوف أحضرها لك هنا لتخبريني برأيك قبل كل شيء، لا تقلقي يا حبيبتي"

وفي المساء كانت خالتي وأخي قد انصرفا، ولم يكن أبي قد وصل بعد، واستيقظت أمي من سِنَة قصيرة، ونظرت لي، ثم جالت بعينيها في الغرفة قبل أن تقول:

ـ "أين أبوك؟"

ابتسمت لها، وأنا أقول:

ـ "لابد أنه على وشك الوصول"

ثم جلست إلى جوارها، ممسكًا بكفها أسألها في رجاء:
ـ "هل تأكلين شيئًا؟"
أومأت برأسها أن نعم، فأسعدني ذلك، فقمت مسرعًا أحضر طبق الطعام، وجلست أطعمها.
لم تأكل سوى القليل جدًا، ثم أشارت لي أن أكف، فأخذت أحايلها كي تأكل قضمة أو قضمتين زيادة، فتهز رأسها نفيًا، وتحاول إقناعي أنها ستتقيأ، فأحاول الضحك معها، وأقول لها أن تأكل ثم تتقيأ كما تشاء، فتبتسم في وهن.. ابتسامة غالية جدًا هي تلك الابتسامات التي أسرقها بين لحظات الألم التي لا تنتهي.
لكم أتمنى لو أقايض دنياي كلها بيوم واحد تعودين فيه كما كنتِ يا أماه، وأرى وجهك سعيدًا مبتسمًا، وصوتك ضاحكًا جليًا كما كان!
سمعت طرقات على الباب قطعت شرودي، فقمت لأجد الطبيب الذي دخل مبتسمًا وهو يسأل أمي عن حالها اليوم، فحمدت الله، فبدأ يفحصها بسماعته للحظات، ثم ألقى بعض كلمات التشجيع لها، وإن لم يستطع أن يداري تعبيرات الإحباط التي ارتسمت على وجهه وهو ينصرف.. فأسرعت خلفه إلى الخارج وأنا أقول في لهفة:
ـ "دكتور.. كيف هي اليوم؟"
مط شفتيه في استسلام، وهو يقول:
ـ "في الواقع.. كل شيء بيد الله، لكن حالتها شديدة الصعوبة"
نظرت له في تساؤل، أريد أن يشرح لي، وقرأ هو ما بعيني، فبدا مشفقًا وهو يقول:
ـ "أنت تعلم أن كبدها به مجموعة من الأورام.. وهي كثيرة ومتعددة بشكل يصعب علاجه.. كما أن الكلى قد بدأت تتأثر"
قلت محاولًا أن أجد بين كلماته بصيصًا من الأمل:
ـ "أنا أسأل عن خطة العلاج.. ما الذي يجب أن يتم في الفترة القادمة كي نوقف هذا التدهور؟"
أومأ برأسه متفهمًا، ثم قال:
ـ "نحن نقوم بالعلاج الذي نستطيعه؛ فهي تحصل على أنواع متعددة من المضادات الحيوية بالإضافة إلى المحاليل، أما بالنسبة للأورام فسوف يتم عرضها على أطباء الأورام لتحديد إذا ما كان سيتم بدء العلاج الكيميائي معها الآن أم لا"

ثم اعتدل في وقفته إشارة إلى أنه سيذهب وهو يقول:

ـ "لا تقلق.. بإذن الله سوف تتعافى"

ـ "شكرًا يا دكتور"

أومأ برأسه محييًا، ثم ذهب في خطوات سريعة، وتركني أصارع أفكاري القاتلة.

هل يمكن أن أغمض عيني وأفتحها لأجد نفسي في مكان آخر غير تلك الغابة المظلمة؟ تراودني تلك الأمنية أن يكون كل ذلك حلمًا ينتهي عندما أغمض عيني وأفتحها من جديد، لكن الحقيقة أن ما يحدث ليس حلمًا، ولا مفر منه عن طريق الأمنيات.

لا أدري ما هذا الهدوء الغريب الذي حل بي و(فريد) في ذلك الوقت. كانت مشاعر الخوف تكاد تفتك بنا حتى الجنون منذ قليل، ثم فجأة بتنا أهدأ حالًا وكأننا ننتظر في منتجع طبي، وليس في غابة مفتوحة باردة تصب أمطارها فوق رؤوسنا ويهددنا الموت فيها من كل جانب.

أسمع أصوات حركة بسيطة في الجوار، فلا أعيرها مزيدًا من الاهتمام.. ولا ندري هل وصلنا إلى مرحلة السلام النفسي، أم أن هذا الهدوء الذي بداخلنا مثل ذلك الهدوء الذي يصيب الغزال عندما يقع بين أنياب الأسد، ويعرف أنه لا سبيل للهروب!!

ـ "هل تعتقد أننا إن عدنا إلى الماضي، ذلك الماضي الذي عشناه ونعرفه جيدًا ونعرف ما حدث فيه.. هل تعتقد أنه يمكننا أن نغير تصرفاتنا في المرة الثانية ونقوم باختيارات مختلفة في الحياة؟"

لم يرد (فريد) على الفور، ولكن لابد أنه آثر الصمت لحظات للتفكير قبل أن يقول:

ـ "ربما إن عدت سأغير بعض الأشياء"

قلت على الفور:

ـ "أخبرني عن بعض تلك الأشياء التي ستغيرها"

قال بلا تردد:

ـ "لن أقوم بتلك الرحلة معك"

ـ "أعلم أنه سيكون قرارًا حكيمًا للغاية عليك اتخاذه بالتأكيد"

ـ "وربما كنت سأعطي المزيد من الوقت للكنيسة"

قلت مؤيدًا:

ـ "أنت على حق؛ كلنا ننسى ما علينا تجاه الله وسط دوامة وصخب الحياة"

ـ "وأنت؟"

فكرت لحظة، قبل أن أقول:

ـ "حياتي صاخبة للغاية، وأعتقد أن هناك الكثير من الأشياء التي كنت لأود تغييرها"

ـ "أعطني أمثلة لذلك"

ـ "أمثلة كثيرة تتخبط في رأسي، لكن لا أعرف تحديدًا أيها كنت سأتخذ فيه قرارًا مختلفًا.. ربما كنت قد أتخذ قرارات مختلفة في مجال دراستي أو عملي، وربما كنت سأمتنع عن الدخول في علاقات حب فاشلة. الكثير من الأشياء حقًا تتقافز في ذهني، لكنني لست على ثقة أنني إن حاولت تغيير تصرفاتي ستتغير الأشياء لصالحي أم لا، بل ربما إن عدت قد أتخذ نفس القرارات مرة أخرى حتى وإن كانت خاطئة"

قال متعجبًا:

ـ "غريب أن تتخذ نفس القرارات السابقة، وأنت تعلم حقًا أنك كنت على خطأ! لكن ماذا تعني بتغير الأشياء لصالحك من عدمه؟"

ـ "هل سمعت شيئًا عن مصطلح (تأثير الفراشة)؟"

بدا التردد على صوته، وهو يقول:

ـ "لا أتذكر أنني سمعتُ شيئًا مماثلًا"

قلت أحاول شرح الأمر في بساطة:

ـ "لا بأس، هو مصطلح أطلقه أحد علماء الرياضيات الأمريكيين، يقول أن رفرفة جناح فراشة في مكان ما قد يؤدي إلى أعاصير في مكان آخر، ويعني أن ما يحدث اليوم هو تأثير أحداث بسيطة متعددة حدثت في الماضي، وأي تغيير بسيط في أحد الأمور قد يؤدي إلى تغييرات جسيمة فيما بعد. كان هناك فيلم أمريكي بنفس الاسم (تأثير الفراشة)، هل شاهدته؟"

ـ "لا أعتقد"

ابتسمت، وأنا أقول:

ـ "عليك إذن أن تراه عندما نعود"

ضحك (فريد)، بينما تابعت:

ـ "فكرة الفيلم كانت في قدرة البطل على الرجوع إلى الماضي، لتغيير بعض الأحداث التي حدثت في حياته، وبالطبع هو يعلم مسبقًا ما أدت إليه تلك التصرفات، فيقوم بالعودة لتغيير ما حدث وبالتالي يتغير الحاضر المرتبط بتلك الأحداث تلقائيًا"

ـ "وهل نجح في ذلك؟"

ـ "المشكلة هنا أن التغييرات البسيطة التي كان يصنعها في الماضي كانت تؤثر بشكل مرعب في الحاضر، حتى أنه عندما قام بالصواب في فعل ماض عاد إلى الحاضر ليكتشف مرة أنه أصبح سجينًا، أو فقد ساقيه من أثر انفجار في مرة أخرى!"

ضحك (فريد) متهكمًا، وهو يقول:

ـ "هذا يعني أنه لا فائدة إذن من المحاولة!"

ـ "هكذا يبدو الأمر، وأعتقد أنه لا مفر من الأقدار"

نعم يا (فريد) هكذا يبدو الأمر..

ربما لا سبيل إلى تغيير الماضي، لهذا لم يمنحنا الله الفرصة للعودة إلى الماضي.. لكنني أؤمن تمامًا أن هناك دائمًا الفرصة لتغيير الحاضر.

عزيزتي ريم..

لقد مررت اليوم بتجربة رائعة..

كنت قد قررت البحث عن الأماكن السياحية في العاصمة (كمبالا) على شبكة الإنترنت حتى أعرف ما يمكن أن أبدأ به زياراتي، وقد لفت انتباهي عند البحث معبد شديد روعة التصميم لم أفهم اسمه في البداية نظرًا لأنه مكتوب بالإنجليزية، واعتقدت أنه أحد المعابد الخاصة بديانات أوغندية قديمة، لكنني عندما حاولت البحث عن التفاصيل الخاصة علمت أنه المعبد البهائي.

لا أعلم أن كنتِ قد سمعت عن هذه الديانة الغريبة من قبل، لأنني عرفت بأمرها مصادفة أيام الجامعة من أحد أصدقائي النوبيين، كان والده يعتنق الديانة البهائية، وظل صديقي هذا حزينًا على أمر والده، ولم يستطع إقناعه ببطلان تلك العقيدة حتى وفاته رحمه الله وغفر له.

عندما خرجت هذا اليوم وجدت (فريد) مع أصدقائه يجلسون بالقرب من سور الفندق وبجوارهم دراجاتهم، فقام متجهًا نحوي محييًا وقد ارتسمت على وجهه علامات السعادة، فسألته عن حاله، ثم أخبرته أنني أريد أن أذهب اليوم إلى المعبد البهائي.

نظر لي (فريد) متعجبًا، قبل أن يسألني إن كان هذا المعبد في (كمبالا)، فأجبته بنعم وأنني بحثت عن المعالم السياحية على الإنترنت فوجدته ضمنها، فالتفت إلى زملائه يسألهم عن ذلك المعبد فلم يعرفه أحد منهم، ثم رفع أحدهم يده وضرب رأسه وكأنه فهم وعاد يقول "هل تقصد المعبد (البهاي)؟". فطنت حينها أن طريقة معرفتهم للاسم بالإنجليزية قد تكون مختلفة، وأنهم لا ينطقون الهمزة التي تسبق حرف الياء، فأجبته أنه هو، فضحك هو وزملائه على لكنتي الإنجليزية السيئة ظنًا منهم أنني أخطأت النطق، قبل أن ينطلق بي (فريد) إلى ذلك المعبد الذي يقع على أطراف المدينة.

كان الطريق إلى المعبد ترابيًا غير ممهد، ويمر في بعض المناطق وسط أراض زراعية مثل قرى الفلاحين لدينا في مصر، لكنها تبدو أكثر بداءة وفقرًا. كان الجو رائعًا والشمس مشرقة بلا غيوم، وأثناء مرورنا كان الأطفال ينظرون إلينا يتابعوننا بأعينهم حتى نبتعد، كأنهم نادرًا ما يرون الغرباء هنا.. وتعجبت كثيراً عندما تحدث (فريد) وأخبرني أنها المرة الأولى التي يأتي فيها إلى هذا المكان.

وبعد بعض الوقت رأينا لافتة تشير إلى بوابة المعبد، قبل أن يبدو لنا بهيئته الجميلة فوق ربوة خضراء مرتفعة.

أبدى (فريد) إعجابه بتلك القبة التي تبدو من هيكل المعبد وسألني قبل أن نصل إلى البوابات إن كان هذا المكان يخص ديانتي، وأنني قد قدمت للصلاة مثل زيارتي للمسجد بالأمس، فأخبرته أن هذا المكان يخص ديانة أخرى، ولكنني أحب أن أرى الأماكن الجديدة.

وهناك دخلنا من البوابات، ووقف (فريد) مشدوهًا بجمال المكان، ورأيت على وجهه ابتسامة سعيدة. كان المعبد أمامنا يتوسط تلة مرتفعة، وتحيط به مساحات خضراء شاسعة تملأها أشجار رائعة عالية.

رحب بنا رجل الأمن على البوابة، وأخبرنا أننا يجب أن نترك الدراجة وأن الصعود إلى المعبد سيراً على الأقدام، فتركنا الدراجة وبدأنا نصعد درجات السلم الطويل، كنت أخشى أن (فريد) سيمل الأمر، ويخبرني أن أبدأ رحلتي إلى هناك ويجلس هو في انتظاري بجوار دراجته، لكنه كان مهتمًا بالأمر إلى درجة أنه كاد يسبقني أثناء الصعود، وكان سعيدًا كطفل يلهو لأول مرة في حياته.

عندما وصلنا إلى القمة كان هناك رجل ملتحٍ يبدو كالرهبان يرتدي جلباباً ملونًا قصيراً يقف أمام بوابة المعبد في هدوء، بدا لي من ملامحه أنه باكستاني أو هندي، نظر لنا عندما اقتربنا، وابتسم مرحبًا، فوجدت أنها فرصة لسؤاله عن سبب وجوده في هذا المكان.

أجابني الرجل في ود أنه هنا كراعٍ للمعبد، وعرفت منه أنه استرالي الجنسية وآمن بالبهائية منذ عدة سنوات، ثم أتى إلى هنا ليقضي وقته في التأمل وخدمة المعبد.

سألته إن كان دخول المعبد متاحًا للبهائيين فقط، فابتسم ولم يسألني عن ديانتي، ولكنه أخبرني أن بإمكاني الدخول إلى المعبد، وأداء الصلاة التي أريدها كما أشاء، وأن المعبد هو مكان روحي لكل الأديان.

وفي داخل المعبد وتحت القبة الملونة، وقفت أنا و(فريد) لبعض الوقت. لم يكن المعبد شديد الاتساع من الداخل وتوجد به بعض الكراسي الخشبية كالكنائس، لكن كل شيء فيه كان يبعث على الهدوء النفسي بطريقة غير مفهومة. تشعر كأن الأصوات قد توقفت وبدأت في الرغبة في الجلوس مستمتعًا بذلك الصمت، وابتسم (فريد) هامسًا

يسألني إن كنت أشعر بذلك الهدوء فأجبته بالإيجاب. كنت أعلم أن التصميم المعماري له دور متميز في هذا الأمر؛ فذلك الشعور يبدو جلياَ في المساجد القديمة والكنائس.

عاد (فريد) يسألني إن كنت أريد الصلاة، فأجبته بالنفي، وخرجنا لنجلس في الحديقة الجميلة.

كان سعيدًا ومهتمًا بالمعرفة حتى أنني شعرت أنه يتمتع بالرحلة، وأنني من أصطحبه كمرشد وليس العكس. عاد ليسألني عن أمر تلك الديانة، وإن كنت أفكر في اعتناقها فضحكت، وسألته مازحًا إن كان هو يريد اعتناقها، فأجابني بالنفي، وأنه مسيحي مخلص، فعدت لأبتسم، وأخبرته بما أعرف عنها.

بدأت هذه الديانة في إيران منذ وقت قريب.. ربما منذ مئة وستين عامًا فقط، عندما أعلن رجل يطلق عليه (الباب) أنه هو المهدي المنتظر الذي تحدثت عنه الديانات السماوية، وسميت دعوته بالدعوة (البابية). آمن بذاك الرجل عدد بسيط من الناس من ضمنهم أخوان هما (بهاء الله) و(صبح أزل) الذي جعله (الباب) خليفة له، ثم قبضت الحكومة على (الباب) تحت ضغط رجال الدين، وتم إعدامه. وثار الأتباع واستمرت الحكومة في قمعهم، وتم نفي (بهاء الله) إلى (فلسطين)، ونفي (صبح أزل) إلى (قبرص)، واختلف الأخَوان وادعى كل منهما أن له الحق في قيادة الدعوة إلى الدين الجديد، إلا أن (بهاء الله) عندما ادعى أخوه أنه الرسول المكلف قام بادعاء أنه هو روح الله الذي يرسل الرسل ويوحي بالأديان.

ضحك (فريد) كثيراَ معتقدًا أنني أمزح، إلا أنني أكدت له أن الأمر حقيقي، وأخبرته أنني سأرسل له على البريد الإلكتروني بعض المعلومات عن الأمر إن كان لديه الرغبة في المزيد من المعرفة.

أسعدني تواجدي في المكان كثيراَ رغم أن لدي رفض داخلي لأي مكان يعبد فيه غير الله، لكنني طوال الوقت كنت أدعو ربي أن يرد إليه القلوب الضالة التي لا تدري إلى أين تلجأ، وكلي يقين أن الله لن يخذل أبدًا من حاول أن يقترب وهو لا يعرف الطريق الصحيح.

لقد تأخر الوقت كثيراَ.. سأذهب لتناول العشاء، ثم أعود لأكمل كتابة المذكرات..

يسعدني أنني أكتب عن لحظات معرفتي الأولى بك في تلك الأيام..

تحياتي ومحبتي..

كانت تصرفاتي في الآونة الأخيرة قد اتسمت بالعصبية المبالغ فيها، والتي لم تكن أبدًا من عادتي خاصة في العمل، حتى أنني انفعلت ذلك اليوم على أحد الزملاء بدون أي سبب حقيقي يدعو لذلك.

كانت أعصابي قد أصبحت كلغم معد للانفجار، ينتظر فقط من يسوقه حظه العاثر كي يخطو فوقه دون قصد.

ـ "ليس هكذا تعالج الأمور"

قالها صديقي (عمرو) وهو يجذب كرسيًا، ويجلس أمامي.

ظللت أحدق لحظات في شاشة الكمبيوتر، محاولًا ضبط تنفسي كي أهدأ قليلًا قبل أن أتفوه بأي كلمة حتى لا أتحامق من جديد، ثم نظرت إليه وأنا أقول:

ـ "لا بأس، ربما من الأفضل أن أذهب الآن"

هز رأسه نفيًا في هدوء، ثم قال:

ـ "أعلم أنك تحت ضغط عصبي هائل، ولا أستطيع لومك على ما يحدث، لكن العصبية ليست مطلوبة في ذلك الوقت، كما أنه ليس حلًا أن تعتزل الآخرين"

تنهدت، وأنا أقول:

ـ "أنت على حق، ليس للآخرين ذنب فيما نمر به من مشكلات"

ـ "كيف حال والدتك الآن؟"

هززت رأسي في يأس، وأنا أقول:

ـ "لا جديد يا (عمرو)"

أطرق برأسه قليلًا في حزن، ثم قال:

ـ "سوف تتعافى بإذن الله، لا تقلق"

أومأت برأسي في صمت، فعاد يقول:

ـ "دعنا نجلس في مكان ما قليلًا عندما تجد وقتًا"

ـ "سوف نفعل إن شاء الله"

ثم رسم ابتسامة على وجهه محاولًا تغيير مجرى الحديث.

ـ "لقد اتصلت شقيقتي، وسألتني عن أمر اتصالك بالفتاة"

ـ "أنت تعلم.. لم يكن..."

قاطعني في سرعة، وهو يقول:

ـ "لا داعي لأن تقول شيئًا، أنا أعرف"
ـ "لقد أخبرتك منذ البداية، لم أكن أحب أن أتسبب لشقيقتك في حرج مع صديقتها، لكن إن أردت يمكنني الاتصال به الآن"
عاد يبتسم، وهو يقول:
ـ "لا عليك، لقد سافر الرجل بالأمس على كل حال"
دق جرس هاتفي المحمول.. كان رقمًا لم أعرفه، وما أن أجبت حتى أنهي الطرف الآخر الاتصال على الفور.. لا أدري لِمَ كان أول شيء جال بخاطري أن الاتصال قد يكون من المستشفى.. وعلى الفور لعبت الوساوس برأسي، فاعتذرت لـ(عمرو)، وقمت متجهًا إلى الشرفة، وطلبت الرقم، لكن لم يرد.. اتصلت مرات عديدة.. وفي كل مرة يستمر الرنين حتى ينتهي دون إجابة.
أقلقني ذلك الأمر كثيراَ.. ولم تكن أعصابي لتحتمل المزيد من القلق.
اتصالات متوالية مني دون أي إجابة، حتى أنني اتصلت بأبي ولم يجبني أيضًا.. وبدأت الأفكار المظلمة تتسابق إلى تفكيري، ربما يكون قد حدث خطب ما.
عشرات الاتصالات دون إجابة، ومزيد من التوتر والقلق، حتى سمعت صوت شقيقتي يجيب هاتف أبي تلك المرة، فهتفت في عصبية:
ـ "لماذا لا يجيب أحد على الهاتف!!؟؟"
قالت تحاول تهدئتي:
ـ "لا تقلق، أبي يتحدث مع الطبيب وهاتفه كان متروكًا في الحجرة على الوضع الصامت. لقد رأيت اتصالك مصادفة"
ـ "هل أمي بخير؟"
ـ "لقد كانت تتألم، لكنها نامت منذ قليل"
تنهدت والدموع تكاد تقفز من عيني بسبب ذلك الضغط العصبي الذي أعانيه.
ـ "هل تحدثت إليكم اليوم؟"
ـ "نعم، وسألت عنك وعن (شاهندة)"
ـ "أنا في الطريق إليكم"
ـ "حاول أن تحضر (شاهندة) لرؤيتها. سوف يسعدها الأمر"

قالتها، وأغلقت الهاتف، وأخبرت (عمرو) أنني سأذهب إلى المستشفى، وانصرفت على الفور.
كيف اكتست حياتي فجأة بكل تلك الغيوم!؟
كيف أصبحت أنتظر شمسًا لا تأتي أبدًا!؟
تتسلل أحيانًا من بين السحاب، فتلقي شعاعًا دافئًا يبتهج القلب له، ثم تضن عليّ بتلك اللحظات، فتختفي من جديد تاركة في القلب الظلام وخيبة الأمل.
يا رب!
لم أجد كلمات أخرى في نفسي سوى هذه الكلمة..
ألجأ إلى خالق الكون بالدعاء..
يا رب نرضى بقضائك.. نرضى بقضائك.. ولكن رحمتك وسعت كل شيء..
ومددت يدي أمسح دمعة فرت من عيني، قبل أن يلحظها أحد الموجودين..
أفقت من شرودي على وصول المصعد، فدخلت، وقبل أن يغلق الباب سمعنا فتاة تهتف بنا أن ننتظرها، فأوقف العامل المصعد حتى وصلت.
كانت هي ذات الفتاة التي التقيت بها يوم أمس.. دخلت المصعد وفوجئت بي أمامها، فابتسمت مجاملًا، ثم أطرقت إلى الأرض دون كلام.
ـ "الدور الثالث"
قالها العامل، فخرجت الفتاة، ثم خرجت بعدها، وقبل أن تبتعد كانت فكرة جنونية قد تولدت في ذهني.
ـ "معذرة.."
لم يكن سوانا في الردهة تلك اللحظة لذا فهمت أنني أقصدها.. فتوقفت، ثم التفتت نحوي وعلى شفتيها ذات الابتسامة الطفولية.
ـ "معذرة، لكنني كنت أريد أن أسألك شيئًا"
أومأت برأسها، دون أن تفارقها ابتسامتها، وإن احمرت وجنتاها ربما خجلًا.. ولم أجد أنا مدخلًا لما أريد، فتريثت لحظة أبحث عن أي شيء أقوله:
ـ "هل لك مريض هنا؟"
ـ "نعم.. خالتي"
ـ "هل هي بخير الآن؟"

ابتسمت وهي تقول:

ـ "الحمد لله تتحسن حالتها، وسوف تعود إلى المنزل بعد أيام قليلة بإذن الله"

ـ "حمدًا لله على سلامتها"

ـ "سلمك الله"

قالتها واتسعت ابتسامتها، ثم هزت كتفيها وكأنها تسألني "وماذا بعد؟"، فعدت أقول في تردد:

ـ "في الواقع كنت أريد منك أمرًا قد يساعد مريضًا.. فإن قدرت على ذلك فلك الشكر، وإن لا فلا حرج عليك"

لمعت عينيها، وهي تقول في رقة:

ـ "بالتأكيد، يسعدني لو أستطيع"

ثم عادت تسأل في اهتمام:

ـ "من المريض؟"

ـ "أمي"

ـ "ماذا بها شفاها الله؟"

ـ "هي تعاني من أورام بالكبد، وحالتها للأسف في تدهور مستمر"

بدا الحزن على ملامحها وهي تقول:

ـ "أنا آسفة لذلك، ولكن أسأل الله العلي القدير أن يشفيها ويعيدها إليكم سالمة"

ـ "شكرًا لك"

ارتسمت ابتسامتها الرقيقة على شفتيها من جديد، وهي تقول في عذوبة:

ـ "ماذا يمكنني أن أفعل من أجلها؟"

ـ "أريد منك زيارة لها.."

بدت الدهشة على وجهها، وصمتت لحظة تحاول أن تفهم الأمر، ثم قالت دون أن تفارقها ابتسامتها العذبة:

ـ "في الواقع لا أفهم"

كنت أعلم أن ما أفعله حماقة، ولكنها طبيعتي المجنونة التي تقودني دائمًا.

ـ "تمر أمي بمرحلة حرجة للغاية، وقد سألتني مرارًا أن أطمئن قلبها بزواجي، وأنا وعدتها أنني سأفعل، بل وسأحضر إليها الفتاة التي أنوي خطبتها إلى المستشفى كي تراها وتطمئن"

أومأت برأسها في اهتمام، وهي تقول:

ـ "ولِمَ لَمْ تفعل؟"

ـ "لأنه في الحقيقة لم تعد هناك تلك الفتاة"

ـ "كيف!؟"

ـ "لقد خطبت إلى شخص آخر.. وأمي لا يزال الأمر يؤرقها حتى وسط كل ما تعانيه من ألم"

بدا الحزن على ملامحها، قبل أن تقول:

ـ "تريدني إذن أن أدعي أنني هي تلك الفتاة؟"

قلت في سرعة:

ـ "إن كنت ترفضين تأدية هذا الدور فلا بأس"

قالت في هدوء متسائلة:

ـ " لا.. أنا فقط أفكر بالأمر.. ولكن ألا يعد ذلك خداعًا لها؟"

أشرت برأسي نفيَا:

ـ "ليس بالأمر أي خداع.. فقط هي محاولة لإسعاد قلب هذه المسكينة"

ثم دون أن أنتظر منها ردًا ابتسمت لها في عرفان، وأنا أقول:

ـ "شكرًا لقبولك الاستماع لي.. فكري كما تشائين.. رقم حجرتها ٣٢٧.. في حال إن وافقتِ على الأمر"

أومأت برأسها، وابتسمت عيناها من جديد:

ـ "أسأل الله أن يشفيها من أجلك"

ـ "شكرًا لك"

وذهبنا كلٌ يخطو في طريقه..

يستمر (فريد) في إرسال إشارات الدخان مستخدمًا قميصي المبلل، يمنع الدخان، ثم يتركه لينطلق في السماء بحركات منتظمة دون أن يسأم، على الرغم من صعوبة أن يرى تلك الإشارات أحد في ذلك الظلام الحالك، وربما لن يتوقع أحد أيضًا أن هناك من يرسل إشارات للنجدة من قلب تلك الغابة المجهولة.

وغرقنا في الصمت لفترة طويلة..

مكبلين في أماكننا في ذلك الظلام المخيف الذي يحيطنا من كل اتجاه، ننتظر أن تأتينا النجدة متمسكين بأي شيء من الأمل..

ـ "(جوناه Jonah)!"

قالها (فريد) ليقطع ذلك الصمت..

ـ "من!؟"

ـ "ذلك النبي الذي ابتلعه الحوت، كان اسمه (جوناه Jonah)"

ابتسمت في صمت، فعاد يقول:

ـ "لكننا لم نعد في زمن المعجزات"

أومأت برأسي مؤيدًا، وأنا أقول:

ـ "ربما انتهى ذلك الزمان، لكن يبقى الله في كل الأوقات، وأنت كنت محقًا عندما طلبت منا أن نبتهل للنجاة"

قال متهكمًا:

ـ "هل يحدثني الآن نفس الشخص الذي كان يتمنى الموت منذ قليل؟؟"

ـ "لا أحد يتمنى الموت وهو في كامل قواه العقلية صدقني. جميعنا ندرك أن المجهول الذي وراء الموت ربما يكون أشد قسوة من الحياة أيًا كانت صعوبتها، لكن الموت هو ذلك المهرب الزائف الذي لا نرى سواه كلما لعب بعقولنا الشيطان في بعض أوقات الضعف والوهن"

ـ "أنت على حق"

ـ "لذا دعنا نستمر في الدعاء، وليأت الموت لاحقًا في مكان آخر بخلاف هذه الغابة"

توقف (فريد) عن إرسال إشارات الدخان، وقد أجهده الأمر، ثم أسند ظهره إلى جذع إحدى الأشجار، وهو يقول:

ـ "لقد تحدثت منذ قليل عن رغبتك في عدم الدخول في علاقات حب فاشلة، لكنك لم تخبرني عن تلك الفتاة التي كنت تشتري لها الثوب من السوق"
ابتسمت وأنا أقول:
ـ "أنت دقيق الملاحظة بالرغم مما نعانيه الآن يا (فريد)"
ضحك وهو يقول:
ـ "هل هي حبيبتك؟"
هززت رأسي نفيَا، وأنا أجيب:
ـ "ليس بالمعنى الحرفي"
ـ "ماذا تعني؟"
قلت محاولًا التفسير:
ـ " أعني أنها فتاة رائعة لم أر أروع منها يومًا سوى أمي، لكنني لا أعلم إن كان ما أشعر به نحوها حبَا أم أنه تعلق بشخص مد إليك يد العون في وقت كنت فيه في أمس الحاجة إلى صديق"
ـ "وهل تحبك هي؟"
ـ "لا أعرف حقًا، ربما!"
ـ "أنت مغرور إذن؟"
أجبت في جدية نافيَا ذلك، ثم قلت:
ـ "لست مغرورًا بالتأكيد، وربما علاقتها بي لا تتجاوز الإشفاق على رجل بائس كان بحاجة إلى المساعدة، لكن في كل الأحوال ليس معنى أن يحبك شخص رائع أنك كامل أو متميز، لكنه يحبك لأنك تمس وترَا ما في قلبه لم يستطع أن يعزف عليه أحد غيرك"
أجابني مؤكدًا:
ـ "كلام صحيح، كذلك أرى (ماريا) على الدوام.. امرأة تستحق من هو أفضل مني، لكن الله يحبني وأراد أن ينعم عليّ بزوجة مثلها"
ـ "أنت تستحق ذلك يا (فريد)"
عاد صوته يكتسي بالحزن الشديد، وهو يقول:

ـ "لعلني لا أستحق ذلك يا صديقي، لكنني إن كنت أتمسك بالحياة فلأنني لا أريد أن أتركها وحيدة من بعدي؛ فحتى إن كنت لا أستحقها، بل إن كنت أسوأ الناس، فما زالت بحاجه إليّ وسوف يكسر موتي قلبها"

ـ "سوف ننجو يا صديقي"

ـ "حقًا!؟"

ـ "نعم، وسوف نتذكر الأمر ونضحك يومًا ما"

ـ "ماذا تعني بقولك سوف نتذكر؟ صدقًا أنا لن أعرفك بعد هذا اليوم أبدًا إن قدر لنا النجاة"

قالها (فريد) ونظر لي في جدية، ثم طفقنا نضحك، ويتردد صوتنا وسط الغابة قاطعًا ذلك السكون.

عزيزتي ريم..

الجو هنا لطيف جدًا في ذلك الوقت، ويحلو لي أحيانًا الجلوس في حديقة الفندق قبل الغروب، على الرغم من لسعة البرد الخفيفة التي تأتي مع انصراف الشمس.

أجلس الآن في الحديقة، ومعي (اللاب توب) لأستكمل كتابة مذكراتي. فترة صعبة للغاية تلك التي مرت بي، ولا أدري كيف تجاوزتها دون أن يصيبني الانهيار. لابد أنك لاحظتِ كيف كان يبدو مظهري وقتها، وكيف كنت في حالة شديدة من الهزال بسبب قلة النوم والطعام، حتى أنني فوق نحافتي فقدت من وزني ما يقارب عشرة كيلوجرامات.

لم تخبريني حقًا كيف كان انطباعك عن لقائنا الأول.

أعلم أن قلبك أكبر من أن تحكمي على الأشخاص من مظهرهم الخارجي، لكن ما الذي فكرتِ فيه عندما رأيتِني لأول مرة؟ يهمني أن أعرف ذلك كثيراً.

انطباعي عنكِ لم يختلف أبدًا..

نفس الرقة والمشية الملائكية والابتسامة الساحرة.. لكن لم أكن أعرف أيضًا أن ذلك القلب يحمل في داخله طاقة حب لا حدود لها.

فعندما تحدثت معك للمرة الأولى كنت لأتقبل أن تتهميني بالجنون أو في أفضل الأحوال أن تنصرفي عني دون رد، لكن ما فعلتِ أثر بي حقًا وجعلني أعتقد أن الله لم يخلق الملائكة فقط في السماء.

بل ترك صفات الملائكة في بعض البشر، وجعلهم معنا على الأرض لينشروا رحمة الله بين الناس.

من خلف زجاج النافذة وقفت أتأمل النيل يتلألأ أمامي تحت الأضواء الأولى للشمس.
كان الصباح قد أشرق بعد ليل طويل مر كأنه ألف ليل..
وفي الأفق طائر يدور هنا وهناك محلقًا في سعادة..
وقفت أنظر إلى ما وراء الزجاج، وكأنني سجين شاءت الأقدار أن تأسره الأحزان فلا أصبح النهار يبهج قلبه ولا صار الليل يبكيه..
كان كل شيء عندي قد أصبح سواء.. ليل متصل من الأحزان لا ينتهي..
سمعت صوت أمي تتألم، فالتفت إليها مسرعًا أسألها إن كانت تريد شيئًا، فلم تجبني سوى بأنَّات الألم.
كانت ابتسامة أمي تملأ قلبي سعادة وروحي طمأنينة..
واليوم أرى الدنيا كلها كئيبة مظلمة تبكي حزنًا على ألمك يا أمي..
لم أعرف يومًا قيمة هذه الابتسامة إلا عندما فقدتها..
أنظر إلى وجه أمي الجميل وقد أنهكه الألم، وجسدها الذي فقد قدرته على الحراك..
تفتح عينيها في وهن وتئن..
أمسح بيدي على شعرها وأربت على كتفها.. حبيبتي الغالية..
تتقلص ملامح وجهها في ألم، فأسألها ما الذي يؤلمها، فتحرك رأسها في ضعف وتقول: "لا أدري"..
ربما لم تكن تعي وجودي في تلك اللحظات.. ولم أعد أنا حتى أستطيع التفريق بين لحظات وعيها الحقيقي وغيابه..
أقف إلى جوار فراشها وشعوري بالعجز يقتلني.. "فداك نفسي يا أمي!"
أتألم في صمت وأنا أراها في فراشها لا تستطيع سوى أن تئن، فأقترب منها وأربت على كتفها، أسوي الغطاء فوقها وأتأكد أن لا شيء منه قد تكوم تحت جسدها يضايقها.. أمسح العرق عن وجهها، وأضبط وضع الوسادة تحت رأسها.. أرقب قطرات المحاليل التي تصب في عروقها لأتأكد من انتظام تدفقها.
تئن حبيبتي من الألم وترفع يدها في وهن لتضعها على جبهتها في ألم.. وتنظر لي بعينين نصف مغلقتين.
ـ "ماذا يؤلمك يا أمي؟"

يأتيني منها الرد بمزيد من الأنَّات، فأضع يدي على جبهتها أتحسسها لأجد أن حرارتها مرتفعة.. أسرعت أبحث عن شيء يصلح لاستخدامه ككمادات فلم أجد سوى بعض المناديل الورقية.. فبللت بعضها وبدأت أمسح وجهها بها وأضعها على جبهتها، ثم أعود لأرفعها بعد لحظات لأطفئ سخونتها بالماء البارد وأعود لأضعها على جبهتها من جديد.

الطرقتان المميزتان للممرضات على الباب، ثم دخلت إحداهن لتفحص زجاجات المحاليل المعلقة، ثم نظرت لي وابتسمت وهي تشير إلى الكمادات الورقية متعجبة.

ـ "ماذا تفعل!؟"

ـ "كمادات.. حرارتها مرتفعة للغاية"

عادت تبتسم، ثم رفعت ذراع أمي لتضع (الترمومتر) تحت إبطها، وهي تقول:

ـ "كمادات بهذه المناديل الورقية!؟"

ـ "لم أجد سواها هنا"

سحبت الممرضة مقياس الحرارة، ورفعته لتنظر فيه، ثم قالت:

ـ "سوف أحضر لها دواءَ خافضًا للحرارة"

أومأت لها برأسي أن (حسنًا) فابتسمت وذهبت..

كانت أمي لا تزال تئن دون وعي منها بما يدور، وأخذت أربت على كتفها مهونًا عليها.. شفاك الله يا أمي..

سمعت طرقات خافتة على الباب اعتقدت أنها الممرضة، لكن أحدًا لم يفتح الباب.. فذهبت إلى الباب وفتحته، واعترتني الدهشة.. كانت الفتاة التي التقيت بها يوم أمس تقف وقد احمرت وجنتاها من فرط الخجل.

بادرتها بالكلام حتى أقطع هذا التوتر وأنا أتنحى عن الباب كي يمكنها الدخول:

ـ "أهلًا بك.. تفضلي"

تنحنحت الفتاة في خفوت ربما لتلقي عنها بعضًا من توترها الداخلي، قبل أن تخطو إلى الداخل، ونظرت إلى أمي التي كانت قد استغرقت في النوم، ثم عادت تنظر لي وهي تقول في هدوء كي لا تزعجها:

ـ "هل هي بخير الآن؟"

هزرت رأسي في أسى، وأنا أقول:

ـ "للأسف لا.. لقد كانت تتألم طوال الليل"

ـ "هل كنت معها الليلة؟"
ـ "نعم"
رفعت حاجبيها، كمن استوعب أمرًا قبل أن تقول:
ـ "لقد اعتقدت أنني بمجيئي باكرًا لن أجد معها أحدًا؛ عرفت أنه لا سرير للمرافق في هذه الحجرة"
أومأت برأسي، وأنا أقول:
ـ "لم نجد حجرة بسرير مرافق في المستشفى بالفعل"
ـ "تظل ساهرًا طوال الليل إذن؟"
ـ "اعتدت الأمر.. ماذا عنك؟ كنتِ في المستشفى طوال الليل أيضًا؟"
ابتسمت، وهي تقول:
ـ "نعم، طلبتْ خالتي أن أظل معها وأحببت ذلك"
ثم اقتربت من أمي، وقبلت جبهتها، قبل أن ترفع رأسها، وتقول في قلق:
ـ "حرارتها مرتفعة للغاية"
ـ "قالت الممرضة أنها ستحضر لها دواء"
ثم فكرت لحظة، قبل أن أقول:
ـ "لقد تأخرت الممرضة.. هل تنتظرين معها دقائق حتى أذهب وأحضر لها الدواء؟"
أومأت برأسها موافقة في حماس، وانطلقتُ أهرول حتى المكتب الذي تجلس على الممرضات في الردهة.. وما إن رأتني حتى ابتسمت وهي تقول:
ـ "خافض الحرارة، أليس كذلك؟"
أجبت مؤيدًا دون أن أبتسم، فدخلت حجرة جانبية، ثم عادت وفي يدها حبة دواء.
ـ "أعطها هذه"
تناولت منها الدواء وعدت إلى حجرة أمي في سرعة، وانتفضت الفتاة لدى دخولي. كانت تجلس بجوار أمي تمسك بيدها، فابتسمت رغمًا عني وأنا أقول:
ـ "ما الذي أفزعك هكذا!؟"
ابتسمت في براءة وهي تقول في صوت لا يكاد يسمع:
ـ "لا شيء"

كانت أمي قد استيقظت، وإن كانت لا تعي شيئًا مما يدور، فأحضرت كوبًا من الماء وأخذت أحايلها كي أضع حبة الدواء في فمها وأسقيها بعض الماء، وأخذت هي تأبى في البداية، وتبعد يدي عن فمها دون أن تفتح عينيها، ثم استسلمت لإلحاحي وتناولت الحبة، وعادت للنوم مرة أخرى.

ونظرت لي الفتاة، وقد تأهبت للانصراف، وهي تقول في أسف:

ـ "يبدو أن زيارتي لها لم تفلح.. هي لم تراني"

أومأت برأسي وأنا أقول:

ـ "لم تعد فترات وعيها كثيرة للأسف"

بدا الحزن على ملامحها قبل أن تقول:

ـ "شفاها الله!"

ثم أردفت، وهي تتحرك تجاه الباب:

ـ "يجب أن أذهب الآن"

أومأت برأسي، وأنا أقول في عرفان:

ـ "لا تدرين كم أشكر لك مجيئك"

ـ "كنت أتمنى لو فعلت شيئًا"

ثم فتحت الباب، والتفتت لي قبل أن تقول:

ـ "هل تريد شيئًا؟"

ـ "شكرًا لك"

وما إن خطت إلى خارج الحجرة، حتى هتفتُ في سرعة وقد تذكرتُ أنه ليس من الذوق أن تذهب دون أن أسألها عن اسمها:

ـ "لم أعرف اسمك بعد"

نظرت لي، وابتسمت وهي تقول:

ـ "(ريم)"

ابتسمت، وأنا أقول:

ـ "شكرًا لك يا (ريم).. أنا (يوسف)"

أومأت برأسها، وعلى شفتيها تلك الابتسامة الهادئة، ثم قالت:

ـ "سوف أدعو الله لوالدتك كثيرًا"

ـ "هذا جل ما أرجوه"

والتفتت هي ذاهبة تخطو مبتعدة في سرعة، حتى غابت عن ناظري.

نظرتُ حولي للمرة المائة، وكأنني أبحث عن أي إشارة لوصول النجدة أو مصدر للنجاة لم أره من قبل، لكن الأمر كان بلا فائدة؛ فلا شيء حولنا سوى الأشجار الشاهقة التي تحيط بنا من كل مكان.

ـ "ترى كيف حال (ماريا) الآن؟"

كان سؤال (فريد) مؤلمًا أكثر من الألم الذي نعانيه.

ـ "لا تقلق يا صديقي، هي بخير، وسوف تعود لها إن شاء الله"

ـ "لا تهمني العودة إلا من أجلها فقط"

كنت أعرف أن (ماريا) قد عانت كثيراَ في حياتها، حيث ترعرعت في ملجأ، وليس لها أحد في الحياة سوى (فريد). قلت محاولًا إلهاءه عن الانشغال بالتفكير:

ـ "لم تخبرني يا (فريد) من قبل، كيف التقيت (ماريا)؟ كيف كان لقاؤكما الأول؟"

ابتسم (فريد) وهو يقول:

ـ "كان ذلك منذ وقت طويل"

ـ "أخبرني عن ذلك اليوم"

بدا في صوته بعض الإشراق، وقد استعاد تلك الذكرى، وبدأ يروي:

ـ "كنت أعمل يومها على دراجتي كالمعتاد، وقد مرت ساعة تقريبَا دون أن أجد زبونًا واحدًا، عندما رأيت شيئًا أثار اهتمامي على جانب الطريق.. كانت فتاة قد وقفت مستندة إلى الجدار، وفي قدمها فردة حذاء بينما ترفع قدمها الحافية عن الأرض، وقد أمسكت بيدها فردة الحذاء الأخرى، وقد انهمكت في محاولة إصلاحها. وفهمت أن كعب الحذاء قد انكسر، وتحاول أن تثبته بشيء ما كي تستطيع المشي.."

ابتسمت وأنا أقول:

ـ "وماذا بعد؟"

ـ "اقتربت منها، ووقفت لثوان لعلها تلحظني وتطلب أن أقلها، كان شعرها الطويل المجعد يخفي ملامحها تقريبَا، ولم يكن يشغلني في الحقيقة أكثر من الأجر الذي سأحصل عليه مقابل توصيلها إلى حيث تشاء"

ثم توقف عن الكلام لحظة، وكأنه يتذوق تلك الذكرى من جديد، قبل أن يتابع:

ـ "لم تنظر لي في بادئ الأمر، وكأنني غير موجود. وأطلت الوقوف حتى شعرت بالملل، وقررت التحرك بحثًا عن مكان آخر للرزق، فأدرت محرك دراجتي وهممت بالذهاب،

وبمجرد أن بدأت بالتحرك، حتى سمعتها تهتف بي أن أنتظر، فتوقفت مكاني، وأسرعت هي لتجلس على الدراجة خلفي، وتضع يدها على كتفي، لا أعرف ما الذي أصابني بمجرد أن لامستني يدها، تيار غير مفهوم سرى في جسدي كله جعلني أشعر أنني انفصلت عن الدنيا للحظة وذهبت إلى الجنة، حتى أن المقود اهتز في يدي لثانية قبل أن أتمالك نفسي من جديد. لم أكن رجلًا سهلًا وكان لي باع طويل مع النساء، وعلى الرغم من أنني لم أكن قد رأيت وجهها بعد، إلا أنني علمت أن هذه الفتاة يجب أن تكون زوجتي"

ضحكت وأنا أقول:

ـ "وهل فاتحتها في الأمر أثناء الطريق؟"

ـ "لا، لقد تشاجرت معي في الطريق"

قلت متعجبَا:

ـ "لماذا؟"

ـ " لأنني لم أسمع الوجهة التي طلبت مني الذهاب إليها جيدًا. كنت مخدرًا ومنطلقًا دون وجهة ما، حتى بدأت في الشجار معي بشأن الطريق"

ـ "لابد أنك كنت لبقًا في الحديث حتى تستطيع السيطرة على غضبها"

ـ "من كان يمكنه السيطرة على غضب (ماريا)!؟ لقد ظلت غاضبة حتى وصلت إلى منزلها، وحاولت استرضاءها بعدم قبول الأجر، لكنها رفضت"

ـ "تركتها تذهب وهي غاضبة إذن.."

ـ "لم يكن هناك أمر آخر يمكنني فعله، لكنني في اليوم التالي انتظرت أمام منزلها منذ الفجر، وقد اشتريت لها وردة حمراء. وما إن خرجت من المنزل حتى أسرعت إليها معتذرًا عما حدث باليوم السابق"

ـ "بعدها بدأت شرارة الحب بينكما؟"

ـ "نعم، بعدها ابتسمت (ماريا)، وابتسمت لي الحياة"

عزيزتي ريم..

لم يكن يومي جيدًا؛ فقد حدث اليوم أمر خارج توقعاتي هذه الأيام، لذا فاجأني بعض الشيء، وأصابني ببعض الاضطراب.

كنت في العمل عندما جاءني اتصال هاتفي من (مصر)، لم يكن رقمًا مسجلًا على هاتفي المحمول، لكنه بدا لي مألوفًا.

كان بالفعل رقمًا كان مسجلًا من قبل، ثم أزلته من هاتفي منذ شهور عدة.. والحقيقة أنه كان مألوفًا إلى الدرجة التي أعتقد أنني تناسيته عامدًا.. كان رقم هاتف (شاهندة).

كم أكره قلبي، وما فعله بي عندما استمعت لصوتها بعد كل هذا الغياب!

كنت أعتقد أنني قد نسيتها منذ وقت طويل ودفنت ذكرياتها في أبعد مكان، لكن يبدو أن الذكريات الأليمة تظل حية بداخلنا لفترة أطول مما نعتقد، وتظل تبحث عن فرصة للعودة من جديد.

كم أكره أن أقص عليكِ ذلك الأمر، لكن ليس لي أحد غيرك يمكنني أن أشكو إليه حماقتي وضعفي.

ينسل صوتها من أذني، ليخترق عقلي وجسدي، ويسلب قدرتي على أن أنهي المكالمة، أو أطلب منها أن تختفي من حياتي للأبد.

لم أكن أدري هل كنت أشتاق إليها، أم كنت أشتاق إلى تلك الأيام الماضية حيث كان كل شيء في حياتي كما أحب!!

لم تكن تعرف أنني خارج (مصر)، لذا تفاجأت عندما أخبرتها بذلك، وسألتني أن كنت قد عدت إلى (الرياض)، فأجبتها بالنفي، وتعمدت ألا أخبرها بمكاني، لا لسبب سوى أنني لم أحب أن تعتقد أن من حقها السؤال.

أخبرتني أنها كانت تريد أن تراني، لكنها لم تكن تعلم أنني قد سافرت، وسألتني إن كنت سأعود قريبًا، فأخبرتها أنني لا أعرف.

قالت لي أنها لم تتزوج من ابن خالتها، وأن خطبتها قد انتهت، وأنها تعرف ما فعلته بي، ولا تريد مني شيئًا في الوقت الحالي سوى أن نصبح أصدقاء. لكنني لم أبدِ انطباعًا أيضًا، ولم أسأل عن سبب الانفصال.

كنت قاسيًا.. أعرف ذلك، لكنها كانت أكثر قسوة فيما فعلت من قبل.

وعندما انتهى الاتصال تساءلت في نفسي إن كان لي حق فيما أفعل، أم أنني كنت من تخلى عنها كما كانت تعتقد من قبل، عندما جاءتني تطلب مني أن أتزوجها دون رغبة أهلها، فرفضت؟

هل كنت مخطئًا عندما أردت أن أحفظ كرامتها وكرامتي؟

ألا أجعلها تترك أهلها وتصبح فتاة جاحدة في عين أهلها وأصبح أنا مجرد سارق!؟

لا أعتقد أنني كنت أقبل هذا أبدًا، ولا أنها كانت لتحتمل هذه الحياة.

هي ضعيفة حقًا، لكن منذ متى كان الضعف سببًا مقبولًا لجرح الآخرين، أو التخلي عن الوعود؟

هل كنت مخطئًا؟

أخبريني إن كان لديكِ رأي آخر، فأنا أثق بك حقًا.

يا للقدر! لقد قفزت إلى ذاكرتي ذكرى بعض آخر مكالمات بيني وبين (شاهندة)، وأول مكالمة بيني وبينك.

يومها كنت أمر بأصعب أيام حياتي، وكنتِ أنتِ أيضًا من يقف بجواري يساعدني على تجاوز الأمر، ويشد من أزري.

ربما لا تذكرين تلك الأيام، لكنني لا أنسى أبدًا مكالمتنا الأولى.

رنين متواصل أعادني من كابوس كنت أقاوم فيه الغرق، فقمت من فراشي متخبطًا أبحث عن هاتفي المحمول وسط ملابسي المبعثرة هنا وهناك.
بصعوبة بالغة وجدته، وأجبت، وأنا ما زلت بين اليقظة والنوم..
ـ "آلو"
قالت في هدوء بذلك الصوت الذي لم يفارق أذني أبدًا طوال الوقت:
ـ "كيف حالك؟"
ـ "(شاهندة)!؟"
ـ "كنت أريد أن أطمئن عليك"
قلت في صوت حاولت أن يبدو جافًا لا يحمل أي مشاعر، ودقات قلبي تتخبط في عدم انتظام:
ـ "شكرًا لك"
قالت في لوم:
ـ "(يوسف)، أنت لا تدرك ما أعانيه، فلا تكن قاسيًا معي"
حاولت أن أمنع نفسي من البوح بما في قلبي والألم يقتلني:
ـ "ماذا تعانين يا (شاهندة)؟"
ـ "الكثير يا (يوسف).. أعاني فقداني لمعنى كل شيء، ومعاملة والدتي لي.. أعاني إجباري على قبول شخص لا أحبه.. بل أعاني ما هو أكثر، أعاني تخيلاتي عن الحياة دونك"
قاطعتها قائلًا في قسوة:
ـ "إجبارك على القبول!؟ أعتقد أنني لم أسمع هذه الكلمة سوى في أفلام الستينات من هذا القرن!!"
ـ "أرجوك لا تسخر مني!"
في اقتضاب أجبت:
ـ "لا عليك"
صمتت لحظات، ثم قالت:
ـ "عندما تشفى والدتك بإذن الله، سوف نجلس معًا ونتحدث"
لم أجب على جملتها، فانتظرت لحظات، ثم أطلقت تنهيدة حارة، وهي تقول:
ـ "أعرف أنك لست في حال جيد لذا لن أطيل عليك الآن.. سوف أحدثك مرة أخرى"

في ذات الاقتضاب قلت:

- "ربما"

- "اهتم بنفسك من أجلي أرجوك"

أغلقت الخط، وقلبي يقطر دمًا في صمت.

قضيت ذلك اليوم في مكتبي أحاول أن أشغل عقلي بالمزيد من العمل، والاتصال بأبي كل ساعة للاطمئنان على صحة أمي، كنت في حال سيئ، لكنني لم أدع ذلك الأمر يؤثر على مهام عملي. وعندما انتهي اليوم اتجهت قاصدًا المستشفى حيث كنت قد اخترت تلك الليلة تحديدًا كي يكون دوري للسهر معها، حتى أكون أول من يراها في اليوم التالي الذي هو يوم الأم، الواحد والعشرون من مارس.

وفي مدخل المستشفى كانت مفاجأة أن أرى (ريم).. واقفة تنتظر ممسكة بحقيبة يدها من الذراع الجلدي الطويل تطوحها كالبندول وقد ذهبت بفكرها بعيدًا.

- "كيف حالك؟"

أفاقت من شرودها على كلماتي، فنظرت لي، واحمرت وجنتاها وهي تبتسم:

- "أنا بخير.. كيف حالك؟"

- "الحمد لله"

- "كيف حال والدتك الآن؟"

هززت رأسي في أسى، وأنا أقول:

- "لا تقدم يذكر"

بدا في عينيها الحزن، وهي تقول:

- "الله أرحم بعباده.. فقط علينا الدعاء"

- "أنتِ على حق"

ثم عدت أحاول الابتسام في مجاملة وأنا أقول:

- "لماذا تقفين هنا هكذا؟"

ابتسمت ثم قالت:

- "أمي تنهي إجراءات خروج خالتي من المستشفى، وأنا في انتظارها"

- "حمدًا لله على سلامتها"

- "شكرًا لك"

لا أدري لِمَ أحسست بشيء من الحزن هذه المرة أنني لن أراها ثانية.
ـ "حسنًا.. هل تريدين شيئًا؟"
ـ "أشكرك"
ـ "حمدًا لله على سلامة خالتك مرة أخرى"
أومأت برأسها، وابتسمت وهي تقول في رقة:
ـ "ودعائي لولدتك بالشفاء"
أومأت لها برأسي محيياَ، ثم التفت كي أذهب، فقالت في تردد:
- "ألم تعد تريد مني تلك الخدمة؟"
أسرعت ألتفت إليها وأنا أقول:
ـ "بالطبع أريد"
فنظرت لي بعينيها الواسعتين، وعلى شفتيها تترقرق ابتسامة هادئة، فقلت متابعًا:
ـ "ولكنها للأسف لم تعد في كامل وعيها هذه الأيام"
ـ "ماذا إذن؟"
ـ "هل يمكنني الحصول على رقم هاتفك إن لم يكن يضايقك الأمر؟"
قالت على الفور:
ـ "بالتأكيد"
ثم أملتني الرقم، فسجلته على هاتفي المحمول، وأعطيتها رقمي كي تعرفني عندما أتصل بها، وابتسمت في رقة وهي تقول:
ـ "هل ستسهر معها الليلة؟"
ـ "نعم"
ـ "يمكنك أن تتصل في أي وقت إذا شعرت أنك تريد أن تتحدث"
ابتسمت لها في امتنان، بينما أقبلت سيدة أنيقة ربما قد تخطت الخمسين بأعوام قليلة، فابتسمت (ريم) وهي تقول تعرفني بالسيدة:
ـ "أمي"
مددت يدي مصافحًا، فتابعت تقدمني إليها:
ـ "أمي، هذا هو (يوسف) الذي حدثتك عنه"
ابتسمت السيدة في حنو وهي تقول:

ـ "كيف حال والدتك الآن؟"

ـ "الحمد لله"

ـ "عليكم جميعًا بالدعاء لها، كذلك لا تنسى الصدقات؛ فهي شفاء للمرضى"

أومأت برأسي وأنا أقول:

ـ "إن شاء الله"

قالت السيدة في ذات الصوت الحنون:

ـ "منذ عرفت وأنا أدعو لها في كل صلاة، كما أدعو لابنتي تمامًا"

ـ "بارك الله فيكِ يا سيدتي، وجزاك عنا خيراً"

ـ "سوف تعود لكم سالمة إن شاء الله، وتعود لكم الابتسامة من جديد، فقط لا تقنط من رحمة الله"

ـ "لا نقنط أبدًا من رحمة الله، ونرجوه في كل لحظة أن يشفيها ويعيدها إلينا:

كنت أجلس إلى جوار فراشها أحاول التخفيف عنها.. تتألم في خفوت، وأناتها تمزق قلبي، وأنا عاجز تمامًا عن عمل أي شيء.

أخذت أربت على كتفها أهدهدها كالأطفال كي تنام، فابتسمت ابتسامة خافتة عاد يقطعها الألم.. حقًا أفتقد ابتسامتك الغالية يا أمي! كانت ابتسامتها هذه كنزًا لم أدرك قيمته إلا متأخرًا جدًا.

فداك نفسي يا أمي! أقولها دومًا وصدقًا..

كانت الساعات الأولى من الليل قد مرت عندما قرر الألم أن يخفف وطأته قليلًا كي تنام.

فقمت أصلي العشاء، وأدعو لها طويلًا، قبل أن أعد لنفسي كوبًا من الشاي كي يساعدني على السهر، ثم أجلس لأشغل نفسي بمتابعة تدفق قطرت المحاليل والعبث بهاتفي المحمول، وبين اللحظة والأخرى أنظر إلى أمي أطمئن أنها لاتزال نائمة لا تحتاج إلى شيء.

كان الليل يمر بطيئًا متثاقلًا يأبى أن ينتهي بهذه البساطة.. وكان اتصال (شاهندة) مازال يترك أثرًا مُرًا في قلبي لا يريد أن ينتهي.

التقطت هاتفي المحمول في سرعة على إثر صوت خافت لاستقبال رسالة.. كانت (ريم) تسألني عن حال أمي وحالي.

كتبت لها رسالة أخبرتها أنها نائمة، وأنني أسهر بجوارها أقاوم النوم، ثم سألتها إن كان لديها فكرة لقضاء ذلك الوقت حتى الصباح.. فعادت تسألني إن كان يمكنها الاتصال بي الآن، فأجبت بالإيجاب، وبعد لحظات قليلة جاءني اتصالها.

ـ "كيف حالك؟"

أجبت في صوت هامس كي لا أوقظ أمي:

ـ "الحمد لله"

ـ "وكيف حال والدتك؟"

ـ "مازالت نائمة الحمد لله"

ـ "ألن تنام أنت إذن لبعض الوقت؟"

ـ "يجب أن أظل ساهرًا؛ فقد تستيقظ أمي فجأة، وتحتاج إلى أي شيء. لم تعد بإمكانها الحركة"

قالت بصوتها الحنون الباسم:

ـ "حسنًا.. تريد أن تقضي الوقت ساهرًا حتى الصباح إذن"

ـ "نعم"

ـ "لا بأس.. سوف أقص عليك قصة أسليك"

ضحكت في خفوت وأنا أقول:

ـ "حقًا؟"

ـ "بالتأكيد، أنا بارعة في الحكي"

ـ "كلي آذن صاغية"

ـ "صلِ على النبي"

ـ "عليه الصلاة والسلام"

ـ "في يوم من الأيام كان هناك ملك يجافيه النوم، وكان يطلب من يروي له الحكايات حتى يغلبه النعاس، ولكن دومًا تنتهي الحكاية قبل أن يغلبه النعاس، فأرسل يطلب من رواة الحكايات قصة لا تنتهي.."

واستمرت (ريم) تحكي واستمعت إليها في صمت، وهي تنوع أداءها وتغير صوتها وكأنما تحكي القصة لطفل، وأنا أبتسم في امتنان وعيناي لا تفارقان أمي النائمة أتأكد أن لا شيء يزعجها.

وانتهت (ريم) من السرد بعد ساعة كاملة، ثم ضحكت في رقة عندما وجدتني مازلت صامتًا، وهي تقول:

- "لقد انتهت القصة، هل نمت؟"

كنت أبتسم في امتنان حقيقي:

- "شكرًا لك يا (ريم)"

عادت تضحك، وهي تقول في مرح:

- "على الرحب"

- "أنا أعني ما أقول. أشكركِ بحق. لقد انتزعتِ مني ابتسامة من القلب وسط هذه الهموم التي أحياها"

- "إذن اتصل بي كلما شعرت بأنك تريد أن تتحدث"

- "سوف أفعل بالتأكيد"

- "اعتن بنفسك وبوالدتك"

- "أنتِ أيضًا"

- "إلى اللقاء"

أنهينا الاتصال، وقمت لأقف بجوار فراش أمي أطمئن أنها بخير، ثم عدت لأجلس من جديد متأملًا إياها.

بطيئًا مر الليل..

وفي الصباح فتحت عينيها الجميلتين.. اقتربت من وجهها أعي مدى وعيها وأنا أقول في حنان:

- "كل عام وأنتِ بخير يا أمي"

أومأت برأسها نصف إيماءة، لم أدر منها إن كانت قد فهمت ما أعنيه أم لا، فعدت أقول موضحًا:

- "اليوم هو يوم الأم.. كل عام وأنتِ بخير"

نظرت لي، ثم عادت تومئ برأسها، وهي تحاول أن تقول في صعوبة:

- "وأنت بخير يا حبيبي"

لكم تمنيت أن تكوني سليمة معافاة في ذلك اليوم يا أمي! أتأمل عينيك وأنا أحضر لك هديتي كعادتي كل عام وأرى السعادة فيهما، أعرف أنها ليست سعادة بالهدية ذاتها،

بقدر ما هي سعادة لأنها هدية مني، أعبر لك بها عن خالص حبي، وسعادتي أنك أنتِ في حياتي وأنك أمي.. نهر الحب الذي لا يجف أبدًا والعطاء الذي لا ينتهي.

ولكنني يومها شق على نفسي أن أحضر لك هدية وأنت في ذلك الحال، فوضعت هديتي ذلك اليوم في يد الله من أجلك؛ لعل الصدقة تكون شفاءك، ونراك بيننا من جديد معافاة بوجهك الحنون الباسم، نضحك سويًا ونتمتم بالشكر لله عندما نذكر تلك الأيام.. وندعو ألا تعود أبدًا من جديد.

بطيئًا يمر الوقت..
نتشاغل بإلهاء أنفسنا بالحديث تارة ونقطع كلامنا تارة أخرى عندما يسيطر علينا التفكير في الوضع الذي نحن فيه ويتلاعب بنا الخوف من النهاية في تلك الغابة.
ويرتعد جسدي من أثر الأمطار والطين الذي يلتصق بي..
تتحرك السحب في السماء قليلًا، فيظهر القمر من بينها، ثم يعود للاختفاء من جديد إذ لا تمنحه السحب الكثيفة فرصة كافية للنظر إلى الأرض.
ـ "هل تعلم أن القمر يلعب دورًا غير عادي في الحياة؟"
قلتها محاولًا قطع السكون؛ عل ذلك يخفف من التوتر والرجفة التي تملكت جسدي فجأة دون سبب، فقال (فريد) متسائلًا:
ـ "ماذا تعني؟"
ـ "في الحب يتأمله المحبون، ويتغزلون به، بينما تتراءى لهم وجوه حبيباتهم فيه، وفي الغضب والجنون يقولون أن القمر يؤثر في الحالة المزاجية للإنسان، وفي بعض الثقافات يحذرون من الإطالة في تأمل القمر حتى لا يتسبب للمرء في الجنون، وفي المنافسة وفرض القوة كان وصول الأمريكان إلى القمر قبل الروس هدفًا اجتهدوا فيه سنوات طويلة، وفي أساطير الشعوب تحاك حول القمر قصص وأساطير لا حصر لها على مر الزمان"
ـ "أنت على حق، وخاصة بشأن الأساطير. سمعت الكثير من القصص عن القمر عندما كنت طفلًا"
ـ "نعم، أساطير القمر في كل الثقافات، من الثقافة الفرعونية القديمة والأفارقة حتى الصين والهند والأمريكان الأصليين واليونان، وكذلك الفايكنج أيضًا كانت لديهم أسطورة عند كسوف القمر، وهي أن اثنين من الذئاب يرغبان في التهام القمر، فيسرعون لإنقاذه بصنع كثير من الضوضاء"
لابد أن (فريد) ابتسم وهو يقول:
ـ "بعض الدول الأفريقية لديها معتقد قريب الشبه في وقت الخسوف"
ـ "هناك أيضًا بعض الأساطير الحديثة، هل سمعت عن المذؤوبين؟"
ـ "المذؤوبون!؟"
ـ "هؤلاء الرجال الذين يتحولون إلى ذئاب عند اكتمال القمر"

ـ "نعم، سمعت بالتأكيد مثل تلك الخرافات"

قلت مازحًا:

ـ "خرافات!؟ لم أعتقد أنني سأسمع تلك الكلمة هنا في (أوغندا)، حيث أصل خرافات السحر الأسود!"

قال (فريد) مؤكدًا، وكأنه يدافع عن الأمر:

ـ "السحر هنا ليس خرافات.. لقد رأيت بنفسي أمورًا لا يمكنك تخيلها"

ـ "أنا لا أستطيع تخيل ما أنا فيه الآن"

كانت النيران المشتعلة في السيارة على وشك أن تخبو، ولم يتبقَ سوى النيران المشتعلة في الإطارات، فنظر لي (فريد) والإجهاد يبدو على ملامحه وهو يقول:

ـ "ماذا سنفعل الآن؟ تكاد النيران أن تنتهي قريبًا!"

نظرت إلى إطارات السيارة المشتعلة، وأنا أقول في ثقة:

ـ "لا تقلق؛ ربما تستمر الإطارات المطاطية في الاشتعال لساعات طويلة بعد"

أومأ (فريد) برأسه مصدقًا، وهو يقول:

ـ "نتمنى أن تستمر حتى الصباح"

قمت من مكاني، ثم بدأت أجمع بعض الأغصان المحطمة وأنا أقول:

ـ "سوف نقوم بتذكيتها.. الأغصان مبللة، لكن أعتقد أنها قد تساهم في استمرار الدخان على الرغم من ذلك"

فكر (فريد) قليلًا، ثم قال كأنه تذكر شيئًا:

ـ "لم يعد لدينا جهاز لتحديد المواقع مع احتراق السيارة.. لكن أين البوصلة التي كنت تستخدمها لتحديد اتجاهك في الصلاة؟"

ألقيت الأغصان التي كانت بيدي فوق الجزء المشتعل من السيارة، فبدأت بإصدار أصوات طقطقة مكتوم نتيجة البلل، ثم نظرت إلى (فريد) متسائلًا:

ـ "هل يمكنك تحديد اتجاه الخروج من الغابة؟؟"

هز كتفيه وهو يقول:

ـ "ربما، هل ما زلت تملك تلك البوصلة؟"

أسرعت أمسك بحقيبتي أبحث في جيوبها الصغيرة، حتى أخرجت البوصلة، وأعطيتها له، فوضعها أمامه على الأرض، حتى استقرت، ثم نظر حوله وأشار إلى اتجاه ما قبل أن يقول:

ـ "سوف نتجه من هنا مباشرة إن كان ما أعتقده صحيحًا"

قلت مشجعًا:

ـ "أمر جيد على كل حال، إن لم تصل إلينا النجدة قبل الصباح سيكون علينا أن نتحرك من هذا المكان"

صوت حركة وسط الأحراش جعلنا ننتبه، وأشار لي (فريد) بالصمت حتى نسمع جيدًا.. أصغينا السمع، كانت هناك أصوات تأتي من الغابة تبدو واضحة بشكل ما في هذا الصمت. تحركت نحو النيران أقبض بكلتا يدي على غصن مشتعل الطرف متحفزاً لعله أحد الحيوانات المفترسة، فأشار لي (فريد) وهو يبتلع ريقه في صعوبة ألا أتحرك حتى ندرك اتجاه الصوت.

كان صوت الحركة وسط الغابة مازال خافتًا، مما يوحي ببعد المسافة، لكنه كان جليًا أنه حقيقي، ونظرت إلى (فريد) متسائلًا في قلق:

ـ "هل هي الذئاب من جديد؟"

أشار لي (فريد) كي أخفض صوتي، وهو يقول بينما يحاول الإنصات:

ـ "يبدو الصوت كأنه قطيع من الحيوانات، لكنه مازال على مسافة بعيدة"

ـ "ماذا إذن؟"

ـ "هل يمكنك تسلق أحد تلك الأشجار؟"

نظرت إلى الأشجار أحاول تقييم قدرتي على ذلك قبل أن أقول:

ـ "أعتقد ذلك"

عاد يقول في سرعة:

ـ "اصعد رجاءً إلى أعلى ما يمكنك التسلق دون أن تؤذي نفسك، وانظر إلى اتجاه الصوت"

أومأ برأسي مجيبًا، ثم أسرعت نحو حقيبتي فالتقطت النظارة المعظمة أعلقها في رقبتي، وتلفتُّ أنظر حولي أختار شجرة يمكنني تسلقها، واقتربت من واحدة ذات فروع قريبة فتشبثت بها ثم بدأت التسلق تدريجيًا، وبعد كل خطوة إضافية أرتفع بها عن الأرض

كنت أنظر في الأفق أحاول رؤية مصدر الصوت.. كنتُ أري ضوءَا يأتي من مسافة بعيدة، بدا أنها مشاعل ما، وبدا واضحًا أن هناك قافلة تقترب قد تكون قافلة إنقاذ.
رفعت النظارة المعظمة ونظرت من خلالها، كان الظلامِ حالكًا لكن المشاعل التي يحملونها كانت تضيء المكان حولهم، ثمانية رجال تقريبًا يحملون المشاعل.. دققت النظر فيهم.. كانوا يبدون من القبائل البدائية بشكل ما، يرتدون تلك الملابس الإفريقية القديمة المصنوعة من قطع من القماش الملون الذي يلتف حول الخاصرة، والكثير من الحلي العاجية، ونظرت إلى (فريد) هاتفًا في سعادة:

ـ "إنهم نجدة! لقد نجونا يا (فريد)!"

ـ "حقًا!؟"

قالها، وهو يصفق بيديه في جزل، بينما عدت أقول، وأنا أهبط أغصان الشجرة في سرعة:

ـ "يبدو أنهم أحد القبائل التي تحيا في الغابة، وقد استقبلت إشارتنا للنجدة"

شحب وجه (فريد) فجأة، وهو يسأل:

ـ "كيف عرفت أنهم قبائل بدائية!؟"

ـ "يرتدون تلك الحلي الغريبة والأقمشة الملونة"

تلفت (فريد) حوله بحثًا عن شيء ما، وهو يقول في خوف:

ـ "علينا أن نهرب"

قلت متعجبًا، وأنا لا أستطيع الفهم:

ـ "لماذا؟"

تسارعت أنفاسه، وهو يقول في توتر:

ـ "القبائل هنا خطيرة للغاية"

ـ "ماذا تعني؟"

ـ "ليس الوقت مناسبًا للكلام الآن. لن ينقذنا أحدهم هنا. دعنا نختبئ في مكان ما"

ونظرت حولي أبحث عن مكان يصلح للاختباء، وأنا لا أفهم ما الذي يجري ولا ما الذي يمكن أن يحدث لنا بعد ذلك.

عزيزتي ريم..

أسعدني أنكِ شاركتني الرأي وأيدتني فيما كنت أري. لقد محوت كل ما لدي من ذكريات مع (شاهندة) بالفعل منذ وقت طويل. كل شيء بالتأكيد، الرسائل المتبادلة وكل صورة كنت أحتفظ بها لها، وحتى حساب (الفيسبوك) الذي كنت أتواصل معها من خلاله، ويحمل ذكرياتنا معًا، أغلقته نهائيًا بلا رجعة.

لا أنكر أنها مازالت تجول بخاطري من وقت إلى آخر، وأشعر بالشفقة عليها ويراودني شعور أنني أتحمل جزءًا من الذنب فيما فعلت، لكنه أمر لا حيلة لي فيه ولا قدرة عليه، ولا أعتقد أنني سأشفى منه نهائيًا إلا بمرور الزمن ككل شيء في الحياة، وإن كنت أتمنى ألا تكون أحزاني مثل نقوش المعابد، تظل حية بقلبي ما دمت حيًا.

دعنا من ذلك الأمر، ودعيني أخبرك شيئًا على ذكر المعابد سوف يضحكك بعد تلك الكآبة التي ملأت رسائلي في الأيام الماضية.

اليوم أقلني إلى الفندق أحد موظفي الجودة في الشركة؛ إذ كان السائق في مهمة ما عندما انتهى يوم العمل، رجل أوغندي لطيف اسمه (بينون) عرض عليّ توصيلي إلى الفندق في طريقه ، ويبدو أنه كان شغوفًا بالمعرفة عن (مصر) واستغل الفرصة ليسألني طوال الطريق عن الحياة لدينا وعن طبيعة الشعب، كان مبتسمًا مستمتعًا بما كنت أقول كطفل يستمع إلى حكاية مشوقة، وأخبرني كيف أعد من ضمن رحلاته المستقبلية رحلة إلى (مصر)، ثم سألني عن اسم الملك الحالي، فأخبرته أننا لم نعد دولة ملكية وأننا جمهورية مثل (أوغندا)، فقال لي أن لديهم دولة جمهورية، لكن مازال الملك موجودًا هو وأسرته وإن كان وجوده في الدولة شرفيًا فقط، فأخبرته أن الملك عندنا قد رحل عن البلاد منذ سنوات طويلة بعد ثورة قام بها ضباط من الجيش في الخمسينات، فتعجب قليلًا ثم سألني عمن يملك الأهرامات في الوقت الحالي إذن! لم أفهم السؤال في البداية ثم بدأت باستيعاب الأمر.. فسألته عن أي ملك يتحدث؟ فقال إنه يقصد الملك الفرعون!

هل تصدقين هذا!؟ كان يعتقد أن الفراعنة مازالوا يحكمون البلاد، وأنه مازال لدينا ملكًا من سلالة الملك الفرعون!!

العجيب أنني عرفت بعد ذلك أن معظم الشعب الأوغندي لا يعرف عن (مصر) بقدر ما يعرف عن (إسرائيل)، وللأسف يحمل بعضهم أفكارًا سلبية عنا دون سبب. لقد أفلح

الإسرائيليون في أداء دورهم هناك، ولم نفلح نحن أبناء نفس القارة في صنع بعض ما قاموا به.

كدت أنسى أن أخبرك أن مهمة عملي كادت أن تنتهي قريباَ، وربما أستمع إلى نصيحتك بخوض رحلة ما في غابات (أوغندا)، وإن كنت لا أفكر الآن سوى في إنهاء العمل والعودة؛ وخاصة أنني أعاني من إحساس شديد بالافتقاد. أتمنى ألا تكون تلك المشاعر الغريبة التي تملأ قلبي هي نوع من الاكتئاب. سأحاول المقاومة لعلي لا أقع مجدداً في تلك المصيدة.

سوف أحصل الآن على تمشية قصيرة في حديقة الفندق، ثم أعود لاستكمال الكتابة؛ إذ أتمنى أن أنتهي من كتابة المذكرات عن تلك الفترة كاملة قبل عودتي إلى القاهرة.

كنت أسير يومها عائدًا إلى المنزل أترنح كالنائم بعد أن وصل أخي ليحل محلي في رعاية أمي.

وفي مرآة المصعد رأيت وجهي وكأنني أراه للمرة الأولى.. كانت ملامحي قد تبدلت بشكل ملحوظ حتى صرت مثالًا حيَا للحزن.

وعندما دلفت إلى المنزل كانت شقيقتي هناك، جالسة في حجرتها تتصفح كتابًا، فأقبلت نحوي عندما رأتني.. بصعوبة حاولت الابتسام وأنا أسألها عن أخبار دراستها، فأجابتني بـ(الحمد لله)، ثم سألتني عن أمي، فأخبرتها أنها بخير وأن العلاج مستمر.

كانت شقيقتي لاتزال في عامها الأول بالجامعة، وهي الوحيدة التي تكاد لا تدري حقيقة ما يحدث لأمي، وكنا نحرص على ذلك بشدة حتى لا يصبح قلقنا مضاعفًا، خاصة وأننا نكاد نتركها طوال النهار وحيدة بين محاضراتها في الجامعة وتواجدها بالمنزل بمفردها.

ثم عادت تسألني إن كنت أريد أن تعد لي شيئًا من الطعام، فأجبتها بالنفي، فعادت تلح تقلد أمي في اهتمامها وإصرارها على ألا نهمل في صحتنا، فأخبرتها أنني سأفعل ولكن بعد أن أستيقظ من النوم.

ومن بين النوم المتقطع والكوابيس المفزعة، انتزعتني إلى الحياة حركة خفيفة في حجرتي ففتحت عيني أنظر في ذعر.

كان أبي يبحث عن كتاب ما في مكتبته الموجودة في حجرتي.. وبعينين نصف مفتوحتين رأيته يحمل مرجعًا طبيَا بين يديه يقلب فيه.

وعلى كرسي في طرف الحجرة جلس يقلب صفحات الكتاب، ويتفحص الأشعة والتحاليل الكثيرة التي أجريت لأمي طوال تلك الفترة في توتر.. دقائق طويلة مرت قبل أن يقوم ليضع الكتاب مكانه ويخرج من الحجرة، ثم بعد لحظات رأيته يعود مرة أخرى ليقلب في الأشعة من جديد.. كنت أشعر بالحزن من أجله هو الآخر.

كان حائرًا، يطل الحزن من عينيه دون هوادة.. ربما لم أره يومًا مثلما رأيته تلك الأيام..

وأغمضت عيني وأنا أتمتم بالدعاء.. أدعو الله لأمي أن يشفيها ويخفف عنها الآلام، وأدعو لأبي أن يمنحه الله القوة والصحة والعمر المديد.

ثم عدت للنوم من جديد، قبل أن أستيقظ مرة أخرى غارقًا في العرق البارد على صوت رنين هاتفي المحمول. كان الظلام قد حل، ووسط الظلام مددت يدي أتحسس موضع

الهاتف حتى وجدته، ونظرت مسرعًا إلى رقم المتصل وقلبي يخفق في اضطراب.. كان رقم هاتف أخي.

وفي سرعة بدأ عقلي يستعيد توازنه.. كان أخي مقيمًا هذه الليلة مع أمي، ولا شيء يدعوه للاتصال إلا خطب جسيم، وازدادت خفقات قلبي اضطرابًا وأنا أجيب في هلع:

ـ "(أحمد)، ماذا هنالك؟"

ـ "دعني أحدث أبي، هاتفه لا يجيب"

كانت محركات قلبي قد وصلت إلى أقصي درجات الإنهاك:

ـ "هل أمي بخير؟؟"

ـ "ليست في حال جيد.. تتألم بشدة ولا تستطيع التنفس.. أخبر أبي أن يأتي"

ـ "انتظر!"

قمت أتخبط في الظلام، أسرع نحو حجرة أبي لأوقظه وأعطيه الهاتف.. يضع أبي الهاتف على أذنه وعيناه تنطقان ذعرًا:

ـ "ماذا حدث؟"

مزيد من ضربات القلب المنهك أسمعها تطن في رأسي، وأبي يصمت للحظات يستمع إلى ما يقوله أخي، ثم يقول في توتر:

ـ "اطلب لها الطبيب، وسوف أكون عندك حالًا"

ثم ينهي الاتصال..

لم أدرك ماذا حدث تحديدًا..

كل ما أذكر أنني عدت أتخبط حتى فراشي لأرتمي عليه في إنهاك..

كان قلبي يكاد يحترق إنهاكًا من فرط الاضطراب، وألم ممض يشق جانب صدري..

بينما استيقظت شقيقتي فزعة، وسمعتها تهرول نحو حجرة أبي تسأله عما يحدث، فيجيبها بأنه لا شيء، ويطلب منها الذهاب للنوم بينما أسمع صرير باب صوان ملابسه وهو يفتح.. كان كل هذا وأنا أترنح بين اليقظة والغياب من فرط ألم قلبي.

وبعد فترة لا أدري كم هي كان باب الشقة يفتح وصوت شقيقتي تطلب من أبي في توسل الانتظار حتى تذهب معه.

تحاملت على نفسي، ووقفت جاهدًا حتى أطلب منه أن ينتظرني كي أرافقه، فدارت بي الحجرة وسقطت على الأرض لأغرق في إغماءة لم أفق منها إلا بعد ساعة على الأقل.

كان الألم لا يزال يقتلني، وخدر يشل جسدي كله، حتى شعرت أنها ربما كانت نهايتي.
جاهدت كي أقوم لأضع جسدي على الفراش فلم أستطع.. كان جسدي كله يئن من الألم، وعدت لأغيب عن الوعي فترة أخرى لا أدري كم استغرقت من الزمن.
وعندما استيقظت قمت في وهن، واتصلت بهاتف أخي، وأنا أتمتم بالدعاء أخشى أن أسمع شيئًا يصدمني، كان قلبي في تلك اللحظات لا يحتمل حقًا.
ـ "كيف حال أمي؟"
ـ "هي بخير والحمد لله.. كانت تشعر بضيق تنفس ورفضت وضع قناع (الأكسجين)"
كنت أكاد أبكي وقد اطمأننت أن ما كنت أخشى حدوثه تلك الليلة لم يحدث.
ـ "دعني أحدث أبي الآن"
ـ "حسنًا"
وبعد لحظة رد عليّ أبي، فطمأنني على صحة أمي، وأخبرته أنني سأكون معهم في المساء فطلب مني أن أستريح تلك الليلة، حتى أسهر معها غدًا، ثم أنهينا المكالمة.
كان جسدي كله ينتفض..
الألم الحاد في قلبي، واختناقي بالرغبة في البكاء يكاد يمزق صدري، لكنني لم أصبر على الانتظار.
انطلقت أقطع ممرات المستشفى في سرعة متجهًا إلى حيث حجرة أمي وقلبي يخفق في اضطراب.
وهناك كانت أمي في شبه غيبوبة، تنظر بعينيها نصف المغلقتين في شرود لا تدري ما حولها، ولا تستطيع البوح سوى بذلك الأنين الواهن الذي ينبعث من بين شفتيها.
كان أبي وإخوتي وخالتي هناك يجلسون حولها في صمت وقد أثقلهم جميعًا الهم والخوف.. ونظر لي أبي قائلًا في خفوت:
ـ "ألم أطلب منك أن تستريح اليوم!؟"
اقتربت من أمي أمرر يدي في حنو على كتفها محاولًا ألا يري أحدهم الدمع في عيني:
ـ "أردت أن أطمئن عليها"
قالت خالتي في إشفاق، وصوتها يقطر حزنا لا تملك إخفاءه:
ـ "هي بخير يا حبيبي، اطمئن"

قام أبي، ثم خرج من الحجرة دون أن يقول شيئًا، فانتظرت لحظات، ثم خرجت وراءه لألحق به في الردهة.. كان واقفًا يدخن سيجارة في عصبية وقد بدت في عينيه نظرة لم أرها من قبل أثارت في قلبي الخوف.

ـ "كيف هي؟"

قلتها في توتر، وأنا أنظر إليه أتمنى بصيصًا من الأمل يصدر من بين شفتيه.

ـ "ليست بخير"

قالها وصمت.. كلمتان ألقاهما، وكأنما ليس هناك ما يقال..

مرت دقائق طويلة من الصمت قبل أن يطفئ السيجارة، ويلقيها في سلة المهملات، ثم يقول:

ـ "سوف أذهب لأرى الطبيب"

قلت في الفور:

ـ "سوف أذهب معك"

ـ " لا! ابق معهم. سوف أحضر الطبيب كي يجد لها شيئًا يخفف الألم"

ودون أن ينتظر ردًا ذهب مبتعدًا، بينما عدت لأجد أمي مازالت تتألم، وخالتي بجوارها تمسح جسدها بيدها، وتتمتم ببعض آيات القرآن، ونظرت لي بعينيها الدامعتين في قلق وهي تقول:

ـ "هل هناك شيء؟"

هززت رأسي نفيَا..

ـ "لا"

ـ "أين ذهب أبوك؟"

ـ "سوف يحضر لها الطبيب"

ربتت على كتف أمي مشجعة، ثم مدت يدها لتحضر كوب العصير من على المنضدة، وتقربه من فم أمي في رفق، وهي تقول:

ـ "اشربي شيئًا يا حبيبتي"

زمت أمي شفتيها، وهزت رأسها في ضعف، فأعطتني خالتي كوب العصير وهي تقول محاولة محايلتها.

ـ "(يوسف) حبيبك سوف يسقيك.. أنتِ تحبينه كثيراَ، أليس كذلك؟ لا أدري لِمَ تحبك أنت بالذات بهذه الطريقة"

حاولت أن أسقيها، فتناولت قطرة صغيرة، ثم بدا الألم على وجهها، وأبعدت فمها عن الكوب، فوضعته جانباَ وقد أشفقت عليها.

وبعد لحظات دخل أبي وعلى وجهه علامات الغضب قبل أن يقول:

ـ "اتصل لي بالطبيب على هاتفه المحمول!"

بحثت عن الرقم، ثم اتصلت به، وأعطيت الهاتف لأبي، فأمسك بالهاتف، وخرج من الحجرة، وخرجت وراءه.

ـ "دكتور (أحمد).. أهلا بك.. أنا بخير.. لا.. زوجتي تتألم بشكل لا يحتمل، وليس من المنطق أن ننتظر كل هذا الوقت كي نجد طبيباَ يكتب لها شيئًا يخفف الألم.. لا لم يأت أحد من الأطباء، ولا معنى لأن يأتي أحدهم ليراها، ثم يخرج كما جاء"

كان أبي يتكلم في غضب، وقد بدأ يفقد أعصابه.

ـ "حسنًا.. أرسل طبيباَ الآن ليعطيها شيئًا.. إن كان مقدرًا ألا تشرق عليها الشمس، فلتقضي ليلتها دون ألم"

أنهى أبي الاتصال، وأعطاني الهاتف، ونظرت له في حيرة، وإن لم أجسر على السؤال..

كان كلامه يحمل معان مخيفة، وكان الحزن قد تجسد يطل من خلف عينيه..

كانت الدقائق تمر في بطء دون أن يظهر الطبيب، وعدت أنظر لأبي أسأله في توتر:

ـ "هل أطلب لك الطبيب مرة أخرى؟"

هز رأسه في يأس، وهو يجيب:

ـ "لا"

ثم صمت لحظة أخرى قبل أن يقول:

ـ "اتصل بخاليك (فاروق) و(حسن) وأبلغهما أن أمك في حال سيء، وأنها سألت عنهما اليوم عندما أفاقت، وطلبت أن تراهما"

ـ "حسنًا"

وطلبت رقم خالي (حسن)، وأبلغته ما قال أبي فأخبرني أنهما في الطريق إلى المستشفى، ثم عدت مسرعًا إلى الحجرة لأنظر إلى وجه أمي.

لم أكن أستطيع ان أصدق ما يجري.. ترى هل يمكنني الحياة من دونها؟

كل ما أعرف أنني كنت أحيا لأنها هناك.. أعمل وأنجح كي تبتهج.. وأنثر الحب كي تعلم أن البذرة التي غرستها يومًا قد أثمرت.

من أجلك في ذلك اليوم يا أمي تمنيت لو أستطيع أن أفديك بنفسي.

كنت قد نذرت لله نذرًا من قبل إن شفاكِ لأقربن قربانًا كبيرًا أطعم به الفقراء والمساكين، ولكنني في ذلك اليوم تمنيت لو أن للإنسان أن يجعل نفسه قربانًا، فداءً لمن يحب.

في تلك الليلة الباردة خرجت من المستشفى أسير لا أدري إلى أين.

وفي أحد المقاهي على النيل جلست وحيدًا شارد الذهن دامع العينين.. تطوح الرياح الباردة مفارش المناضد حولي، وتدفع الجالسين للانسحاب رويدًا إلى ديارهم هربًا من ذلك الطقس، وأنا في مكاني أشاهد ما حولي بعينين زائغتين، وكأنني لست من هذا العالم.

ربما مرت دقائق طويلة من الشرود قبل أن ينتزعني رنين هاتفي المحمول من ذلك الأمر، فأسرعت أجيب دون أن أنظر إلى رقم المتصل.. كانت (ريم)..

ـ "لم تتصل بي فأردت أن أطمئن. هل أنت بخير؟"

ـ "أنا بخير يا (ريم)"

عادت تقول في صوت يرتجف قلقًا:

ـ "كيف حال والدتك؟"

ـ "ليست في حال جيد"

قالت في تردد:

ـ "أليس هناك علاج بعد؟"

ضممت ياقة قميصي من البرد، وأنا أقول:

ـ "لقد أتى خالي اليوم إلى المستشفى، وأخبرنا أنه أجرى بعض اتصالاته، وسوف يأتي بعد غد أطباء كبار متخصصون في الأورام لفحص أمي"

ـ "شفاها الله من كل سوء"

قالتها في دعاء صادق، ثم عادت تقول في لهفة:

ـ "(يوسف)، أريد ان أطلب منك شيئًا"

ـ "أي شيء؟"

ـ "أريد أن أذهب لزيارة والدتك"

قلت وأنا أحاول التماسك كي لا تنهار دموعي:

ـ "لم تعد تدرك شيئًا، وحالتها سيئة للغاية.. أمي كادت تموت بالأمس يا (ريم)"

قالت في صوت متهدج:

ـ "لا تقل هذا.. سوف تشفى بإذن الله"

هززت رأسي في يأس وانطلقت دموعي لتسيل على خدي في صمت..

ـ "(يوسف)!"

قالتها، ثم صمتت إذ لم تجد ما تقوله، ثم سمعت صوتها تتهانف بالبكاء..

ـ "سوف يشفيها الله لكم بإذن الله.. صدقني.. الله أرحم بعباده"

كنت صامتًا أعض على شفتي في قوة حتى أكاد أدميها كي لا أنهار باكيًا، ودموعي تسيل دون توقف، وقد تركت لها العنان.

وكانت هي تحاول أن تتكلم من بين بكائها، فتخرج كلماتها متقطعة لا تكاد تسمع..

لا أدري ساعتها كم مر من الزمن أو ماذا كانت تقول.. لكنني أعرف أن يومها تملكني ذلك الشعور.. بأن النهاية قد دنت.. وأن أمي الحبيبة موشكة على الرحيل.

أسرعت لمساعدة (فريد) في الجلوس على المحفة التي صنعتها، ثم ربطت جسده إليها مستخدمًا حزامي الجلدي، وبدأت محاولة جرها والتحرك مبتعدًا، كان الأمر شاقًا في البداية بسبب الحشائش وأغصان الأشجار التي تملأ الأرض، ثم أتقنت بعد قليل طريقة التعامل مع الأمر وبدأت المحفة تنزلق تدريجيًا وأخذ (فريد) يساعدني مستخدمًا يديه في دفع المحفة للتحرك.

كنا نحاول الابتعاد في سرعة ونحن لا ندري كيف نتجه، فقط كنا نسعى للهروب من ذلك المكان حتى لا نقع في أيدي تلك القبائل الأوغندية.. قلت وأنا ألهث من التعب:

ـ "لم أفهم بعد لماذا تصر على الهرب، أليس من الممكن أنهم قد أقبلوا لنجدتنا؟"

قال وهو يدفع الأرض بيديه كي يزيد من سرعة تحركنا:

ـ "أنت لا تعرف شيئا صدقني في هذا"

قلت في عصبية:

ـ "أخبرني إذن"

ـ "لم يعد يحيا في قلب الغابات الموحشة حتى الآن سوى أخطر القبائل، وهؤلاء لن يعتبروا وجودك مرحبًا به"

ـ "ما الذي يمكن أن يحدث إذن إن وقعنا في أيديهم"

ارتعد صوته من هول الفكرة، وهو يقول:

ـ "أقل ما يمكن أن يحدث لنا إن وقعنا في أيديهم هو أن نُقتل بدعوى تدنيس أرض مقدسة، وربما أشدها أن نؤكل أحياء"

رددت كلمته في ذهول:

ـ "نؤكل أحياء!؟"

ـ "مازالت تلك القبائل تقوم بطقوس السحر والطلاسم وأكل لحوم البشر"

ـ "علينا أن نسرع إذن!"

قلتها وأنا أجذب المحفة بكل ما استطعت من قوة وأهرول بها مبتعدًا إلى أي مكان.

كان الصوت مازال يقترب، وأنا أحاول بكل طاقتي أن أبتعد، لكن ثقل وزن المحفة والأرض الطينية كان يزيد من صعوبة الأمر. كنت أخشى حقًا تلك الفكرة المرعبة التي ذكرها (فريد)، وعلى الرغم من الألم الشديد الذي كان يعتري جسدي كله لم أتوقف عن المحاولة. لكنني تذكرت شيئًا فعدت أقول:

ـ "في أفلام الغرب الأمريكي تجد دائما لدي قبائل الهنود الحمر قصاصين للأثر، هل هؤلاء كذلك؟"
ـ "لا أعرف حقًا، لكن دعنا نتمنى العكس"
ـ "حسنًا"
كنت أتمنى في تلك اللحظة ألا نقع في أيدي هؤلاء، وألا يكون لديهم قصاصين للأثر، وألا نقع في براثن حيوان مفترس أو نطأ جحر حية.. كنت أتمنى أن ينتهي ذلك الأمر بأي شكل كان.
دقائق طويلة مرت قبل أن أتوقف عن الهرولة، وأترك المحفة، ثم أسقط على ركبتي إلى جوارها لاهثًا من التعب، ونظرت حولي أتأكد أننا ابتعدنا مسافة كافية.. لم أكن أرى من مكاني سوى بصيص خافت للضوء الصادر من اشتعال السيارة مما أوحى لي أننا ابتعدنا مسافة لا بأس بها. هم (فريد) بالكلام فأشرت له أن يصمت وأخذت أنصت إلى الأصوات.. لم يكن هناك ما يشير إلى اقترابهم منا.
ـ "يبدو أنهم لم يتبعونا يا (فريد)"
أخذ يصغي السمع يتأكد من الأمر قبل أن يقول:
ـ "يبدو ذلك، لكن علينا الاستمرار في التحرك"
ـ "دعنا إذن نتحرك في الاتجاه الصحيح للخروج من الغابة، بدلًا من السير دون وجهة، أين البوصلة؟"
فغر (فريد) فاهه، وحارت عيناه للحظة قبل أن يقول:
ـ "لا أدري"
قلت في غيظ:
ـ "لقد أعطيتها لك يا (فريد)، وكنت تحدد الاتجاه الذي سنتحرك إليه عن طريقها"
ـ "يبدو أننا نسيناها هناك"
نظرت في اتجاه الدخان المتصاعد، وأنا أحاول تمالك أعصابي قائلًا:
ـ "هل يمكنك تحديد الاتجاه من هنا اعتمادًا على ذاكرتك"
نظر إلى اتجاه الدخان يتأكد من موقع السيارة، قبل أن يهز رأسه موافقًا، وهو يقول:
ـ "يمكنني ذلك"
ثم نظر إلى الغابة عن يساره، وهو يقول:

ـ "سوف نتحرك في هذا الاتجاه"

ثم عاد ينظر لي، وفي عينيه إحساس بالذنب قبل أن يقول:

ـ "لكننا بدون البوصلة سوف نضل من جديد"

نظرت إلى الدخان المتصاعد لحظات، ثم قلت:

ـ "لا بأس.. سوف أذهب لإحضار البوصلة"

قال في ذعر:

ـ "بالتأكيد لا يمكنك ذلك، ربما هم هناك الآن"

ـ "ليس هناك حل آخر.. إما الحصول على البوصلة أو التيه في تلك الغابة بلا أمل في النجاة"

ـ "ولكن...

قاطعته في سرعة:

ـ "سوف أتركك لبعض الوقت. حاول أن تعتني بنفسك حتى عودتي"

ثم دون أن أنتظر ردًا انطلقت أعدو إلى حيث كنا في سرعة.

عزيزتي ريم..

أسعدني أنكِ زرتِ أسرتي. كانت مفاجأة بالنسبة لي، ولم أفهم سبب عدم إخباري بأمر تلك الزيارة إلا عندما فكرت قليلًا، وعرفت أنها لم تكن لتصبح مفاجأة لو كنتِ قد أفصحتِ عنها.

لقد تحدثت إلى والدي هاتفيًا هذا الصباح، وأخبرني عن زيارتك، وبدا أنه كان سعيدًا للغاية بوجودك. شقيقتي كذلك امتدحتك كثيرًا. والعجيب في الأمر أنها لم تفعل الأمر المعتاد وتسألني إن كنت أنوي الزواج بك.

سأخبرك الحقيقة، لقد قالت أنكِ أفضل من أن أفكر في الزواج منك، وأفاضت في وصف محاسنك.. كم هي قاسية تلك الفتاة على شقيقها الأكبر!

لقد أسهب والدي أيضًا في وصف زيارتك والحوار الذي دار بينكما، وذكر في الحوار عرضًا شيئًا ما عن استعدادك للسفر. لم أسأله عن تفاصيل الأمر كي لا يلحظ الانزعاج الذي شعرت به عندما سمعت تلك الجملة. هل ستسافرين حقًا؟ وإلى أين؟ وكيف لم أعرف بهذا الأمر إلى الآن؟ لا تعتقدي أن هذا يمكن أن يصبح بالنسبة لي من باب المفاجآت.

كنت سأتخلى عن الاتفاق بيننا وأتصل بك، لكنني قاومت ذلك الأمر كي تعرفي أنني أحافظ على الاتفاق ولن أفعل شيئًا لا تريدينه أو أيًا كان مبتغاك، لكن رجاءً لا تتأخري في الإجابة؛ فمازلت منشغلًا بالأمر منذ تلك المكالمة. لم أفعل شيئًا اليوم بعد العمل؛ فقد عدت إلى الفندق مباشرة لأكتب لك.

في انتظار ردك. سأكمل كتابة المذكرات لأشغل نفسي قليلًا..

تحياتي ومحبتي الدائمة..

وصلت المنزل في ساعة متأخرة من الليل. كان المنزل خاليًا تقريبًا؛ فأبي وأخي يبيتان الليلة في المستشفى مع أمي، وشقيقتي قد دفنت أحزانها في النوم مبكرًا.

توضأت، وصليت العشاء، ثم استسلمت لنوم لم أستيقظ منه إلا على صوت المؤذن ينادي لصلاة الجمعة.

قمت في وهن، فاغتسلت، وذهبت للصلاة، ثم عدت إلى المنزل لأجبر نفسي على تناول بعض الطعام، ثم اتجهت إلى المستشفى.

عندما وصلت انصرف أبي وأخي كي يحصلا على قسط من النوم بدورهما، وجلست إلى جوار أمي في صمت أمسك بكفها وهي تتألم في ضعف، ونظرت لي ومدت يدها الأخرى وهي تقول:

ـ "أريد أن أمشي"

حاولت أن أجعلها تكرر ما تقول كي أفهم ماذا تريد.

ـ "هل تريدين الخروج من هنا؟"

قالت في وهن، وعيناها تنظران لي في رجاء، وضعف مزق قلبي:

ـ "أريد أن أمشي قليلًا"

كنت أعلم أنها ليست في كامل وعيها، فمددت يدي أمسك بيدها الأخرى وأنا أحايلها قائلًا:

ـ "حسنًا.. هيا بنا"

كنت أعلم أنها أضعف من أن تستطيع حتى التقلب في الفراش، ولكنني كنت أريد ألا أمنعها من شيء ترغبه، ولكنها هزت رأسها في ضعف وقالت:

ـ "لا أستطيع"

كانت تتألم من رقادها كل تلك الفترة التي قاربت الشهر بدون حراك.

ـ "ماذا أفعل لك؟ هل أرفع السرير قليلًا؟"

هزت رأسها في حيرة، فأمسكت بطرف السرير الطبي، وحركته ليرتفع:

ـ "هل تحبين هذا؟"

عادت تهز رأسها أن لا، فأخذت أرفع السرير، وأخفضه في رفق مهدهدًا إياها كي أحرك عمودها الفقري قليلًا، فأخفف من ألمه.

وابتسمت أمي عندما فعلت ذلك، ابتسامة ضعيفة لا تكاد تكتمل، ولكنها كانت أجمل ما كنت أتمنى أن أراه في تلك الأيام.. وابتسمت وأنا أقول:
ـ "هل تحبين ذلك؟"
قالت وعلى شفتها بقايا تلك الابتسامة الجميلة:
ـ "سأصاب بالدوار"
أعدت ارتفاع السرير لحالته، ثم جلست أتأملها.
ونامت هي قليلًا، ثم استيقظت. كانت أشد وهنا من ذي قبل، حتى أن أناتها لم تكن تقوى على الخروج.
تنظر لنا عندما نحدثها بنظراتها الحائرة التي لا ندري معها إن كانت تعي ما نقول أم لا، فأسألها كيف تشعر؟ فتتحرك شفتيها بالحمد لله دون صوت.
ثم تغفو قليلًا قبل أن تستيقظ لتسأل عن أبي وأخوتي فأخبرها أنهم سيأتون بعد قليل، وتعود لتنام ذلك النوم المتقطع.
وعندما استيقظت تلك المرة لم تكن تنطق بأي شيء.. كان ضعفها مبالغ فيه.
أحسست لحظتها أنني بحاجة إلى الصلاة، فقمت وتوضأت وأطلت السجود والدعاء، ثم جلست إلى جوارها وأخذت أقرأ سورة (يس) بصوت تسمعه.
كنت أتلو وكانت هي تنظر لي في شرود وكفها متعلق بكفي.. وتهدج صوتي عدة مرات وأنا أحاول أن أمنع نفسي من البكاء.
﴿إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون﴾
"اللهم أنت وحدك القادر على ذلك فاشفها يا رب.."
ليلة طويلة أخرى قضيتها أنا وأبي بجوار أمي ساهرين نتبادل رعايتها..
كانت أمي هادئة تلك الليلة على غير العادة، وقد نامت معظمها، وكان هذا الهدوء باعثًا لشعور غريب يجمع بين الخوف والقلق وبين بصيص الأمل؛ إذ ربما يعني أنها قد خطت درجة نحو التحسن وألمها قد بدأ يخفف من وطأته.
وفي الصباح تركني أبي، وذهب إلى عمله ليقضي أمرًا ما، ثم عاد بعد ساعات قليلة وطلب مني الذهاب كي أستريح. أما هو فسوف يبقى كي يقابل الأطباء القادمين لرؤية أمي ذلك اليوم، ويعرف منهم الرأي القاطع في أمر مرضها. كانت أمي نائمة، فذهبت دون أن أودعها. وعدت إلى المنزل، فقضيت بضع ساعات في نوم متقطع، ثم استيقظت

لأتصل بأبي كي أطمئن، فأخبرني أن استشاريَين كبيرَين قد أتيا لرؤية أمي اليوم، وقد وضعا خطة العلاج، وطلبا كذلك نقلها إلى الرعاية المركزة حتى تتحسن حالتها، ويمكن لجسدها تحمل عملية جراحية لاستئصال تلك الأورام.. وطلب مني عدم الحضور لأنه لا يسمح بوجود مرافق في الرعاية المركزة وموعد الزيارة هو ساعة واحدة خلال اليوم كانت قد انقضت بالفعل.

فعرضت له قلقي بشأن عدم قدرتها على الحركة نهائيًا، أو حتى طلب ما تريد، فكيف يمكن تركها وحيدة هناك طوال الوقت!؟ فعاد يطمئنني بأن الأمور على ما يرام وأن الممرضات حولها هناك في الرعاية طوال الوقت يراقبن كل شيء ويعتنين بأدق التفاصيل.

أحسست يومها ببعض الأمل، وذهبت إلى بعض اجتماعات العمل التي استمرت إلى وقت متأخر من تلك الليلة، ثم عدت إلى المنزل لأجد أبي وأخي هناك.

لوهلة خفق قلبي قلقًا، ثم تذكرت أن أي منا لن يتمكن من السهر إلى جوار أمي حتى تعود إلى غرفتها مرة أخرى.

وعندما آويت إلى فراشي كنت أشعر بالقلق والإشفاق عليها لكونها وحيدة في ذلك الليل دون أحد منا، لكنني في ذات الوقت كنت أحاول تعزية نفسي بأنه ربما يكون وجودها في غرفة الرعاية هو خير لها حتى تخرج من هناك سالمة معافاة بإذن الله.

كنت أشعر نوعًا بشيء من الراحة لأن الأطباء أخيراَ قد قرروا شيئًا بشأن العلاج، وكنت أتمنى هذه المرة أن أراها وقد استردت عافيتها وذهب عنها البأس.. واتصلت بي (ريم) يومها ولمست تلك الراحة في صوتي، فأبلغتها بما جرى مع الأطباء وتفاؤلهم هذه المرة.

ولكنني لم أكن أعرف الحقيقة؛ فلم يكن أبي يخبرني بكل التفاصيل، أما ما علمته فقد علمته متأخرَا جدًا.

تقول خالتي: "في اليوم الأول لوجودها في الرعاية كانت متعبة تتألم وإن كان أنينها خافتًا لشدة ضعفها ولم تكن تعي الكثير، ولكنها في اليوم التالي كانت في حال جيد، حتى أننا رفعنا لها الوسادة تحت رأسها قليلًا وجلسنا حولها وكانت تمسك بيد من يقف إلى جوارها وتمرر عينيها بيننا وكأنها توصينا، ولكنها لم تكن تقوى على الكلام.."

وتسحب خالتي شهيقًا، وتضم حاجبيها في تأثر وهي تتابع: "كان وجهها ذلك اليوم كالقمر، بل كانت أجمل مما كانت وهي في أوج صحتها، حتى أنني خفت عليها"

علمت بعد ذلك أنها لم تكن تتحسن كما كنت أعتقد، بل أن حالتها قد تدهورت بصورة مخيفة، وذلك عندما أيقظني أبي في الصباح قبل أن يغادر، وكنت قد اتفقت معه أنني سأذهب لزيارة أمي اليوم.

وقف إلى جواري وأيقظني في رفق، ففتحت عيني فزعًا، ونظرت له دون أن أرفع رأسي.

ـ "لا داعي للذهاب إلى المستشفى اليوم"

خرج صوتي متحشرجًا من أثر النوم وأنا أقول:

ـ "سوف أذهب لأطمئن عليها!"

جاءني صوته حنونًا يحمل أحزان الدنيا:

ـ "لن تجني شيئًا بذهابك"

ـ "ولكن...!

قاطعني في رفق، وهو يقول في خفوت وصوت متهدج:

ـ "أنا لا أريد أن تسمع شقيقتُك، ولكن والدتك ليست على ما يرام؛ لقد انخفض الضغط أمس بشدة، وتوقف التنفس، وهي تحيا الآن على جهاز التنفس الصناعي وأجهزة القلب، ولن تحتمل أنت رؤيتها بهذا الشكل"

وشعرت بقلبي يتمزق، وأومأت له برأسي دون كلام حتى لا أجهش أمامه بالبكاء، وتركني وذهب.

كان الألم يكاد يقتلني وقلبي الواهن لا يحتمل.

وأظلمت الدنيا في عيني.. كنت أغرق في بحر لجي مظلم حتى أختنق ولا أستطيع الصمود، ثم أفيق لأجد نفسي داخل كابوس آخر.

وعندما استطعت أن أتشبث بالوعي، وأقف على قدمي، أسرعت أهرول في طرقات المستشفى أبحث عن مكان الرعاية.

وهناك وقفت أنظر إلى وجهها الجميل وقد فقد قدرته على الابتسام، وجسدها الذي تم توصيله بأجهزة القلب والتنفس الاصطناعي.

تفتح عينيها في وهن وتنظر إلى لا شيء، فأضع وجهي في مجال إبصارها وأبتسم لها محاولًا منع دموعي من الفرار، وأنطق ببضع كلمات علها تسمعني.

لم أكن أعرف هل تدرك شيئًا أم لا.. ولكنني أمسح بيدي على شعرها وأقبل خدها.. حبيبتي الغالية!

أمسك بيدها، وأربت عليها، وتتقلص ملامح وجهها في وهن، أشعر بها تتألم من تلك الأنابيب التي في فمها وأنفها، ترجوني بعينيها أن أفعل شيئًا، ولكنني بلا حول ولا قوة، فأمرر يدي على شعرها في حنو أرجوها أن تتحمل، وأتمتم بآيات من القرآن أدعو بها الله أن يخفف عنها الألم.

وتحتشد الدموع في عيني، وأنا أتلفت حولي أرقب تلك الإشارات التي ترتسم على الأجهزة في عدم فهم.

كانت خالتي بجواري محمرة الأنف دامعة العينين، تتحرك في توتر حول الفراش، ترمق الأجهزة مثلي، ثم تعود لتربت على كتف أمي وتدعو.

ونظرت إلى أمي واختنقت بالبكاء.. كانت أمي تنسل رويدًا من الدنيا، ولم أكن أتصور أن يأتي ذلك اليوم، على الأقل لم أتخيل أن يأتي بهذه السرعة.

أمي الرقيقة الهشة.. ذات الوجه الملائكي الذي خلق ليظل دومًا محتفظا ببراءته.. أمي التي ترعانا في كل أمورنا، رغم ضعفها وقلة حيلتها وحاجتها هي لمن يرعاها.

كانت الحرارة مرتفعة داخل الحجرة، وأحسست بالعرق البارد يسيل على جبهتي.. كنت أقاوم شعورًا عاتيًا بالإغماء.

وخرجت من حجرة الرعاية، لأستنشق الهواء بالخارج..

وبعد لحظات استطعت أن أتمالك فيها نفسي عدت للداخل لأجد خالتي تتحدث مع الممرضات ترجوهم أن يسمحوا لنا بالبقاء قليلًا، وتبكي وهم يحاولون تهدئتها وطمأنتها بأنهن يبذلن كل الجهد.

واتجهت إلى فراش أمي التي كانت قد أغمضت عينيها، ومسحت بيدي على شعرها وقبلت خدها، ثم عدت لأضع يدي حول كتف خالتي التي كانت تنشج بالبكاء، ونذهب.

وفي الطريق كانت خالتي قد تمالكت نفسها ونظرت لي وهي تقول:

ـ "نحن نؤمن بالله، ونعلم أن كل شيء عنده بأجل، لذلك لا نعترض على قضائه"

ثم صمتت لحظة تحاول أن تمنع نفسها من البكاء من جديد، قبل أن تقول:

ـ "كل شيء بيد الله، ونحن لا نقنط من رحمة الله، ولكن الأطباء اليوم قد أخبروني أن الحالة قد تأخرت كثيرًا، وصار أمر شفائها أملًا بعيدًا"

ثم مسحت دمعة سقطت من عينها، وهي تتابع:

ـ "لقد سألت الطبيب إن كان لا أمل من الشفاء، فلِمَ لا نريحها ونجعلها تقضي أيامها الأخيرة في المنزل؟ ولكنه أجابني بأن نزع الأجهزة عنها يعني توقفها عن الحياة"

لم أعقب، فنظرت لي في إشفاق وهي تقول:

ـ "لا تحزن يا حبيبي؛ فما يحدث لها تكفير عن صغائرها ووعد من الله لها بالنعيم. أنت تعلم أنها كانت تحبك بصفة خاصة، ولن تسعد بما تفعله بنفسك من إهمال لحالك"

أومأت برأسي في صمت، فقالت:

ـ "هي دومًا كانت تدعو لكم، حتى عندما كنت أطلب منها أن تدعو لنفسها بالشفاء، كانت تقول في صدق: (إني أدعو لأولادي). اهتم بنفسك يا حبيبي.. اهتم بنفسك من أجلها"

لم أنتظر ردًا من (فريد)، لكنني انطلقت أعدو في سرعة متجهًا إلى حيث تركنا البوصلة.. سمعته يهتف بي أن أنتظر، لكنني لم أفعل. كان أملنا الأخير الآن أن نحاول الخروج من الغابة عن طريق معرفة الاتجاهات.

لم يكن الطريق إلى حيث السيارة طويلًا، لكن كان من الممكن أن أضل عن (فريد) أثناء العودة، فبدأت بعد الأشجار خلال الطريق. كنت أعدو وألهث من التعب وأتحامل على نفسي بشدة كي لا أستسلم وجسدي كله يئن من الألم بعد تلك الفترة الطويلة التي قضيتها محتجزًا تحت أنقاض السيارة، بينما أقوم بعد مجموعات الأشجار، ومحاولة حفظ العدد في رأسي كي لا أفقد طريق العودة.. تعثرت خلال الطريق أكثر من مرة، وكادت قدمي أن تلتوي، لكنني عدت لأستكمل الهرولة في حذر محاولًا التأكد من عدم وجود هؤلاء الأشخاص في موقع الحادث.

دقائق لكنها بدت لي وقتًا أطول بكثير قضيتها حتى وصلت، وهناك وقفت محتميًا بإحدى الأشجار الضخمة أنظر من ورائها إلى حيث كنا نجلس.. كانت إطارات السيارة مازالت تطلق الكثير من الدخان، وقد خبت النار تقريبًا أو كادت.

لم يكن هناك أثر لأحد، ولا حتى لأصوات أقدام، وهو ما جعلني أعتقد أنهم لابد قد تحركوا في اتجاه مختلف بعد أن وجدوا المكان خاليًا. اقتربت في هدوء أخطو دون أن أصدر صوتًا متجهًا ناحية السيارة، وأنا أتلفت حولي مستوثقًا من خلو المكان.

وهناك أخذت أبحث في سرعة عن البوصلة.. كنت أعرف أننا تركناها في ذلك المكان قبل أن نتركه على عجل، أخذت أتحرك جيئة وذهابًا أفتش في الأرض بيدي وأبحث بين الحشائش عنها لكن بلا أثر.

وترددت لحظات، وقد فكرت في الحصول على شعلة من النار قبل أن تنطفئ، لكنني لم أكن أعرف إن كان قرارًا صائبًا أم أن هذا الأمر قد يرشد إلينا هؤلاء الأشخاص في الظلام، فعدت لأفتش عن البوصلة من جديد. وقبل أن أفقد الأمل وأبدأ في العودة وجدتها تلمع ضوء تحت الحشائش، فالتقطتها في سرعة، ثم وضعتها في جيبي، وبدأت التحرك عائدًا إلى حيث تركت (فريد).

بدأت أبحث عن مجموعات الأشجار التي مررت بها عكسيًا، كان الأمر صعبًا قليلًا، لكنني كنت أتحرك في بطء أكبر هذه المرة حتى لا أتجه إلى طريق خطأ.

وفجأة اقشعر بدني، وارتجف قلبي عندما سمعت تلك الصرخة..

كان صوت (فريد).. صرخة واحدة أطلقها في ذعر حقيقي ترددت في الغابة حتى وصلت إلى مسامعي.. صرخة واحدة، ثم صمتت الأصوات من جديد..

أخذت أعدو في سرعة متجهًا إليه مسترشدًا هذه المرة بالصوت، وقد بدا لي من العد العكسي للأشجار أنني على وشك الوصول.. كان قلبي يخفق في قوة وأنا أهتف به أن يجيبني.. لم أكن أهتم بأن يسمعنا أحد، لكنني لم أفكر تلك اللحظة سوى في حياته..

ألهث من التعب، ويخفق قلبي في اضطراب، ويكاد يغشى عليّ من الألم، واهتف به من جديد.

وعندما وصلت كان (فريد) على محفته دون حراك.. وتوقفت قبل الوصول إليه بخطوات، وأنا أخشى أن يكون قد أصابه مكروه.

ـ "(فريد)!!"

رددت اسمه في صوت يكاد يسمع، وكأنني أعلم أنه قد لا يجيب.

انحنيت فوق المحفة، لأنظر إليه ووضعت يدي فوق موضع قلبه.. كان ما زال يدق..

وفجأة أضاء المكان حولنا.. وتلفتُّ لأجد مشاعل تشتعل حولنا الواحد تلو الآخر يمتد المشعل إلى الآخر ليمنحه الضوء.

وعلى ضوء النيران المشتعلة رأيت عدة رجال ونساء يلتفون حولي. لم أميز ملامح وجوههم، لكنني تعجبت حقًا من هذا الرجل الواقف وقد كست الأوشام جسده، وقد ارتدى على وجهه قناعًا إفريقيًا مرعبًا من المعدن والريش.

ونظر لي الرجل لحظة يتفرس في وجهي كأنه يتأكد من أمر ما، ثم أشار إلى رفاقه بكلمات غير مفهومة بالنسبة لي، فتقدم أحدهم نحوي على الفور ليقف مواجهًا لي، ويرفع يديه إلى السماء صائحًا ببضع كلمات بدت كالتعاويذ السحرية المرعبة، ونظرت إليه محاولا أن أفهم أي شيء.. كان يرتدي ملابس بدائية مزركشة ويضع على وجهه أيضا قناعًا غريبًا مزينًا بالألوان والريش وحول عنقه قلادة من العاج.

وتوقف الرجل فجأة كما بدأ..

ثم هوى بقبضته على وجهي في حركة مباغتة غير متوقعة، لتظلم الدنيا أمام عيني تمامًا.

عزيزتي ريم..

أتمنى لك رحلة سعيدة إلى (فرنسا)، وأصدقك أن الأمر لم يكن مرتبًا وأنك لم تخفي عني ذلك الأمر عمدًا، وإن كنت قد تمنيت في نفسي أن تشاركيني الأفكار لحظة بلحظة كما اعتدت أن أشاركك لحظاتي كلها.

عليك أن تخبريني عندما يتحدد موعد نهائي لرحلتك. ويومها سوف أتصل بك. لن أقبل بأمر الرسائل وقتها بأي حال.

لم تخبريني متى ينتهي أمر الرسائل هذا! أحب أن أعود لمحادثتك هاتفيًا؛ فقد اشتقت إلى تلك الطاقة الإيجابية التي تحملها نبرات صوتك وضحكاتك.

لقد أخذت بنصيحتك، وتحدثت اليوم مع رجل في مكتب رحلات بجوار الفندق، وأخبرني أنه يقوم بتنظيم رحلات سافاري إلى الغابات لمدة ثلاثة أيام أو أكثر، وأخبرته أنني أحاول أن أجد وقتًا بعد الانتهاء من مهمتي هنا كي أجرب الأمر، وطلبت منه عروضًا للرحلات.

بدا الرجل غريبًا بعض الشيء؛ لم يكن يبتسم وكأن له وجهًا خشبيًا من الأبنوس، وبينما يدون لي رقمه لمحت على ذراعه وشمًا لوجه أفريقي مرعب.. يتحدثون كثيراً عن السحر الأفريقي على مواقع الإنترنت، لكنني أتمتم دائمًا بآيات من القرآن عندما أتذكر الأمر. أتمنى ألا أواجه تلك الأمور يومًا ما.

كدت أنسى أن أخبرك أنني سألت الرجل في مكتب الرحلات عن ذلك الطائر الضخم الذي كان في خلفية الصورة التي أرسلتها لك المرة السابقة وسألتني عن اسمه. كنت قد بحث عنه على شبكة الإنترنت عندما عدت إلى الفندق فوجدت أن اسمه (مارابو ستورك Marabou stork)، أما الرجل في مكتب الرحلات فقد أخبرني أمرًا غريبًا آخر لا أدري مدى صدقه. أن هذا الطائر كان يأكل جثث الموتى التي ملأت الطرقات أيام الرئيس السابق (عيدي أمين). وعلى الرغم من ذلك ينتشر هذا الطائر بكثرة في حديقة الفندق، وفي الطرقات بأعداد كبيرة، ولا يهابه الناس، وكأنه أمر عادي أن تتجول بجوار وحش كهذا. لكنه لا يقترب من أحد ولا يهاجم السائرين حوله وقد اعتادهم واعتادوه.

الحياة هنا بسيطة جدًا في المساء، لا شيء أفعله سوى تناول الطعام والجلوس في المطعم الرائع، والاستماع إلى العازفين أو بعض المغنيين الأوغنديين ينشدون أغانيهم

الرائعة التي لا أفهم حرفًا من معانيها، لكنها تبث في نفسي ما يريد أن يقوله صاحب الكلمات من معاني الحزن وربما ألم الفراق.

سأعاود الكتابة من جديد وأرسل لك الليلة بعض المذكرات..

بالمناسبة.. شكرًا لك على كل شيء فعلتِه في تلك الأيام.

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة مساءً، وقد جلست أمام الحاسب الآلي أحاول التشاغل بإنهاء بعض العمل، إلا أن تفكيري لم يكن يستقر على أمر واحد لمدة ثلاث ثوان كاملة، تأخذني الأفكار إلى أمور شتى وأفكار حول الموت والهدف من الحياة. كنت أسأل نفسي ما الذي يجعلنا نتمسك بالحياة إن كان الأمر في النهاية سيان!؟ فالموت سيأتي لينهي ما صنعناه، ونترك خلفنا كل شيء أحببناه.

ما الشيء الذي يجعلنا نقاوم لكي نستمر؟ ما الرائع في الدنيا لكي نحبها ونتمسك بها؟ تلك الدنيا التي تخادعنا طوال الوقت، فتتركنا حتى نشعر أننا نملك كل شيء، فتعود لتسحب البساط من تحت أقدامنا وتتركنا بلا أي أمل!؟ أخرجني من تلك الأفكار رنين هاتفي المحمول. كانت (ريم) تتصل.. ترددت لحظات قبل الرد؛ فلم أكن في حال يسمح لي بالحديث، فحولت الهاتف على وضع الرنين الصامت، ولم أجب، ثم أغمضت عيني لحظات.. وعندما فتحت عيني كانت شاشة الهاتف مازلت تضيء.. كانت (ريم) تحاول الاتصال مجددًا.

لم أكن أريد الحديث مع أحد، قمت فأطفأت الأنوار كلها وجلست في صمت.

لا أدري ما الذي أصابني في تلك اللحظة..

كانت الساعة قد تخطت الواحدة صباحًا بقليل حيث أجلس وحيدًا في الظلام..

شعرت فجأة بهاتف يناديني أن أمي بحاجة إلي، وأنها تريدني أن أكون بجوارها في تلك اللحظة.

ولا أدري أيضًا كيف انتابني شعور خاص بما تريد مني أن أفعل..

قمت فتوضأت، وعدت لأجلس في حجرتي في الظلام مستندًا بظهري إلى الحائط مغمضًا عيني.

أحاول التنفس في هدوء، كي أتمالك أعصابي الثائرة، بينما ترتعش يدي وزاوية فمي بحركة لاإرادية.

ثم بلا مقدمات، وجدتني أشعر وكأنني أنتقل بنفسي إلى جوارها في المستشفى حيث ترقد.. أراها حيث ترقد في سكينة تنظر لي بعينيها العسليتين، وتطلب مني دون أن تتكلم أن ألقنها الشهادة.

فزعت من الفكرة، ولكنني أمسكت بيدها وبكيت..

وبدأت ألقنها الشهادتين تكرارًا ومرارًا..

تنظر لي وتبتسم من تحت قناع الأكسجين، ابتسامة هادئة مشرقة..
وأسمع صوتها في قلبي.. "لا يا نور عيني لا ألم.. لا تخف.. لا تخف أبدًا"
وبعد ساعات أيقظني الهاتف..
كنت نائمًا في مكاني جالسًا، وقد تكومت على نفسي من البرد، ووجهي مبلل بالدموع..
ألقيت نظرة على ساعة الحائط بينما أقوم من مكاني.. كانت الساعة السادسة صباحًا، وأمسكت بسماعة الهاتف وقلبي يخفق في اضطراب..
ـ "هل استيقظت لتوك؟"
كان أبي على الهاتف، يسألني في صوت بدا لي من هدوئه واستسلامه أن وراءه أمرًا.
ـ "نعم يا أبي.. ماذا بك؟؟"
ـ "تمالك نفسك يا بني.. لقد رحم الله أمك من آلامها"
لم أستطع الرد، ولكنني كنت حائرًا بين نفسي وعقلي. لا يستطيع قلبي أن يصدق أن هذا قد حدث، وكأنه يرجو عقلي أن يكون كل ما حدث مجرد حلم وسوف يأتي الوقت لأستيقظ.
ـ "سوف أنهي الإجراءات، وسوف أنتظرك في المستشفى"
قالها، وأغلق الخط، وتركني في حيرتي..
لقد رأيت كل هذا بالفعل في تلك الليلة.. رأيت أنني أقف بجوارها بينما تطلب مني أن ألقنها الشهادة.. كانت وحيدة وأرادتني أن أكون بجوارها في تلك اللحظة.. لقد قضيت حياتي كلها أخشى تلك اللحظات القاسية.
رأيت أيضًا ما حدث في المستشفى بعدها..
كنت أقف أنا وخالي (فاروق) في انتظار الجثمان بينما ينهي أبي الإجراءات..
رأيته يبكي على أخته التي يحبها كأمه، ويحتضنني في انهيار..
وعندما أتت اللحظات التي يتحرك فيها الجسد بين أيدينا في صندوق خشبي نحمله إلى سيارة كئيبة كي نتخلى عنه، جلست بجوار الصندوق أنا وأبي في السيارة..
كان أبي منهارًا كما لم أره من قبل.. كان يبكي رفيقة حياته، ويحاول التماسك، لكنه يفشل بين الحين والآخر، فتنفلت من بين شفتيه شهقة حارة، ويسرع ليمسح عينيه..
أما أنا فلم أستطع البكاء..
بكيت كثيرًا عندما كانت تتألم على فراش المرض..

أما الآن فلا أصدق أن ما حدث قد حدث.. لا أصدق أنها هي من نحمل معنا في ذلك الصندوق المغطى.

وفي المقابر لم أصدق أيضًا أن ذلك الجسد الساكن بين اللفائف البيضاء هو جسد أمي..

لم أجن ولم تؤثر بي الصدمة فتجعلني أفقد عقلي، لكنني لم أكن أعتقد أن ذلك الجسد الذي واريناه القبر هو أمي.. وكنت أريد أن أعود إلى المستشفى من جديد وكأنني سأجدها هناك.

وعندما عدنا من المقابر تركت الجميع وذهبت أسير في الشوارع بلا هدف..

كان التعب قد أنهكني، وكان الطقس شديد البرودة..

وعلى إحدى الأرائك الخشبية جلست في شرود.. كنت أشعر أن كل سعادة في حياتي قد انتهت ذلك اليوم.. كل الحب الحنان والرقة تم مواراتها في التراب اليوم.

وسقطت من عيني دمعة لم أقاومها، وأمامي أقبلت فتاة صغيرة ربما لا تتجاوز الأعوام الأربعة.. كانت تتقافز وتدندن بكلمات ما في مرح، وتوقفت أمامي فجأة عندما رأتني ثم اقتربت في بطء وهي تتأملني، وفي صوت ملائكي حنون قالت:

ـ "ماذا بك؟ هل ضايقك أحد؟"

مسحت وجهي، وابتسمت لها، وأنا أقول:

ـ "لا"

اقتربت أكثر، وتهدج صوتها الملائكي، وهي تسأل في حزن:

ـ "لماذا تبكي إذن؟"

سقطت دمعة أخرى من عيني، بينما أجبت:

ـ "لقد تركتني أمي، ورحلت"

دمعت عينا الطفلة حزنًا، ثم اقتربت أكثر، وربتت على كتفي، وهي تقول:

ـ "لا تبكِ"

حاولت الابتسام لها، فعادت تقول محاولة طمأنتي، وكأنها هي الفتاة الكبيرة، وأنا الطفل التائه:

ـ "هل تعرف الطريق إلى البيت؟"

أومأت برأسي، وأنا أقول:

ـ "نعم"

ـ "إذن قم واذهب إلى البيت، ولا تغضب أمك مرة أخرى"

أومأت برأسي من جديد، دون أن أتكلم، محاولًا أن أوقف دمعة أخرى سقطت من عيني، فمدت الفتاة يدها، ومسحتها عن وجهي، ثم قبلتني على خدي، وانطلقت تعدو حيث كان أبوها وأمها يجلسان في انتظارها.

ورد في الأثر أن الأم إذا توفيت نادى مناد في السماء أن «ماتت التي كنا نكرمك لأجلها، فاعمل صالحا نكرمك لأجله»

أصوات الطبول الأفريقية..

وغناء جنائزي بلغة غير مفهومة يملأ أذني يتخلله صوت طقطقة احتراق ألواح الحطب.. وأشعر بنفسي كأنني تحت تأثير منوم ما، ولا أستطيع أن أفتح عيني لأرى ما يدور حولي.. تائه أتأرجح بين الواقع والخيال.

كل ما أعرفه أنني أستند إلى جذع شجرة، بينما تلتف حبال خشنة حولي مقيدة جسدي إليه وتحول دون سقوطي على الأرض. كان ذراعي يؤلمني وعلى الوريد رأيت بعض قطرات الدم المتجلطة.. وبدا أنهم حصلوا من جسدي على بعض الدماء لا أدري لماذا..

بصعوبة بالغة حاولت أن أفتح عيني لثوان أتفحص خلالها ما يحدث.. كان أول ما وقع عليه بصري هو تلك النيران الضخمة التي أوقدوها وصنعوا حولها دائرة من حاملي الطبول والراقصين. كان الأمر أشبه بتلك الحفلات البدائية التي لم أرها سوى في الأفلام الخيالية.

سرت قشعريرة في جسدي عندما بدأت أفهم الوضع القاتل الجديد الذي انتقلت إليه، ونظرت حولي مجددًا أبحث عن (فريد)، فوجدته مقيدًا إلى شجرة أخرى بجواري ومازال فاقدًا للوعي.

همست محاولًا إيقاظه، لكنه كان في حال مزر ولابد أن ما قاموا بحقننا به كان قويًا لأنني كنت لا أشعر بجسدي تقريبًا، إلا أنني حاولت أن أجبر عقلي على العمل من جديد.

لا أفهم لماذا لا ينتهي ذلك اليوم! ولماذا يصر أن يدور في ذلك الإطار المرعب، سواء افتراسي من ذئب أو إحراقي حيًا أو الموت بين أنياب آكلي لحوم البشر!!؟

تتصاعد شرارات النيران ويدور حولها عدة رجال كالمحمومين، رجل آخر يقف أمام النار يتلو بعض التعاويذ ويبدون جميعًا في حالة من الانتشاء الروحي، وكأنهم يقيمون طقسًا دينيًا ما، حتى أنهم لم ينتبهوا عندما أخذت أكرر اسم (فريد) بصوت أعلى قليلًا محاولًا تنبيهه للاستيقاظ.

روائح أبخرة خانقة تتصاعد، ويعلو صوت المرنم تدريجيًا، بينما يقبل رجلان من بعيد، يبدوان كشبحين نحيلين من خلف ضوء النيران، يقتربان ليقفا أمام الرجل الذي يتلو الترانيم فيرفع يده في إشارة لتتوقف الطبول ويتوقف الجميع عن الرقص، ويبدأ حوارًا غير مفهوم بالنسبة لي من الطرفين. كان يبدو أن الرجلان يستعطفان ذلك المرنم

ويطلبان شيئًا ما في إلحاح. لم أفهم من تلك الكلمات شيئًا سوى ذلك الخوف الذي يسيطر على طريقة نطقهم للكلمات، بينما بدا هو غاضبَا وهو يحرك يديه في عصبية ويصدر صوته قاسيًا أجش، عدت أهتف من جديد كي يستيقظ (فريد)؛ إذ ربما يمكنه تفسير ما يدور بينهم، فبدأ يفتح عينيه في إجهاد وينتبه في صعوبة.

نظر لي وعلى وجهه علامات الألم الشديد، قبل أن يسألني عم يحدث، فأشرت له أن ينصت إلى كلام هؤلاء القوم أولًا، فالتفت إليهم في إعياء واضح وبدأ يضيق عينيه وكأنه بتضييق مساحة الرؤية يعطي فرصة أكبر لأذنيه كي تلتقط الكلمات.

ـ "ماذا يقولون؟"

لم ينظر لي (فريد)، ولم يرد على سؤالي، ولكنه استمر في الاستماع إلى المتحدثين قبل أن يقول:

ـ "إنهم يتكلمون بلغة لا أفهمها كثيراَ"

قلت محاولًا تشجيعه:

ـ "حاول يا (فريد)"

عاد ينصت من جديد، وبدا أنه يرتعد، فعدت أهتف في صوت خافت أن يخبرني، فالتفت لي وفي عينيه أكثر نظرة فزع رأيتها في حياتي.

ـ "يتحدثون عن قربان!"

سألت في تعجب متمنيَا أن يخيب توقعي عن تلك الكلمة:

ـ "ماذا تعني بقربان!؟"

عاد (فريد) يقول في حيرة:

ـ "لا أعرف معنى آخر للكلمة.. قربان"

ـ "هل تعني أضحية وثنية ما؟"

ـ "نعم.. أضحية بشرية للفداء"

عدت أسأل في صوت مرتعد:

ـ "هل سيقدمون الرجلين كأضحية؟"

ارتعد صوت (فريد)، وبدا لي مرعبًا في تلك اللحظة وهو يقول:

ـ "لا.. بل يريد الرجلان أن يقدماك أنت كقربان!"

عزيزتي ريم..

كم تمنيت لو كان يمكنني أن أرتحل بلا هدف ولا عودة، هائمًا في الأرض لا أبغي وصولًا إلى مكان.
لا أدري لماذا عدت إلى حالة الحزن من جديد بعد أن كنت اعتقدت أنني قد تجاوزت الأمر، ولا أدري الآن إن كانت الكتابة عن تلك الأيام الماضية قد ساعدتني أم أنها أعادت تقليب المواجع في نفسي مرة أخرى.
أذكر تلك الأيام جيدًا..
كانت الدنيا ليل دائم لا يشرق له نهار أبدًا..
لم تكن حياتي إلا أوقات تمر وكفى.. تستمر الحياة لأنها يجب أن تستمر، بينما ظل مشهدي ثابتًا وسط تلك الأحداث. تتوالى الأيام بينما أنا مجرد جماد بلا أدنى إحساس، كتمثال وضعوه بلا حول له ولا قوة وسط ميدان عام، يحدق في الفراغ، ينظر إلى لا شيء، بينما تتغير حوله الأشياء ويمر يوم تلو الآخر.
كنت في إجازة طويلة من العمل؛ فلم أكن قادرًا على التعامل مع أي شخص.. كان هذا حال كل من في البيت. كنا نحاول أن نتجنب لقاء أعيننا؛ إذ لا يجد أي منا ما يقوله للآخر؛ فلا مواساة تنفع ولا شيء من الدعم يمكن أن يقدمه جريح لغيره.
كنت أحاول بين الوقت والآخر أن أطمئن على أبي وإخوتي، لكنني كنت أفتقد الطاقة تمامًا. تحاول شقيقتي أن تهتم بنا وتتولى مسؤولية البيت الذي لم يعد له من يرعاه. تتعلم الطهي للمرة الأولى في حياتها؛ إذ لم تفعل ذلك طوال حياة أمي. وتتعلم كيف تصبح أمًا لإخوة أكبر منها وأب كسير القلب.
كنت أقضي الساعات جالسًا في ذلك (الكافيه) المطل على النيل، وقد سكتت الأصوات كلها حولي، ولم أعد أسمع إلا صوت الخواء داخلي. تتحرك المياه أمامي في هدوء ويحلق طائر فوق صفحة الماء في انسيابية، وتستمر حياتي كرجل انسل من بين يديه مجدافي مركبه، وترك نفسه لتيار المياه تسوق طريقه كيف تشاء.
لم أكن أحدّث أحدًا في ذلك الوقت، بل إنني لم أهتم بشحن هاتفي المحمول لأيام، ولم أهتم برفع سماعة الهاتف في المنزل على الإطلاق؛ فلم أكن في ذلك الوقت أتحمل أي اتصال للمواساة أو التعزية.. لا يفهم أحد أن كلمات التعزية تلك تؤلمني أكثر مما تواسيني.
يتصلون حتى يعيدوا على مسامعي أن أمي قد ماتت.. ماتت الحياة التي كانت تمدني بالحياة!

لم أقم بالاتصال أو إرسال رسالة إلى (ريم) كي أخبرها بأمر الوفاة. لقد كنت بائسًا إلى درجة لا توصف. يملؤني إحساس بأنني غير قادر حتى على تحمل عبء التنفس.. لأول مرة في حياتي أعلم أن التنفس أمر مجهد وشاق إلى هذه الدرجة.

عرفت بعد ذلك أن (ريم) علمت بخبر الوفاة من إحدى الممرضات في المستشفى عندما اختفيت، وانقطع هاتفي المحمول عن العمل، وحتى هاتف المنزل لم يكن يجيب. ذهبت هي إلى المستشفى وأخبروها بما حدث، يومها اتصلت عشرات المرات على هاتف المنزل لكنني لم أجهد نفسي بالنظر حتى على رقم المتصل، لكن أبي قام بالرد وسمعته يذكر اسمي، فخرجت من غرفتي مسرعًا، وأشرت له أنني لا أريد الرد على أحد، فعاد يردد كلمات الشكر للمتصل وأن البقاء لله، ثم قال أنني موجود وطلب الانتظار لثانية ثم مد لي يده بالسماعة، وهو يخبرني أنها فتاة تدعى (ريم).

أمسكت بالسماعة في تردد، ووضعتها على أذني لحظات أستجمع ما سأقول، وتركني أبي وانصرف إلى حجرته.

ـ "(ريم).."

خرج صوتي متقطعًا كآلة لم تعمل منذ سنوات، فتنحنحتُ محاولًا أن أستعيد قدرتي على الكلام، بينما جاءني صوتها يحمل حزنًا صادقًا.

ـ "البقاء لله، في الجنة إن شاء الله"

ـ "إن شاء الله يا (ريم).. شكرًا لك"

كنت أحاول التماسك، لذلك ضغطت على حروف كلماتي حتى تخرج دون أن يبدو فيها أثر ذلك المرجل الذي يكاد ينفجر بداخلي، فعادت تقول في رجاء:

ـ "متى يمكنني أن أحضر لتعزية شقيقتك ووالدك؟"

قلت على الفور محاولًا أن أكون قاطعًا، وألا أكون فظًا في ذات الوقت:

ـ "لا داعي لذلك يا (ريم).. يكفي اتصالك"

ـ "ألا تريد أن تراني إلى هذا الحد؟"

ـ "لا أقصد هذا.."

قاطعتني كطفل غاضب:

ـ "إذن لا تمنعني من الحضور"

ـ "يمكنك الحضور في أي وقت.. جميعنا في إجازة من العمل، و(مي) لا تريد الذهاب إلى الكلية هذه الأيام"

ـ "هل يناسبكم الغد في الخامسة مساء؟"

ـ "لا بأس"

قالت وكأنها قد حصلت على وعد لا تريد تضييعه:

ـ "لن أطيل عليكم، لا تقلق"

ـ "لا تقولي هذا"

عادت تقول في رجاء:

ـ "هل يمكنني أن أطلب منك شيئًا؟"

ـ "ما هو؟"

ـ "لا تغلق هاتفك رجاء"

ـ "لا عليك.. سوف أعيد شحن الهاتف بعد قليل"

ـ "أمر آخر.. أرجوك اعتن بنفسك.. إن لم يكن من أجلك فمن أجل أسرتك.. أعرف جيدًا أنه لا طاقة لديك لفعل أي شيء، لكنهم بحاجة إليك في هذا الوقت بالتأكيد"

كانت محقة فيما تقول، وكانت تعلم أن الأمر ليس بتلك السهولة التي يقال بها، فاكتفت بالطلب، ولم تنتظر الرد، ولكنها تابعت:

ـ "أراك غدًا"

ثم ألقت التحية وأنهينا الاتصال، ورأيت والدي يخرج من حجرته وقد رآني قد أنهيت الاتصال، فجلس على كرسيه وبيده مصحفه وقد وضع ورقة صغيرة صفراء في وسطه كعلامة لمكان توقفه، ثم حاول الابتسام وهو يقول:

ـ "من تكون (ريم)؟"

قلت في حرج مدافعًا كان في الأمر اتهام خفي أريد أن أنفيه عن نفسي:

ـ "صديقة.. مجرد صديقة أعني"

هز رأسه موافقًا، وهو يقول:

ـ "لا بأس"

عدت أقول على الفور:

ـ "تريد أن تأتي غدًا في الخامسة لتقديم العزاء"

- "أهلا بها في أي وقت"
لابد أن (مي) سمعت الحوار؛ لأنها خرجت على الفور من حجرتها، ثم نظرت لي في امتعاض، وهي تقول:
- "هل ستقابل أصدقائك في هذه الهيئة!؟"
التفت لأنظر في المرآة المعلقة على الحائط أمامي، كانت لحيتي طويلة ومبعثرة مثل المشردين، وتحت عيني أثر سواد من السهر، ولكنني هززت كتفي في لامبالاة قبل أن أقول:
- "لا يهم"
هزت (مي) كتفيها، وهي تقول:
- "أنت حر"
ثم تركتني وانصرفت، لأقف وأعيد النظر إلى تلك الهيئة المبعثرة من جديد في المرآة.
لم أفعل يومها الكثير، ولكنني اكتفيت بمحاولة تهذيب لحيتي قليلًا، ومشطت شعري حتى يبدو أقل تشوشًا، وجلست هي وسطنا على طرف كرسيها وقد بدا على ملامحها حزن صادق. كانت ترتدي فستانًا بسيطًا أسود اللون يضفي المزيد من الجمال على ملامحها الملائكية. لم نتكلم يومها كثيراَ؛ فقد جلسنا لا نجد ما يقال يحاول كل منا التشاغل بالاستماع إلى صوت التلاوة التي تصدر من الكاسيت، تلا ذلك بعض كلمات التعزية ومحاولة (ريم) الرقيقة لجذب أطراف الحوار مع أبي وشقيقتي، وقد نجحت بالفعل في انتزاع بعض الابتسامات منهما، وقد أخبرتني شقيقتي فيما بعد أنها لم تشعر بالراحة لتلك الزيارة في بادئ الأمر، لكنها غيرت رأيها تمامًا بمجرد أن بدأت الحديث مع (ريم).
تملكني المرض بعد ذلك عدة أيام، لم تكف (ريم) خلالها عن تكرار محاولات الاتصال بي تليفونيَا، أو إرسال الرسائل النصية على هاتفي المحمول محاولةً إبداء الدعم الذي لم يلق مني خلال ذلك الوقت ترحيبًا كبيراَ؛ إذ كنت كمن فقد حاسة التذوق تمامًا، فعجز عن تمييز أي طعم للحياة.
كان هاتفي المحمول لا يكف عن الرنين، سواء من اتصالات (ريم) أو بعض الأصدقاء الذين يريدون الاطمئنان على أموري، وفي معظم الأحيان كنت أهمل النظر إلى شاشة الهاتف الذي أغلقت رنينه وتركت شاشته تضيء فقط بالاتصالات حتى يمل المتصل

ويغلق الخط، وأحيانًا أخرى كنت أنظر إلى الشاشة في فتور لأعرف المتصل وخاصة عندما يكون والدي أو أحد أشقائي بالخارج، وربما يكون الاتصال من أحدهم.

في ذلك اليوم كنت وحدي في المنزل، ودق الهاتف كثيراً حتى أن القلق دفعني للرد، ومع أول كلمة سمعتها من الطرف الآخر للاتصال تأكدت أنني مازلت هشًا إلى درجة لم أكن أتمناها.

ـ "هل نسيتني إلى هذه الدرجة!؟"

كان سؤالها هو نفسه أمنيتي في تلك الأيام.. أن أنساها وأنسى كل الآلام التي مرت بي..

ـ "لا يا (شاهندة)، كيف ينسى المرء شخصًا تسبب له في كل تلك الآلام!؟"

ـ "ألن تسامحني!؟"

هززت رأسي نفياً، وأحكمت قبضتي على سماعة الهاتف وكأنني أستجمع قواي قبل أن أقول:

ـ "لم يعد هناك ما يستحق أن تشغلي بالك بشأنه الآن"

ـ "أنت تستحق"

ـ "حتى أنا لم أعد كذلك"

ـ "لا تقل هذا"

كنت أريد حقًا إنهاء تلك المكالمة، فنبرات صوتها كانت تخترق مسامعي كسهام حارقة.

ـ "شكراً لتعازيك يا (شاهندة).."

ـ "لقد تغيرت كثيراً يا (يوسف)"

قلت في غضب:

ـ "هذا صحيح؛ لقد تبدلت منذ وقت طويل"

قالت في لهجة توحي بعدم التصديق:

ـ "يمكنني أن أشعر بدقات قلبك.. لا تحاول الكذب"

ـ "لقد أصبحتِ لشخص آخر يا (شاهندة)"

ـ "لكنني مازلت أحبك كما تحبني"

ـ "لقد ذهب الحب من قلبي، ولم يتبقَ سوى دقات طبول فارغة بلا معنى"

صمتت لحظات دون أن تقول شيئًا، لا يصلني عبر سماعة الهاتف سوى أنفاسها.. كم كنت أعشق صوت تلك الأنفاس فيما مضي!

ـ "هكذا إذنَ؟"

كنت أحترق ذاتيَا، وكان لابد من إنهاء الاتصال.

ـ "شكرا لتعازيك يا (شاهندة).. سوف أضطر الآن لإنهاء الاتصال"

ـ "أرجوك لا تفعل"

ـ " لا أريد أن أكون وقحًا لكن.. وداعًا.. وداعًا للأبد يا (شاهندة)"

مازالت الطبول تدق في مجموعات موسيقية منتظمة، تتخللها قرعات بالعصي، والأجساد الراقصة تلتف حول النار المضرمة في حركات هيستيرية، والمرنم يستمر في تلاوة ترانيمه السحرية المخيفة، يعلو صوته ويهبط بطريقة مفاجئة، ينطق بكلمات غير مفهومة حينًا، ويصدر أصواتًا كأصوات الحيوانات حينًا آخر، ثم صرخات كشياطين تحترق في أعماق الجحيم.

كان الرجلان النحيلان قد جثيا على ركبتيهما أمام النار وأحنيا رأسيهما في خضوع، تتطاير شرارات الأخشاب المحترقة، فتضع المزيد من الرهبة على الجو، ويدق قلبي مع دقات الطبول المتوحشة.

نظر لي (فريد) وعلى وجهه علامات الذعر التي يبدو أنها أصبحت لا تفارقنا، وهو يقول:

ـ "لقد بدأت طقوس التضحية!"

ارتعدت فرائصي، حتى أن كلماتي خرجت مرتجفة وأنا أسأل:

ـ "هل سيقتلونني الآن!؟"

هز (فريد) رأسه، وقال في صوت مرتعد:

ـ "لا أدري إن كانوا قد وافقوا على ذلك"

ـ "ماذا تعني؟"

ـ "عادة يقوم طالبو التضحية بتقديم القرابين من الأطفال"

ـ "حقًا؟"

ـ "نعم، يقدمون الأطفال لأنهم أكثر طهارة"

لم أكن أفهم المغزى بعد من ذلك الأمر، هل هي طقوس ديانة وثنية ما هي التي تجبرهم على ذلك مثل عبادة الشياطين أو أمورًا مماثلة؟ ثم تذكرت أنني قرأت على شبكة الإنترنت أثناء بحثي عن الأماكن السياحية في (أوغندا) أمورًا بشأن التضحية بالأطفال فعلًا، لكنني لم أعر الأمر اهتمامًا وقتها حتى ذكر (راموس) الأمر عرضًا أمامي فعدت أسأل:

ـ "ولماذا يفعلون ذلك!؟"

ـ "القرابين البشرية عادة قديمة لم تنتهِ لدى القبائل القديمة حتى الوقت الحاضر، يفعلونها بغرض الحصول على القوة والشفاء من الأمراض"

كنت أعلم أن الأمراض هنا متفشية إلى حد لم يعد يصلح معه العلاجات الطبية، ويبدو أن البعض آثر عدم تعاطي العلاج، وفكر في العودة لطقوس القرابين. قلت في عدم تصديق:

ـ "الشفاء من الأمراض بقتل الأطفال!؟"

ـ "هكذا يعتقدون.. يمارسون الطقوس، وتتم التضحية، ثم يشفى الجسد من المرض بعد سبعة أيام"

كان الراقصون مازالوا يلتفون حول النار، بينما يصنعون تلك الضوضاء المزعجة دون توقف، فعدت أقول:

ـ "ماذا إن قرروا أنني أصلح لتلك الطقوس؟؟"

نظر لي في يأس وهو يقول:

ـ"وماذا إن قرروا أنك لا تصلح؟ هل تعتقد أنهم سيتركوننا نذهب؟"

كان الوثاق محكمًا بشدة، حتى أن الحبال الخشنة كادت تنغرس في لحمي، وبدأت أشعر بالرغبة في القيء بسبب تلك الروائح التي تنبعث من النيران.

ـ "كيف يأتون بالأطفال للتضحية؟"

ازداد صوته حزنًا وهو يقول:

ـ "الخطف، وأحيانًا يقدم البعض أطفالهم كقرابين أملًا في الشفاء"

قلت في غضب:

ـ "أي قلوب متحجرة تلك!!؟ ألم يتنبه أحد هؤلاء بعد ذلك الجرم أنه لم يشف مريض من مرضه!!؟"

هز (فريد) رأسه في إجهاد وهو يقول:

ـ "لا أحد يعرف ما الذي يحدث حقًا"

ـ "ماذا تعني بأن لا أحد يعرف!؟"

ـ "هل تؤمن بالسحر؟"

ـ "بالتأكيد"

عاد يقول:

ـ "أنا أيضًا أؤمن بالسحر، وقد رأيت بعيني أشياء لا يمكنك تخيلها"

قلت في ذهول:

- "هل يشفون فعلًا بتقديم التضحيات!؟"
- "لا أعرف هذا تحديدًا؛ فلم أقابل أيًا ممن مارسوا هذا الطقس، أو يعرف أحد مارسه شخصياَ سوى (راموس)"
قلت متعجبًا:
- "هل تعني (راموس) السائق؟"
- "نعم هو نفسه"
- "هل قام (راموس) بالتضحية؟"
- " لا، لكنه أخبرني بالأمس أنه يعرف من شفي فعليًا من مرض لا سبيل للشفاء منه بعد هذه التضحية"
سرت قشعريرة في جسدي، وعدت لأنظر إلى هؤلاء الراقصين المنتشين، وهذين الجالسين على ركبتيهما في انتظار تنفيذ الطقوس.
وتوقف نظري عند أحدهما.. كان لهيب النيران يترقرق على وجهه المنكس.
ذكرني وجهه بشخص أعرفه جيدًا.
وعندما رفع الرجل وجهه ونظر نحوي بعينيه المذنبتين، تأكدت أنه هو..
كان الرجل الجالس على ركبتيه في انتظار تقديمي كقربان تضحية هو (راموس)!

عزيزتي ريم..

لم أفعل الكثير اليوم؛ فاجتماعات العمل كانت مرهقة جدًا، وقد كثفت المقابلات مع مديري الفروع لعلي أستطيع إنهاء عملي قبل نهاية الأسبوع الحالي. فقط طلبت من (فريد) اصطحابي إلى سوق المنتجات اليدوية مرة أخرى، ولكن هذه المرة أصر على مرافقتي في الجولة، ويبدو أن الأمر كان له أثر كبير على البائعين هناك؛ فقد قام بالتفاوض معهم على الأسعار بنفسه، وحصلت على صفقات رائعة. قابلت هناك مصادفة أيضًا (راموس)، ذلك الرجل صاحب الوشوم من شركة الرحلات، وسألني عن رأيي في العروض التي قدمها لي لرحلة السافاري، فأخبرته أنني على وشك إنهاء العمل وسوف أخبره قريباَ جدًا عن الوقت المناسب للرحلة.

لقد أحضرت لك ثوبًا محلياَ رقيقًا أتمنى أن يعجبك. المضحك في الأمر أن البائعة كانت تريد أن تجربه لي وظلت تقول أنها سوف تفعل ذلك من أجل خاطري فقط، وبدا أنها تحاول التدلل بشكل ما، لكنني تمسكت بالرفض وساندني (فريد) الذي زجرها في لهجة جافة، فذهبت لتضع لي الثوب في كيس بلاستيكي، وتمده لي في غضب، وهي تتحدث بالأوغندية. أخبرني بعدها أن الفتاة كانت تعرض نفسها عليّ، وهي مهنة معتادة هنا للأسف، وحذرني من ذلك الأمر نظرًا لانتشار الإيدز، فأخبرته ضاحكًا أن لدي (فوبيا) من الأمراض، فكيف أستطيع المغامرة بشيء كهذا!؟ فعاد يخبرني أن الأمر هنا مشكلة حقيقية، وأغلب الناس لم يعودوا يهتمون بالوقاية أو بالعلاج، والحقيقة أنني رأيت لافتات ضخمة كثيرة صنعتها الوكالات الدولية للصحة هناك تطلب من السكان أن يذهبوا لاختبار الكشف عن مرض الإيدز مجانا للاطمئنان على خلو أجسادهم من المرض، أو الخضوع المجاني للعلاج، إلا أن الاستجابات قليلة جدًا كما قرأت.

ذكرتني تلك المرأة بأولئك النسوة اللاتي يمتلئ بهن مطعم الفندق في المساء. لم أكن أفهم في البداية سبب وجودهن فقد كنت أري وجوهًا غريبة تأتي في وقت العشاء، تأتي الفتاة منهن وقد ارتدت ثوب السهرة لتجلس على منضدة قريبة من العازفين في ذلك المطعم المكشوف بحديقة الفندق، تطلب فقط زجاجة من المياه الغازية وتنتظر، ثم فهمت بعدها أنهن يأتين ليبحثن عمن يقدم لهن بعض المال مقابل الليلة.. أعلم أنه لا مبرر يمكن أن يدفع المرأة لتفعل ذلك، لكنني تعودت ألا أنصب نفسي حكمًا على الآخرين.

أخبرني (فريد) أن الفقر شديد القسوة، وأن أسراَ كاملة هنا ليس لها من يعولها، والحكومة لا تقدم أي شيء، لذلك ليس غريباَ أن ينتشر هذا الأمر لدى أناس لا تكفي دخولهم لإطعام أطفالهم في بعض الأيام.

عندما عدنا من السوق، طلبت من (فريد) أن يحمل معي المشتريات إلى الداخل، فرحب وحمل معي الحقائب البلاستيكية الكثيرة، وتلك التحف الملفوفة في أوراق الجرائد. وعند بوابة الأمن سأله الحارس عن وجهته، فأخبرته أنه معي فأومأ الحارس مستجيباَ.. وفي البهو طلبت منه الجلوس على أحد الكراسي حتى أصعد إلى الغرفة لأضع الأغراض، ثم أعود إليه لأعطيه ماله مقابل رحلة اليوم، فأخبرني أنه يمكن أن يحصل على المال في الغد، فتمسكت بانتظاره حتى أعود بأجرته شاكراَ له تواجده معي كل ذلك الوقت.

عندما عدت كان (فريد) واقفًا في إحراج، وأمامه إحدى موظفات الفندق تسأله في عنجهية عن سبب تواجده وتطلب منه الانتظار عند البوابة، فأقبلت نحوهما في سرعة وسألتها في لهجة جافة عما تريد، فافتعلت الابتسامة وأخبرتني أنها لا تعرف سبب انتظاره، وتطلب منه إن كان متواجدًا كي يقل أحدًا أن ينتظر عند البوابة، فأخبرتها أنه صديق، وهو ليس هنا كي يقلني، بل هو مدعو لتناول العشاء هنا.. ويبدو أن كلاهما لم يستوعب كلامي في سرعة؛ فقد نظرت لي المرأة في عدم فهم، وشعر (فريد) بأنه يسبب لي الحرج وحاول أن يقول شيئًا، فطلبت منها في حزم أن تحجز لي طاولة لاثنين، فرسمت ابتسامة مفتعلة، ثم أومأت مذعنة، وذهبت.

حاول (فريد) أن يخبرني أنه لا يريد أن يتسبب لي في الحرج، وهو يعلم أنه لا ينتمي لهذا المكان، فأخبرته أن تواجده يعطي شرفًا للمكان، وتمسكت بدعوته على الطعام وسألته عن الطعام الذي يحبه، فأخبرني أنه يحب الدجاج، وابتسم شاكراَ في امتنان.

لم أكن أعلم أن هذا الرجل شديد الثقافة إلى هذا الحد، كنت أتنبه في بعض الأوقات أنني أتحدث إلى سائق (البودا بودا).. أما باقي الوقت فقد كنت أتخيل الرئيس الأمريكي (أوباما) وهو يتحدث، كان يشبهه حقًا في الملامح وطريقة الإلقاء، لكن هذا الرجل كان أكثر صدقًا وتلقائية، وقد وصف لي بشكل دقيق أموراَ عن التجارة والزراعة وسبب الأزمة الاقتصادية بطريقة لا يستطيع محلل اقتصادي أن يرويه بهذه الدقة والإتقان.

لم يكن (فريد) يأكل تقريبًا، فتباطأت في الطعام أنا الآخر حتى انتهى الحديث الشيق ولم ينته الطعام، فسألته شاكرًا أن يحصل على طعامه المتبقي معه ووافق، فأخبرت النادل أن يعبئ الطعام كله كي آخذه معي.. وقبل أن يرحل ابتسم وأشار إلى الطعام الذي يحمله وشكرني على كل شيء، وأخبرني أنه سيجلب لي هدية في المقابل، فشكرته وأعطيته أجره عن رحلة اليوم.

انصرف (فريد) يخطو خارجًا من الفندق في ثقة، ونظرت إليه وهو ينصرف، وكأنني أشعر بخطواته أصبحت أكثر خفة وظهره أقل انحناء. أليس رائعًا أن يحصل المرء على فرصة كي يجرب أمرًا لم يجربه من قبل!؟ أن يشعر أنه يستحق الحياة مثل الآخرين! بالتأكيد هو أمر رائع، والأكثر روعة أن يكون المرء سببًا في إسعاد إنسان.

لم يعد للأيام أي معنى..

أقضي معظم أوقاتي جالسًا أحدق في عقارب الساعة التي تتحرك بلا توقف تسعى بلا توقف دون أن تصل إلى شيء بعد كل هذا السعي الحثيث لتبدأ دورتها مرة أخرى، وأدور معها تائهًا بلا هدف نسعى للوصول إليه.

لكنني بعد أيام إجازتي التي امتدت كثيرًا، كنت مضطرًا للعودة إلى العمل بعد مكالمة هاتفية من (باسم) الذي أبدى تعاطفه، وفي نفس الوقت أخبرني على استحياء أن إجازتي الطويلة أصبحت مشكلة لدى الشركة، وهم يطالبونني بالعودة في أسرع وقت.

ولأنني لست ممن يملكون ترف الاستقالة دون مبررات، فقد عدت في الأسبوع التالي لتلك المكالمة لأحاول الوصول إلى تسوية ما تمكنني من مد إجازتي لفترة أخرى. جلست يومها في مكتبي لأتلقى العشرات من المصافحات وكلمات التعازي وأحاول رغمًا عني أن أبتسم في وجوههم، وأقابل كلماتهم بالشكر والمجاملة.

في ذلك اليوم أخبرني (باسم) أن هناك الكثير من العمل بانتظاري، ولكنه لن يثقل عليّ وسوف يتركني بضعة أيام أخرى لترتيب أموري والعودة من جديد، وسألني إن كان باستطاعتي متابعة بعض المشكلات الفنية البسيطة لدى عدد من العملاء خلال تلك الأيام، فاعتذرت في أدب؛ لعدم قدرتي على التركيز بشكل جيد، وسألته أن يوافق على إجازة أخرى بدون مرتب، لم يبدِ وقتها الاستياء، وتحدث معي لمدة ساعة أو يزيد في مكتبه الذي تطل شرفته على نهر النيل، وقضيت ذلك الوقت أنقل بصري بين (باسم) وبين نهر النيل الذي يلمع تحت ضوء الشمس من الشرفة خلفه كلما أفسحت لها السحب المجال لتلقي إليه بعضًا من أشعتها الدافئة، ولم أعي تقريبًا حرفًا مما قال، لكنه في الأغلب كان يبتسم ويضحك وربما كان يحاول التسرية عني ببعض الحكايات.

وعندما انتهت المقابلة كنت كمن قضى شهرًا في الحبس وحانت ساعة الإفراج، فطلبت من أحد الزملاء أن يغلق الحاسب الخاص بي وأسرعت ذاهبًا لأخرج من الشركة إلى الشارع، وقد ارتديت نظارتي الشمسية على الرغم من كون السحب الرمادية تكاد تخفي ضوء الشمس، إلا أنني كنت كمصاص دماء يخشى أن ترى عيناه أي بصيص من الضوء.

كنت أسير في خطوات سريعة وقد أحنيت رأسي قليلًا. وعندما رفعت رأسي كانت تقف أمامي، وقد استندت إلى سيارتي، وعقدت يديها، وكأنها تنتظر منذ فترة، وعلى وجهها ارتسمت ابتسامة هادئة.

ـ "ريم!"

لا أعرف ما هي التعبيرات التي رأتها على وجهي في تلك اللحظة؛ لأنها ضحكت بشدة وهي تنظر لي، قبل أن تقول:

ـ "هل رأيت شبحًا!؟"

هززت رأسي نفيَا في سرعة وأنا أقول:

ـ "لا بالطبع، لكنني لا أنكر أنني قد تفاجأت بوجودك"

ـ "لك الحق في ذلك"

ـ "هل هي مصادفة أن تكوني هنا في ذلك الوقت؟"

عادت لتبتسم في هدوء:

ـ "نعم هي مصادفة؛ فأنا أنتظر في هذا المكان منذ ساعتين كاملتين لأنني لم أخمن موعد خروجك بشكل صحيح"

عدت أقول في تعجب:

ـ "كيف عرفت أنني قد عدت إلى العمل!؟"

-ـ "الأمر بسيط. لقد اتصلت بهم في عملك، وأخبرتهم أنك قد اقترضت مني مبلغًا من المال قبل اختفائك، وطلبت منهم أن يبلغوني بمجرد عودتك إلى العمل، وقد كان"

قلت في عدم تصديق:

ـ "أنتِ تمزحين بالتأكيد!"

ضحكت، وهي تقول:

ـ "نعم أمزح.. لقد اتصلت بك في المنزل هذا الصباح، وعرفت من والدك أنك قد ذهبت إلى العمل لمد فترة إجازتك، إلا أنني وجدت الأمر مبالغًا فيه أن أسأله إن كنت سوف تنصرف مباشرة أم ستقضي اليوم في العمل؛ لأنه بالتأكيد سوف يشك في كوني أطاردك"

ابتسمت محاولًا مجاراة دعاباتها، وأنا أقول:

ـ "بالتأكيد كان الأمر ليبدو مريبَا"

أشارت إلى سيارة تقف أمام سيارتي وهي تقول:

ـ "هيا بنا"

ـ "إلى أين؟"

ـ "سوف تترك سيارتك، وتأتي معي.. ولا تخف، سأعيدك سالمًا"

تفاجأت من كلماتها، فابتسمت مجاملًا في صمت، ولم أجد ما أقول، فهززت كتفي، ثم أشرت لها بالموافقة، لتنطلق بنا دون أن أسألها إلى أين.

كنا نقترب من ذلك المقهى المطل على النيل، حيث اعتدت أن أجلس وحدي في تلك الأيام الصعبة.

تمنيت ألا تتوقف هناك، لكنها على الرغم من رجائي الصامت توقفت، وطلبت مني النزول، لأعلم أنها كانت تقصد هذا المكان تحديدًا.

جلست صامتًا لبعض الوقت أرشف فنجان القهوة في هدوء، بينما أنهت هي عصير البرتقال ووضعت الكوب أمامها، ثم نظرت لي بتلك النظرة الطفولية الباسمة وهي تقول:

ـ "يعجبني هذا المقهى"

حاولت ألا يبدو على وجهي أي تعبير يشير إلى ذكرى هذا المكان في نفسي، ولكنني تنهدت وأنا أقول:

ـ "نعم، مكان لطيف"

أومأت (ريم) في حماس..

ـ "النظر إلى النيل يريح الأعصاب"

أطبقت فمي، وهززت رأسي موافقًا، محاولًا اصطناع تعبيرات إيجابية، إلا أن زاوية فمي توترت رغمًا عني، فعادت تقول وكأنها تعرف كل شيء:

ـ "ويثير الذكريات أيضًا في بعض الأحيان"

لم أفهم في بادئ الأمر ماذا كانت تعني بتلك الكلمات، ولكنها أرادت أن تريحني من عناء محاولة الاكتشاف فقالت:

ـ "أعرف أن هذا المكان ارتبط لديك بالكثير من الذكريات الأليمة"

قطبت حاجبي، وتوترت، وهممت بالسؤال، فأردفت في صوت يمتلئ بالعطف:

ـ "لقد أخبرتني قبلًا أنك كنت تأتي إلى هنا وحيدًا أثناء مرض والدتك"

أثارت تلك الكلمات شجوني، فامتلأت عيني بالدموع، وأحنيت رأسي أحاول إخفاء ما ألم بي، قبل أن أقول في صوت مختنق:

ـ "ولِمَ نحن هنا الآن!؟ أليس من الأفضل أن أبتعد عن كل ما يذكرني بتلك اللحظات!؟"

ـ "لقد قلتها بنفسك.. نحن هنا الآن.. لست وحدك كما مضى"

نظرت لها لثوان أفكر في معنى كلماتها، فابتسمت، ورفعت كفها في براءة وهي تقول:

ـ "لا تفكر في الأمر من تلك الناحية.. لست أدفعك لعلاقة عاطفية ما"

قلت متهكمًا:

ـ "لن يكون الأمر في مصلحتك بكل تأكيد"

هزت كتفيها، وعلى شفتيها ذات الابتسامة البريئة"

ـ "لا تدري من سيكون الخاسر في تلك الحال، لكنني أعتقد أنك ستجيد فهم ما أعنيه جيدًا إن كنت قد أحسنت الحكم على طبيعة شخصيتك"

ـ "سأحاول ألا أخيب ظنك"

ـ "سيكون ذلك رائعًا، دعني أخبرك سرًا صغيرًا قبل أن أتكلم، وأرجو ألا يغضبك كثيرًا"

ابتسمت وأنا أقول:

ـ "تفضلي"

ـ "أنا لا أحب أصحاب العيون الملونة، لذلك أنت لا تثير إعجابي من هذه الناحية"

رفعت حاجبي، وابتسمت متهكمًا، وكأنني أحاول إخفاء إحراجي وأنا أقول:

ـ "لم يكن هناك داع لكل كلمات المجاملة تلك"

تنحنحت كأنها تبدأ صفحة جديدة في الحديث، قبل أن تقول:

ـ "لكن دعني أخبرك أمرًا آخر.. وهو أنني أجدك إنسانًا رائعًا شديد الصدق ويسعدني أن أكون بجوارك في تلك اللحظات"

ابتسمت في صمت منتظرًا أن تكمل حديثها، فعادت تقول:

ـ "لقد تحدث معي والدك اليوم بشأنك"

ـ " هل أصبحتِ ووالدي صديقين تتحدثان في أمور تخصني؟"

ـ "ليس إلى هذه الدرجة، لكنه يحبك كثيرًا، ويخشى أن إهمالك العمل ومد إجازتك إلى أجل غير مسمى (كما تقول) ليس في مصلحتك"

ـ "لا طاقة بي لأي شيء في هذه الفترة"

قالت في قوة، وكأنها تريد أن تدفعني للغضب:
ـ "هل أنت بهذا القدر من الاستسلام!؟"
ـ "ربما!"
ـ "بالتأكيد لا.. يمكنني أن أجيد الحكم على الآخرين، وثقتي أنك لست ممن ينهزمون أمام الآلام"
قلت متهكمًا:
ـ "لقد خانتك قدرتك هذه المرة"
ـ "دعنا نجرب"
ـ "ماذا تعنين؟"
ابتسمت في وداعة، وهي تقول:
ـ "اسمح لي بمساعدتك، ودعنا نرى"
ـ "يمكنني أن أوافق على مساعدتك لي، لكنني لا أضمن لك النتائج"
ـ "ماذا تعني؟"
ـ "لا يمكنك مساعدة الغريق إن لم يكن لديه رغبة حقيقية في الحياة"
ـ "عليك أن توافق فقط، ويكفيني ذلك"
ونظرت لي، وابتسمت في سعادة طفولية، ورأيت نهر النيل ينعكس في عينيها العسليتين تحت أشعة الشمس، فبدتا كنهر من العسل.

نظر لي الرجل الجالس القرفصاء أمام النار، وعرفت أنه لم يكن سوى (راموس). وانتظر هو في مكانه لبعض الوقت، ثم قام ليقترب منا في خطوات بطيئة مترددة، ثم وقف مواجهًا إيانا لثوان دون أن يتكلم، قبل أن يقول في حزن، وهو ينظر إلينا وفي عينيه دموع لا نعرف هل هي دموع الندم أم الخوف:

ـ "لم يكن بيدي شيء.. سامحني.. كان لابد من تقديم التضحية"

كان (فريد) يتألم في صمت، وقد أغمض عينيه وألقى برأسه إلى الوراء مستندًا إلى جذع الشجرة.

ـ "لماذا يا (راموس)!؟؟"

قلتها في لوم يائس، وقد بدا لي أنه لم يعد هناك أمل في مخاطبة ضميره في تلك اللحظة، وخاصة أن الطقوس كما أخبرني (فريد) قد بدأت، وربما لم يتبقَ لها إلا وقت قليل حتى تنتهي.

أجابني (راموس) في صوت يمتلئ بالخزي:

ـ "لم يكن بيدي أي حل آخر! والتضحية هي أملي الأخير"

ـ "أي أمل يعززه الموت!!؟"

ـ "أمل الحياة يا أخي"

ـ "لا أفهمك!"

بكى (راموس) وهو يقول:

ـ "الموت يأكل جسدي منذ أعوام.. لقد أصبح الأمر وشيكًا جدًا ولم أعد أحتمل. لو كنت مكاني لما توانيت في البحث عن سبيل للنجاة"

قلت في غضب:

ـ "لو كنت مكانك لما بحثت عن حياتي في موت آخرين، حتى وإن كنت أصدق تلك الخرافات!"

تغيرت لهجته فجأة لتميل إلى الحدة، وكأنني أسحب من تحت قدميه ذلك الأمل الذي يتمسك به.

ـ "ليست خرافات!"

حاولت التخفيف من الأمر كي لا أثيره ضدي وأنا في موقف التفاوض فعدت أقول:

ـ "ولماذا نحن يا (راموس)!؟"

عاد صوته يكتسي بالحزن وقلة الحيلة، وهو يقول:
ـ "لم يكن هناك ما يمكنني فعله؛ لقد كان عليّ الاختيار بين طفلي وبين شخص آخر.. لقد كانوا يريدونني أن أقدم طفلي كأضحية للشفاء"
قلت في ذهول:
ـ "طفلك!؟ هل كنت ستضحي بطفلك!!؟"
ـ "أضحي بأي شيء كي أستعيد حياتي. أنت لا تعرف كيف يؤلم المرض اللعين"
ـ "لا أعرف يا (راموس)، لكنني لا أعرف أي قلب ميت يفعل هذا بولده!!"
ـ "ليس الأمر هينًا بالتأكيد"
ـ "لذلك أقنعتهم أن يقبلوا بنا بدلًا منه"
أومأ (راموس) برأسه إيجابًا وهو يقول:
ـ "أقنعتهم أن يقبلوا بك"
قلت متعجبًا:
ـ "ولم أنا بالذات!؟"
ـ "إن لم أقدم طفلًا فيجب أن يكون الرجل طاهرًا، وقد أثبتّ لي ذلك يوم التقيتك في السوق ورفضت إغواء الفتاة"
تذكرت الأمر، فعدت أقول في سرعة محاولًا إرباكه:
ـ "من قال أن معنى رفضي لإغواء الفتاة هو دليل على طهارتي!؟ أنت مخطئ بكل تأكيد"
ـ "لا أعتقد ذلك، وحتى إن كنت فليس هناك سبيل سوى التجربة"
تنبهت في تلك اللحظة إلى سبب دخولنا الغابة، وذلك الطريق الذي أقنعنا (راموس) باتخاذه.
ـ "كان كل شيء مرتبًا إذن! سلكت طريق الغابة كي تصل بنا إلى هنا. لولا أن مهاجمة الفيل للسيارة كاد أن يغير المخطط"
أومأ (راموس) برأسه في خزي، فعدت أقول:
ـ "اتركوا (فريد) إذن.. لا حاجة بكم إليه"
هز (راموس) رأسه نفيًا في أسف:
ـ "لم يعد ذلك ممكنًا.. لقد شهد الأمر، ولم يعد من المفترض أن يعود"

لم أجد ما أقول، وقد بدا أنهم قد اعتزموا الأمر بلا نية في الرجوع، وأخذت أنقل بصري في حيرة بين (فريد) الذي أغمض عينيه في استسلام و(راموس) الذي وقف أمامنا كشيطان خائن ينتظر أن تنتهي حياتنا لتبدأ معها حياته من جديد.

عزيزتي ريم..

اليوم دعاني (باتريك) مدير الشركة الإنجليزي مرة أخرى على الغذاء في مطعم هندي رائع.. (Khana Khazana). المكان مبهر بدايةً من بوابته الخشبية الضخمة التي تشبه القصور وحديقته الهادئة الجميلة المزينة بالورود، وطاولاته الأنيقة ذات الأغطية المطرزة بالطريقة الهندية، بالإضافة إلى تلك الشموع الجميلة التي تضفي على المكان طابعًا روحيًا ساحرًا.

لم يترك لي حقًا عناء الاختيار بين تلك الأصناف الغريبة، وعرض علي المساعدة، ورشح لي بعض الإطباق التي جربها سابقًا وأعجبته، وحذرني من أن معظم الطعام حار للغاية، ثم أوصى النادل بأن يخفف من حدة البهارات في أطباقي قليلًا.

كان الطعام رائعًا، وأحببت صحبة الرجل الذي قارب على الستين، أجد الأمر قيمًا في بعض الأوقات أن أجالس هؤلاء الأشخاص الذين تقدموا في العمر وصارت نظرتهم للحياة أعمق وأكثر وضوحًا.

حكى لي باتريك عن حياته وزوجته التي رحلت منذ أعوام، وتحدث هذه المرة من قلبه كما لو كان يشتاق للتحدث عنهم ولا يجد من يتحدث إليه هنا، أو ربما لأنه لن يراني بعد أيام قليلة عندما تنتهي مهمتي في (أوغندا).

أخبرني أنه تزوج عندما كان في الخامسة والعشرين من عمره، وكانت (ساندرا) في مثل سنه تقريبًا، فتاة رائعة كالقمر المضيء أحبها منذ النظرة الأولى وعرض عليها الزواج بعد اللقاء الثاني، وضحك كثيراً عندما تذكر رد فعلها إزاء الأمر وكيف عاملته كمجنون قبل أن تتأكد من صدق مشاعره، وتوافق على أن تكون معه حتى يفرقهما الموت.

كان يبتسم في سعادة عندما يروي لي بعض المواقف، وأشعر بعينيه تلمعان كما لو كان شابًا صغيراً من جديد مع كل ذكرى جميلة. حدثني أيضًا عن ابنته الوحيدة (إيلا) التي أثمرها هذا الزواج بعد عامين وكيف كانت حياتهما كالجنة في وجود هذا الملاك الصغير، ابنته الآن متزوجة وتحيا في (لندن)، ويزورها بين الحين والآخر ويتصل بها يوميًا ليحادث حفيده (آلان) ذا الأعوام السبعة.

(باتريك) تبقت له سنة واحدة يحال بعدها إلى المعاش، ليعود إلى (لندن) حتى يكون بجوار ابنته وولدها الصغير.

وعندما أقبل النادل بأطباق الطعام توقف (باتريك) عن حكاياته، وبدأ يوصيني بتذوق بعض الأطباق أولًا كي أتأكد من ملائمة حرارة التوابل لذوقي، ويحدثني عن المكونات بكل طبق وطريقة طهوه، حتى أنني مازحته بشأن ذلك الشغف بالطعام الهندي، فأخبرني أنه يحب الثقافة الهندية كثيراً، ويتناول طعامه في هذا المكان مرة على الأقل كل أسبوع وقد لاحظت فعلًا أن جميع العاملين هنا يتعاملون معه بترحاب نابع من القلب، وكأنه فرد من العائلة قد أقبل للزيارة.

كان الطعام حارًا للغاية لكنه كان جيدًا.. الشاي الهندي جميل أيضًا، يقدم في براد مزركش رائع وأكواب صغيرة جميلة الشكل، تجربة لا بأس بها من كل النواحي.

عندما عدت إلى الفندق كنت مازلت أفكر في كلمات (باتريك) عندما سألته عن حاله بعد وفاة زوجته وكيف تجاوز الأمر، فأخبرني أن هناك أمورًا في الدنيا لا يتم تجاوزها، ولكن عليك أن تتركها تمر، لا يمكنك أن تنسى شخصًا أحببته أبدًا مهما حاولت؛ سوف تكون كمن يريد أن ينتزع جلده عن لحمه، لكن يمكنك أن تعتاد الألم مع الوقت حتى تنساه.. ثم مع مرور وقت أطول يمكنك أن تتذكر الألم لتستمتع بالذكرى؛ فما نحن إلا تلك المشاعر التي مرت بنا خلال الحياة بحلوها ومرها.

كنا جالسين نتأمل الأضواء المتلألئة على صفحة النيل في صمت طويل.. كانت الحياة قد أصبحت عندي حلمًا قصيراً، أفسده أنني قد تنبهت إلى حقيقته، وعرفت أنني لابد مستيقظ، فراحت مني متعة أي شيء يحدث لي فيه.

والتفت لي صديقي (زكريا) بوجهه الوقور الهادئ، وملامحه التي تحمل حزنًا لا ينتهي، كان قد عاد لتوه من (كندا)، حيث يقيم منذ سنوات في زيارة قصيرة لأهله في (مصر)، ولم يعلم بخبر الوفاة إلا بعد عودته.

ابتسمت عندما نظرت إليه ورأيت وجهه المتأمل. كان (زكريا) صديقًا منذ أيام الجامعة، لم نكن نلتقي كثيراً، لكنني كنت أحب أن أسمع كلماته الحكيمة؛ فعلى الرغم من أنه لا يكبرني سوى بعامين إلا أنه اختبر بعض الجماعات الصوفية في سنوات شبابه الأولى، فأعطى ذلك لشخصيته بعضًا من الحكمة والوقار، لم تغيرها سنوات سفره الطويلة.

ـ "صدقني لم يخبرني أحد بأمر الوفاة إلا بعد عودتي منذ يومين"

نظرت إليه مهونًا الأمر، وأنا أقول:

ـ "لا عليك، أعرف هذا"

تنهد وهو يقول في حزن:

ـ "البقاء لله يا صديقي"

ابتسمت، وأنا أقول مغيراً مجرى الحديث:

ـ "كيف حال بلاد الفرنجة؟"

ابتسم بدوره وهو يقول:

ـ "لا بأس بها، الحياة ليست هينة في أي مكان"

عدت أبتسم مازحًا وأنا أقول:

ـ "لا تقلق؛ لن أحسدك، أنت تعرفني جيدًا"

ضحك، وربت على كتفي، ثم نظر إلى النيل، وبدا أنه سرح بتفكيره بعيدًا.

ـ "ماذا بك؟"

سألته عن سر ذلك التفكير، فهز رأسه كالحالم، وهو يقول:

ـ " هل تصدق أن كل ما نحياه لا يعدو أن يكون سرابًا!؟"

ابتسمت في خفوت؛ فقد كان يتكلم عما يدور بداخلي في تلك اللحظة.

- "بالتأكيد"

عاد ينظر إلى النيل وهو يقول:

- "هل تذكر الأمس؟ أين هو الآن؟ هل نستطيع استعادته أو استعادة أي سعادة مرت بنا فيه!؟ كل شيء ذهب، حتى السعادة والألم في ذلك اليوم أصبحا مجرد ذكريات.. أين التفاحة التي كانت بيدك ثم أكلتها؟ ألا زلت تذكر طعمها في فمك؟"

ثم ابتسم في مرارة، وهو يتابع:

- "ما كل ذلك إلا وهم نحياه، ثم يُمحى كالسراب"

لم أقاطعه؛ إذ كان يتحدث بما يدور في خاطري تمامًا، فعاد يقول:

- "لا زلت أذكر أبي، وهو في أوج قوته عندما كنت طفلًا، ثم بعد ذلك وأنا أحمله بين يدي جسدًا بلا حراك ولا روح.. هل كان هو ذاته؟ بالتأكيد لا.. لقد ذهبت الروح.. الشيء الوحيد الحقيقي في تلك الحياة"

- "أنت على حق.."

عاد ينظر لي وقد أخذته الحماسة:

- "هل ترى فرقًا بين الحلم واليقظة؟"

وتوقف عن الكلام ينتظر مني الإجابة، فهززت كتفي وأنا أقول:

- "لا أدري"

- "في الحلم تشعر بذات الأشياء مثل يقظتك، يمكنك أن تأكل وأن تشم العبير وأن تشعر بلسع النار على يدك.. إذن ليس جسدك هو من يحيا ولكنها روحك.. هل تفهمني؟"

ابتسمت وأنا أقول:

- "هل تحاول أن تدفعني معك للجنون؟"

ابتسم وهو يقول:

- "أنا لست مجنونًا"

- "أعلم هذا، أنا أمزح معك، ولكن الحقيقة أنني أفكر تمامًا فيما تفكر فيه؛ فمنذ رحلت والدتي وأنا لا أشعر بأي طعم لتلك الحياة.. لا أستمتع بأي لذة؛ لأنني أعلم أنها وشيكا ستنتهي.. هل تعرف ذبابة مايو؟"

قطب حاجبيه، ونظر لي في تعجب:

ـ "ذبابة مايو!؟"
أومأت برأسي، وأنا أقول:
ـ "نعم، ذبابة تولد وتتم دورة حياتها يومً واحدًا.. تولد، وتحيا، وتأكل، وتتزاوج، وتضع البيض، ثم تموت في نهاية اليوم.. يوم واحد هو كل حياتها.. أتساءل أحيانًا إن كان هذا مثلًا يضربه الله لنا كي نعلم مدى قصر الحياة"
أشرق وجهه كمن تنبه إلى شيء، وهو يقول:
ـ "أنت على حق، نحن ذبابة مايو، ويومنا هو تلك الحياة"
كنت ما زلت أفكر في كلمات (زكريا)، عندما ارتفع رنين هاتفي المحمول..
إن الحياة أقصر كثيراَ مما نعتقد.. ما فائدة الوقت الذي نضيعه من أجلها!؟ بل ما فائدة أي شيء فيها من الأساس!؟
لحظات قصيرة ثم تنتهي، بعدها نترك كل شيء كما جئنا ونذهب ليفنى كل أثر لنا مع الوقت، حتى لا يذكرنا أحد على الإطلاق بعد سنوات!
نظرت إلى الرقم الذي ظهر على شاشة الهاتف في شرود..
ما الذي يجعلنا نتحمس لأي شيء ونحن نعلم نهايته!؟ ما الذي يجعلنا نرهق أنفسنا كي نتنفس!؟ يا لثقل هذا الهواء الذي يدخل إلى صدري! ويا له من مجهود مرهق بالنسبة لي!
كان الرقم مألوفًا، لكنني لم أستطع أن أتذكر صاحب الرقم الذي عاد ليتصل من جديد في إصرار. ضغطت زر الرد ورفعت الهاتف، لأضعه على أذني وأجيب في صوت خرج من حلقي بالكاد. كان الصوت على الطرف الآخر مألوفًا لم أعرفه لثانية، لكن عقلي عاد إلى العمل تدريجيَا ليدرك أنها (ريم)، التي لاحظت أنني لم أستوعب الأمر فضحكت وهي تقول:
ـ "هل نسيتني بهذه السرعة!؟"
قلت نافيَا في إحراج:
ـ "لا، أنا فقط شارد قليلًا"
ـ "لا بأس، أين أنت الآن؟"
تلفت حولي لأتأكد من موقعي. كنت قد تركت (زكريا) منذ نصف ساعة وأخذت أسير دون أي اتجاه محدد.

ـ "تقريبًا في (الدقي)"

ـ "هذا رائع. لقد أنهيتُ عملي للتو وأريد أنا وصديقتي (نهى) أن نخرج للعشاء وسوف تصحبنا"

قلت في سرعة، وقد أزعجتني الفكرة:

ـ "لا، اسمحي لي، لست في مزاج يسمح بذلك"

قالت مستعطفة في اصطناع طفولي:

ـ "هل ستتركنا وحدنا في هذا الوقت!؟"

نظرت في ساعتي، كانت الساعة لازالت السادسة والنصف مساء..

ـ "تمزحين بالتأكيد"

ـ "لا، أنا أعني ذلك.. سوف تصحبنا للعشاء ثم تعيدنا إلى منازلنا. لقد أخبرت أمي أنك سترافقنا"

ـ "لماذا تشعرينني أننا إخوة في الرضاع دون أن أدري!؟"

ضحكت (ريم) حتى أنني كدت أضحك لضحكاتها المتواصلة، قبل أن تتمالك نفسها وهي تقول:

ـ "لا تُضع الوقت في الجدال.. أين أنت الآن تحديدًا؟"

لم أجد مفرًا من إخبارها بموقعي الحالي، فطلبت مني أنت أنتظر حيث أنا كي تمر عليّ بسيارتها، ثم أنهت الاتصال.

تتقافز الأجساد الأبنوسية أمام النار المشتعلة، يصنعون رقصة الموت أو التضحية أيًا كان ما يعتقدون فيه، بينما يتركنا (راموس) ويعود ليجلس من جديد جلسته المنحنية أمام النار ويستمر المرنم في أداء ألحانه المقبضة، بينما يقترب آخر من (راموس)، ويقدم إليه كأسًا ما، فيتناولها الأخير ويجرع ما فيها دفعه واحدة ثم يعيدها إليه. أبتلع ريقي في صعوبة وقد جف حلقي تمامًا، وألتفت إلى (فريد) الذي كان يتأمل في صمت حتى أنني شعرت بالقلق بشأنه. لم أكن أعتقد أن هذه الأمور مازالت تحدث، أو أن أحدًا يعتقد أن السحر قد يعالجه من المرض، خاصة وأن ذلك الأمر لا يقتصر على مجرد طقوس وتعاويذ، لكن أيضًا على التضحية بأرواح آخرين!

أخذت أحاول التخلص من الحبال التي قيدت يدي إلى الشجرة، لكن من قام بعقدها قد أتقن عمله فأصبح من الصعب الإفلات منها. يجيدون عملهم جيدًا هؤلاء السحرة، فما الذي يحدث إن أفلتت إحدى ضحاياهم بعد كل ذلك المجهود الذي يتم بذله في القفز والرقص حول النار!؟

أتأمل الأمر وأحاول أن أقاوم الشعور بالضحك الهيستيري الذي يكاد يتملكني. ما الذي يحدث لي!؟ هل ستنتهي حياتي بهذه الطريقة الحمقاء، ثم أعد في النهاية مفقودًا في رحلة غير شرعية إلى الغابات!؟

تدفعني حماقتي دائمًا لأمور لم تكن في الحسبان، وأستمر في كوني ذلك الأحمق الذي يقع في الفخ، مازلت ألعب ذات الدور في حياتي كلها.

وتنبهت إلى أمور لم تمر بخاطري من قبل. لقد كان كل شيء مرتبًا منذ البداية! تذكرتُ كيف رأيت (راموس) في المرة الأولى، وكيف لم ألحظ أنه منذ الوهلة الأولى يحاول دفعي لتلك الرحلة تحديدًا، وأنه هو من اختار الموعد وأقنعنا أنه الوقت الأنسب لتلك الرحلة.

ـ "إلى متى قد يطول الأمر؟"

سألت (فريد) وقد بدأت أقاوم فقدان الوعي بشدة من التعب، فالتفت لي قبل أن يرفع رأسه إلى السماء لحظات، ثم يقول:

ـ "لابد أنهم ينتظرون ظهور القمر في السماء لإنهاء الطقوس"

ـ "القمر!؟"

رددت الكلمة في عدم فهم في البداية، ثم تنبهت إلى أمر..

كان كل شيء مرتبًا ومحددًا إذن كي يكون في وقت اكتمال القمر؛ حيث يعتقدون أن تلك الطقوس تؤتي ثمارها بشكل أكثر فعالية في ذلك الوقت تحديدًا.

لم يعطل الرحلة بعض الوقت سوى ذلك الفيل الثائر الذي اعترض طريقنا، لكن كل شيء مازال على ما يرام. ها أنا ذا مقيد إلى الشجرة في انتظار أن يقتلعوا أمعائي أو يصنعوا ثقبًا في جمجمتي ويستخدموها ليصنعوا أمرًا سحريًا ما، يعتقدون أنه قد يفلح في شفاء مريض. قرأت يومًا أن مريض (المهاق) يقومون بقتله واستخدام دمه في البلاد السمراء لاعتقادهم بوجود قدرات سحرية كامنة فيه، لذلك هي لعنة أن تكون مريضًا بالمهاق -الذي نطلق عليه في مصر (عدو الشمس)- في بلدة من البلاد الإفريقية تلك.

يعلو صوت الطبول ويرتفع صوت الترنيم في حماس..

أنظر إلى السماء فأجد السحب قد أزاحت الستار عن القمر..

لقد اقترب الوقت؛ فهم ينتظرون ظهور القمر جليًا في السماء!

عزيزتي ريم..

فاجأني اليوم (فريد) بأمر أثر في نفسي كثيراً. وجدته اليوم في انتظاري على بوابة الفندق، وفي يديه شيء ملفوف بأوراق الجرائد، وعلى شفتيه ابتسامة طيبة، ثم أعطاني ما في يديه، وأخبرني أنها هدية اشتراها لي لكي أذكره بها بعد عودتي. كان قد اشترى لي قميصًا من السوق، ذلك القميص الذي تفحصته عندما كان برفقتي. لقد لاحظ أنه أعجبني لكنني لم أجد اللون الذي أريده وقتها، ووجده هو فاشتراه لي، بالإضافة إلى هذا اشترى لي وشاحًا أخبرني أنه لصديقتي التي اشتريت لها الثوب بالأمس.

كنت أعلم ثمن هذه الهدايا جيدًا، وأعلم أن (فريد) قد أنفق معظم ما أعطيته إياه لشراء تلك الأشياء، وعلى عكس ما يقول الأجانب في الشركة عن الأوغنديين وجدت أن (فريد) قد ترك لدي صورة رائعة عن هؤلاء القوم.

لم أستطع رفض هديته، على الرغم من حزني الشديد على إنفاقه كل ذلك المال، لكن ذلك الشعور الذي رأيته على وجهه ذلك اليوم كان يستحق. كان يشعر بأمر مختلف، لم يكن اليوم مجرد سائق (بودا بودا) يحيا من أجل بضع دولارات يجنيها في نهاية كل يوم.

قلت له أن هديته رائعة، وكيف أنني أقدّر ما فعل، إلا أنني حزين لكونه أنفق أجر أسبوعه بالكامل، فابتسم مثل طفل سعيد، وأخبرني أنه يقدّر وجودي كصديق، وكيف أنني من استحق الأجر عن الأسبوع الماضي؛ فقد استمتع كثيراً بالرحلات التي ذهبنا إليها، وأنني جعلته يرى أشياء لم يراها من قبل، وكيف أن زوجته (ماريا) وجدته سعيدًا بشكل لم تره منذ فترة طويلة، فأخبرها عني وعن معاملتي الطيبة، وأخبرني أنها ترسل لي محبتها ودعوتها لي في بيتهم المتواضع للغداء في الوقت الذي أحدده.

شكرته على عرضه الكريم، وسألته أن يشكر زوجته، وأنني سألبي تلك الدعوة قريبًا جدًا.

والحقيقة أننا جميعنا بحاجة إلى من يشعرنا بأهمية وجودنا في الحياة..

بحاجة إلى تلك اليد التي تمتد لتمسك بأيدينا بعد أن يجذبنا الموج وندور في دواماته بلا هدف، ونفقد مع الوقت إحساسنا بالأشياء.

في ذلك المطعم الذي اختارته (ريم) جلسنا سويًا، وقد حاولت التشاغل بتأمل قائمة الطعام، بينما ابتسمت (ريم) وهي تقوم بالتقديم الثاني لتعريفي بصديقتها.

ـ " كما أخبرتك، (نهى) زميلتي في العمل وصديقتي منذ الجامعة، وتستعمل نوعًا مماثلًا لعدساتك اللاصقة"

رفعت عيني أنظر إلى عيني (نهى)، فوجدتها قد فتحت عينيها الخضراوين، ورفعت حاجبيها في ذهول وحرج، قبل أن تقول محاولة نفي ذلك الاتهام عنها:

ـ "لا تصدق ذلك؛ أنا لا أرتدي عدسات لاصقة"

ابتسمت وأنا أقول:

ـ "أعرف ذلك.. هي تمزح بالتأكيد"

وللمرة الأولى منذ جلسنا ألحظ إن لها ملامح دقيقة جميلة وغمازتين، يحيط بهما شعرها البني القصير، بينما عادت (ريم) تضحك مازحة:

ـ "لا أعرف كيف تتحملون أنفسكم بتلك الأعين الملونة!"

قالت (نهى) على الفور تجاريها في المزاح:

ـ "دعك من هذا الحقد!"

ثم قالت موجهة كلامها لي:

ـ "لا تصدق من يقول أنه لا يحب الأعين الملونة.. إنها الغيرة تقتلهم فقط"

ابتسمت في صمت، ولم أعقب، فقالت (ريم) ضاحكة:

ـ "على كل حال سوف تنضجان يومًا ما، لا داعي للقلق"

ثم أشارت إلى (نهى)، وهي تقول:

ـ "نسيت أن أخبرك أن (نهى) بالإضافة إلى عينيها الخضراوين، تمتلك موهبة رائعة في علم الأبراج"

فتحت (نهى) عينيها في ذهول، ورفعت حاجبيها، وكأنها لم تتوقع أن تتحدث (ريم) في هذا الأمر، ثم قالت مازحة:

ـ "تبقى أن تخبريه أنني أقرأ الفنجان وآكل الضفادع على الغذاء!"

ضحكت (ريم) حتى دمعت عيناها، وصفقت بيديها، وهي تقول:

ـ "لا، ليس إلى هذه الدرجة"

عاد وجه (نهى) يكتسي بالمرح من جديد، وهي تقول:

ـ "حسنًا، بما أن (ريم) قد أثارت موضوع الأبراج، يمكنني إذن أن أسألك عن برجك الغربي؟"

كنت مهتمًا بالأمر إلى حد ما في فترة الجامعة، ليس من باب علم النجوم، ولكن من باب علم الفراسة، وكأنه تصنيف للشخصية حسب توقيت الميلاد دون أن أقرأ ما يخص ذلك الأمر من التنبؤات ودروب التنجيم.

ـ "هل أنتِ مهتمة بأمر الأبراج؟"

أومأت برأسها في حماس، وهي تقول:

ـ "أحب أن أقرأ في ذلك الأمر"

نظرت نحو (ريم) لأكرر السؤال، فأجابت بالنفي وأنها تنكر ذلك الأمر، وتطرق الحديث لبعض الجدل بينها وبين (نهى) حول الموضوع ومدى خضوعه للتحريم، فأخبرتهما أن الأمر لا يتعدى التسلية ولا دخل له بعلوم النجوم والتكهن بالمستقبل وخلافه، وإن تطرق الأمر إلى ذلك فهو محرم بنص الحديث الشريف، فعادت (نهى) تبتسم وكأن الجدال القائم بينها وبين صديقتها لم يكن من الأساس، ثم كررت عليّ السؤال فأجبتها عن برجي، فصفقت بيديها وهي تقول:

ـ "كنت أعرف هذا! لقد خمنت ذلك منذ اللحظة الأولى!"

قطبت حاجبي، وهززت رأسي متسائلًا، فتابعت قائلة:

ـ "سأخبرك مواصفات برجك، وأخبرني إن كنت على صواب"

أومأت برأسي موافقًا، بينما عقدت (ريم) يديها في اهتمام، وعادت (نهى) لتقول:

ـ "سأخبرك بالإيجابيات أولًا.. أنت رجل متفائل جدًا.."

قاطعتها متهكمًا على الفور:

ـ "بداية غير موفقة على الإطلاق؛ أنا أكثر الرجال تشاؤمًا"

ـ "لا، أنت أكثر الرجال تفاؤلًا وحبًا للحياة، ولديك حس رائع للدعابة، لكنك شديد الحساسية، تفقد حماستك سريعًا، وتشتعل جذوتك سريعًا أيضًا. أنت مثال حي لتقلب الفصول"

ضحكت (ريم)، وهي تقول مازحة:

ـ "في أي فصل أنت الآن!؟ أنا أرتدي ملابس صيفية"

لم تضحك (نهى) لدعابتها، ولكنها عادت لتقول:

ـ "رجل صادق، تمتلك قلبًا محبًا للجميع، كريم، وجريء جدًا"

ابتسمت قائلًا:

ـ "لا يمكن لرجل أن ينفي عنه هذه الصفات، حتى وإن لم تكن فيه؛ جميعنا نعتقد أننا أفضل البشر"

قالت (نهى):

ـ "ربما لا يرى المرء نفسه بشكل جيد، لكن إن كان برجك صادقًا فأنت كذلك"

هزت (ريم) رأسها، وكأنها تتعجل إنهاء الأمر، قبل أن تقول:

ـ "هذا جيد، هل نطلب الطعام الآن؟"

قالت (نهى):

ـ "يمكننا أن ننتهي من العيوب أولًا فهي ليست كثيرة. صراحتك المبالغ فيها قد تكون عيبك الأكبر لأنك لا تخفي ما في صدرك"

أومأت برأسي موافقًا إياها قائلًا:

ـ "يمكنني موافقتك على هذا الأمر"

ـ "تعشق الغزل لكنك تخشى الارتباط؛ إذ تسعى للهروب من كل ما قد يشكل قيدًا على حريتك"

نظرت إلى (ريم) مازحًا، وأنا أقول:

ـ "يمكننا أن نطلب الطعام الآن"

ضحكت (ريم) مداعبة:

ـ "لا، لقد بدأ الأمر يصبح ممتعًا.. ماذا أيضًا؟"

ابتسمت (نهى) وهي تقول:

ـ "لكنك على الرغم من ذلك تحب بصدق إذا أحببت، وتضحي بكل شيء من أجل من تحب"

كانت (نهى) شخصية لطيفة، ولم يكن الوقت برفقتها سيئًا على الإطلاق.. وفي طريق العودة أوصلناها إلى منزلها، قبل أن تنطلق (ريم) متجهة إلى منزلها وقد قرَرَت أن أظل مرافقًا لها في السيارة كحارس حتى تصل.. وفي الطريق بدأت تسألني عن رأيي في (نهى) بطريقة أثارت ارتيابي في الأمر.

ـ "لا أفهم سبب كل تلك الأسئلة"

قالت مبتسمة في براءة:

ـ "لا شيء سوى أنها فتاة رائعة، وبالتأكيد سوف تكون زوجة ممتازة أيضًا"

قلت في لهجة حازمة، محاولًا إنهاء الموضوع بشكل قاطع:
- "إن كنت تحاولين معرفة ما يدور بذهني الآن، فالوقت غير مناسب لهذه الأمور على الإطلاق، وربما لن يكون مناسبًا لفترة طويلة"
- "مشكلتك أنك لا تريد أن تفكر في الأمر. أعلم أنه ربما يكون التوقيت غير مناسب من وجهة نظرك، لكنه الأكثر ملاءمة، لكي تفكر في بداية جديدة لحياتك"
- "(ريم)، أنا لا أفكر في الزواج! وحتى إن فكرت فلن يكون بتلك الطريقة من فتاة رأيتها لمرة واحدة"
- "يمكننا أن ندبر المزيد من المقابلات"
- "لا، لن تكوني أول من حاول أن يقنعني بالزواج في تلك الفترة. ولن أوافق أبدًا على ذلك"
- "ما الذي يجعلك ترفض فتاة رائعة مثل (نهى)!؟"
- "أوافقك الرأي في أنها فتاة رائعة. لقد أبهرني تحليلها لشخصيتي اليوم، لكنني صدقيني موافقتي على الزواج منها في ذلك الوقت سوف تعني أنني بحاجة إلى طبيب نفسي وليس زوجة بكل تأكيد"
- "وما المانع أن تصبح زوجة لك وطبيبًا نفسيًا في آن واحد!؟ فكر في الأمر من هذه الزاوية"
- "لا يا (ريم)!"
نظرت لي في غضب، وضغطت على دواسة البنزين، وتوترت أعصابي، وأنا أراها تقود السيارة بتلك الطريقة، بينما عادت تقول:
- "لقد رفضت (نهى) عشرات ممن تقدموا لخطبتها، وأبدت لي إعجابها بك بعد أول مقابلة، أليس هذا أمرًا يستحق منك بعض المحاولة؟"
كدنا نصطدم بالسيارة التي أمامنا، فهتفت في سرعة:
- "احترسي من فضلك!"
عادت (ريم) تخفض من سرعتها قليلًا، فقلت:
- "هي تستحق الكثير من المحاولة، لكنني لا أستحقها من الأساس. هي فتاة جميلة ولطيفة وأنا رجل لا أميل للقيود. هي قالت ذلك بنفسها"
- "لا تختلق الأعذار"

قاطعتها في ضيق، وقد بدأت أمل من ذلك الحديث:

- "أرجوك يا (ريم)، هذا الأمر يخصني وحدي وليس لأحد أن ينتقد حتى طريقتي في التفكير فيه.. هل تفهمين ذلك؟"

كانت طريقتي جافة بعض الشيء رغمًا عني، ويبدو أن كلماتي خرجت قاسية رغمًا عني، فنظرت لي وصمتت لا تدري ماذا تقول. ورأيت في عينيها لمعة وكأنها ستدمع، قبل أن تقول في صوت مختنق:

- "كما تشاء"

كنا قد وصلنا إلى منزلها، فضغطت دواسة الفرامل لتتوقف في هدوء لتعلن انتهاء الرحلة. كنت أشعر بالذنب لطريقتي القاسية في الرد، فعدت أقول محاولًا تصحيح الأمر:

- "لم أقصد أن أكون فظًا في الرد.. سامحيني"

هزت كتفيها دون أن تنظر لي كي لا أري عينيها، ثم قالت:

- "لا عليك، لم يحدث شيء"

- "فقط ربما لم يحن الوقت المناسب للحديث في أمر كهذا"

أجابتني في غضب:

- "لا أعتقد أنها قد تنتظرك إلى حين يأتي الوقت المناسب بالنسبة لك"

- "ربما يكون هذا من حسن حظها"

ارتسمت على وجهها ابتسامة مفتعلة، ثم حاولت أن تبدو هادئة وهي تقول:

- "كما تشاء مرة أخرى"

- "لا تغضبي مني أرجوكِ"

أومأت برأسها في هدوء، وعادت تفتعل الابتسام، فهبطت من السيارة وأشرت إلى سيارة تاكسي كي تقلني إلى حيث تركت سيارتي، وأشرت لها محيياَ، ثم انصرفت.

يرقص هؤلاء المهرجون، وعلى وجوههم تلك الأقنعة الملونة، وقد تزينوا بالريش، وحول رقابهم تلك القلادات المصنوعة من العاج وأنياب بعض الحيوانات المفترسة.
تدوي طبولهم في أذني، لتصيبني بالدوار، مع رائحة تلك الأخشاب المشتعلة، والتي وضعها المرنم أمام قدمي، وقام بإلقاء بعض الأعشاب فيها، فبدأت تصدر دخانًا غريب الرائحة، بدا لي أن له أثرًا مخدرًا؛ إذ بدأتُ أشعر بشيء عجيب في رأسي، شيء من الثقل في جفوني، وإحساس بالهدوء في وقت غير مناسب للهدوء.
كان (فريد) قد غاب عن الوعي منذ دقائق، والغريب أنني لم أقلق كثيرًا بشأن إن كان مازال على قيد الحياة. كان ذلك الدخان المتصاعد من النار رائعًا بشكل كبير.. حتى أنني فوجئت بنفسي أضحك.
ضحكات صغيرة أفلتت من فمي رغمًا عني، ثم بدأت أقهقه كالمجانين. ما الذي يفعله بي هذا الدخان!؟ لابد أنه مخدر مثل (الحشيش)، لكن يبدو أن أثره فعال حقًا.. يبدو الأمر رائعًا خاصة في هذا الموقف الذي أمر به.. ربما يمكنني الحصول على بعض من هذا العشب الرائع.. سوف أسألهم عن نوعه بعد أن يقوموا بالتضحية بي!
عدت أضحك من جديد عندما تذكرت أنهم سوف يقومون بالتضحية بي.. لن أكون موجودًا لأطلب منهم معرفة نوع ذلك العشب الرائع التأثير.. لكن أليس شيئًا سيئًا أن أموت وأنا مخدر!؟ هل تنتهي حياتي وأنا على هذا الذنب!؟ ألا يعتبر المخدر كالخمر من الكبائر!؟ لكنني لست من فعل هذا بنفسه؛ لقد قضيت حياتي لا أدخن السجائر حتى. هم أطلقوا هذا الدخان وقد تسلل إلى رأسي دون إرادة مني.. كم هو رائع! سوف أستنشق المزيد!
عدت لأضحك من جديد، فأيقظت ضحكاتي (فريد)، الذي نظر لي في ذعر قبل أن يصيح في صوت مرتعد واهن:
- "أي جنون أصابك!؟ لماذا تضحك بهذه الطريقة!؟"
نظرت إليه، ولا أدري لماذا سمعت صوته كأنه يصدر من أحد أفلام الرسوم المتحركة، وانهرت ضاحكًا من جديد.
أضحك، وأسعل بشدة، وعيناي تدمعان بلا توقف. ورغم ذلك لم يلتفت لي هؤلاء الحمقى بسبب تلك الطبول الصاخبة التي تصم الآذان، أو ربما بسبب غياب عقولهم

نسبياَ مع تلك الأبخرة المتصاعدة، والتي يبدو أنهم قد اعتادوا عليها؛ إذ لم يتوقفوا عن الدوران والرقص والصياح.

وفجأة نظر لي أحدهم، واتسعت عيناه، قبل أن يتوقف عن الرقص، وأشار نحوي كأنه رأى شيئًا غريبَا، ثم صاح بكلمات غير مفهومة بالنسبة لي، لكن بدا من إشاراته وطريقته أنه يريد من الجميع أن ينظروا نحوي، فتوقف الراقصون تدريجيَا ونظروا نحوي واحدًا تلو الآخر، وعلى وجوههم علامات الخوف والترقب.

ثم أشار المرنم نحوي، وهو يتفوه بكلمات غير مفهومة، لكن بدا أن شيئًا مريبَا قد أوشك على الحدوث.

عزيزتي ريم..

يوم غير عادي ذلك الذي قضيته في بيت (فريد).

لقد انتظرني اليوم كما اتفقنا ليصطحبني إلى بيته. لم يكن الأمر خطيراً كما حذرني بعض رفاق العمل. هم شديدو التحفظ بشأن التعامل مع السكان المحليين، لكنني لا أستطيع إلا أن أتعامل مع الناس بقدر ما يخبرني قلبي عن صدقهم.

وقد كان (فريد) صادقًا كثيراً في تقديره ومحبته، حتى زوجته الطيبة (ماريا) كانت تبدو في عينيها تلك المحبة وهي تعد لنا طعامًا لم أعرف عن محتوياته الكثير، ولكنهما أخبراني أنه مصنوع من الموز واللحم، وضحكت (ماريا) لتبدو أسنانها البيضاء الجميلة، وقالت لي أنها تعرف كوني مسلمًا لذلك لا يتضمن ذلك الطعام شيئًا من الخمر أو لحم الخنزير.

كانت (ماريا) في الثلاثين من العمر، لكنها تبدو أكبر سنًا قليلًا، نحيلة القوام بصورة ملحوظة بدت لي أنها قد تكون بسبب مرض ما، وخاصةً أن وجنتيها غائرتان قليلًا، لكن روحها الطيبة كانت تضفي على ملامحها رقة وعذوبة فائقة.

وابتسم (فريد) وهو يخبرني عن زوجته، ويمتدحها أنها ملاك أرسله الله له من السماء كي يعينه على تحمل الحياة، وبادلته هي نفس المديح بينما تضع أطباق الطعام أمامنا.

أنت تعلمين مدى خوفي من الأمراض، وتلك التعليمات التي أتبعها حرفيَا بشأن عدم الأكل من أي طعام غير مطهو جيدًا على النار، وتلك الأوبئة التي تنتشر في المياه هنا والتي لابد أن ذلك الطعام صنع بها، لذلك كنت متوجسًا كثيراً في بداية الأمر، حتى أنني خشيت أن يلحظا عينيَ المتوترتين، وهما تجولان على الأطباق لفحص ما فيهما وتحديد ما يمكن أن أحاول تناوله أو تجنبه، إلا أنني قررت استكمال ما عزمت فيه، لقد قبلت الدعوة، ولم يعد ممكنًا الآن أن أرفض الطعام.

قرأت المعوذات سرًا، ثم بدأت بتناول الطعام من أقرب الأطباق إليّ. تذوقت الطعام في البداية بطرف لساني، لأعرف مدى استساغتي لمذاقه، لكنني وجدت طعمه جيدًا، فابتسمت لهما، وبدأت في تناول الطعام.

كان اليوم جميلًا في ذلك الكوخ البسيط جدًا، والنظيف أيضًا. مجرد حوائط خشبية وسقف من الصاج، وفرش بسيط للغاية كبيوت الفلاحين لدينا.

قصت عليّ (ماريا) بعض الأمور عن حياتها مع (فريد)، وشكرتني كثيراً على السعادة التي سببتها له عندما اصطحبته في تلك الرحلة إلى المعبد البهائي، وكيف عاد يومها سعيدًا مبتسمًا كما لم تره منذ شهور طويلة.

سألتني أيضًا إن كنت متزوجًا فأجبتها بالنفي، فسألتني عن والدتي، لأنها تريد أن تهديني شيئًا لها، فأخبرتها أنها توفيت قبل سفري بوقت قليل. دعت لها (ماريا) بالرحمات وأخبرتني أنها لابد في الجنة؛ "إذ أن ولد مثلك لا يأتي إلا من امرأة نصفها ملاك".

كانت كلماتها المجاملة تخجلني، وتسعدني في ذات الوقت، وكنت أشعر براحة كبيرة في التواجد معهما، ثم تنبهت أنني أرى في روحها الطيبة شيئًا ما يذكرني بأمي الحبيبة.

كانت (ريم) تتحدث في أمر ما لم أستطع استيعابه بينما أجلس بجوارها في توتر، وفي محاولة مني لاسترضائها بعد الموقف السابق أصرت ذلك اليوم أن تقود سيارتي لتأخذنا إلى مكان لم تفصح عنه.

ـ "خذي حذرك"

كانت تكاد تصطدم بالسيارة التي على يسارها في حركة مفاجئة منها، لكنها لم تعر الأمر اهتمامًا، وعادت تنظر لي وهي تقول في استياء:

ـ "لا أحب قيادة السيارات ذات ناقل الحركة اليدوي"

لم تكن طريقة قيادتها لها علاقة بناقل الحركة اليدوي أو الآلي، لكنني لم أحب مجادلتها بينما تقود؛ حفاظًا على سيارتي، فعدت أقول محاولًا إقناعها:

ـ "لا بأس.. يمكنني القيادة، أنا معتاد على ذلك"

هزت رأسها نفيًا، وعادت سيارتي تصدر صوتًا مزعجًا، بينما هي تحاول نقل السرعات بطريقة غريبة، ثم قالت:

ـ "لا، لقد قاربنا على الوصول. عليك فقط الاسترخاء"

وبعد عشر دقائق تقريبًا كنا قد وصلنا إلى حيث أرادت، وبحركة جعلتني أكاد أفكر في إلقائها من سيارتي ضغطت دواسة الفرامل بشكل مفاجئ، لتتوقف السيارة على حيد الطريق وتصطدم بالإفريز في رفق، ونظرت لي (ريم) وابتسمت، وكأن شيئًا لم يحدث، ثم طلبت مني النزول.

كنا أمام بوابة مدينة الملاهي، لذلك لم أستوعب الأمر في البداية، وسألتها في تعجب:

ـ "لِمَ أتينا إلى هذا المكان!؟"

عادت تنظر لي في استياء، وكأنني سألت سؤالًا في غير موضعه، وهي تقول:

ـ "ماذا تعتقد أن الناس يفعلون في مكان كهذا!؟"

ـ "أعرف جيدًا ما يفعله الآخرون، لكنني أسأل عنا نحن؟"

جذبتني من يدي نحو شباك التذاكر، وهي تضحك في طفولة قائلة:

ـ "لا تكن أحمق! سنفعل مثلما يفعل الآخرون"

نظرت إليها في ذهول غير مصدق ما تفعله بي، لكنها عادت لتجذب يدي وهى تتقافز مثل طفلة شقية.

للمرة الخامسة على التوالي تعزف الموسيقى المسجلة لتعلن بداية دورة جديدة، فأتمسك بالذراع الحديدي لتلك اللعبة المروعة، وتبدأ هي في الدوران في بطء، ثم تتسارع تدريجياَ، قبل أن تتحرك في سرعة محمومة مع الصرخات التي تنطلق من الجميع بما فيهم أنا.

الحقيقة أنني لم أكن أعرف أنني أصرخ في البداية، إلا أن (ريم) الجالسة بجواري ابتسمت بعد الدورة الثالثة ونظرت لي بعينيها الدامعتين وشعرها المهوش، وابتسامتها التي تملأ وجهها، وهي تقول في حماسة:

ـ "هل شعرت براحة بعد هذا الصراخ!؟"

تنبهت أنني كنت أصرخ مثل الجميع، أخرج الهواء من صدري في صرخة طويلة محاولًا منع نفسي من التقيؤ، أثناء تلك اللفات المروعة لتلك اللعبة الشيطانية.

ـ "كيف وافقتك على هذا الأمر!؟"

ضحكت في استمتاع، وعيناها تشتعلان بالسعادة، وهي تقول:

ـ "لا تنكر أن الأمر ممتع إلى حد رائع!"

قلت محاولًا إقناعها بالنزول، قبل أن نبدأ دورة جديدة:

ـ "لا أستطيع أن أنكر، لكن متى نكتفي!؟"

ـ "لن نكتفي اليوم من أي شيء. لن يمكنك استخدام تلك الألعاب بهذه الطريقة مرة أخرى"

لم يكن يوجد سوى عدد محدود فعلًا، ربما هو توقيت الاختبارات في المدارس والجامعات لذلك سمحوا لنا بالمكوث في اللعبة لأكثر من دورة دون أن يطلبوا منا النزول.

ـ "لن أستطيع أن أتحمل الدوران بهذه الطريقة مرة أخرى"

ـ "لماذا!؟"

تبدأ اللعبة في الدوران، وتعلو الموسيقى، فأهتف؛ كي تسمعني:

ـ "سوف أتقيأ!!"

تهتف (ريم)، وهي تتمسك بالذراع المعدني:

ـ "أخرج الهواء من معدتك!! اصرخ بقوة!"

تعود اللعبة للتحرك في سرعة محمومة، لترفعنا في الهواء، ثم تهبط بنا فجأة في اتجاه الأرض، قبل أن تتوقف لجزء من الثانية، قبل متر واحد من الاصطدام، وتعود للارتفاع من جديد.

كنت أشعر أنني أفضل حالًا بعد أن تقيأت..

وجلست (ريم) بجواري مهوشة الشعر، تنظر لي في إشفاق، وقد أمسكت زجاجة المياه تطلب مني أن أشرب، فشربت القليل وابتسمت.

ـ "أنا بخير"

ـ "هل تشعر بتحسن الآن؟"

ـ "نعم، بالتأكيد"

تختفي النظرة المشفقة من وجهها، وتعود لتبتسم من جديد وهي تقف على قدميها، ثم تسحب يدي في حماس.

ـ "هيا بنا"

ـ "إلى أين؟"

ـ "لا تضع الوقت"

وتجرني خلفها كالطفل المرغم إلى لعبة جنونية أخرى.

نمت تلك الليلة كالأطفال كما لعبت مثلهم.. ربما لم أنم منذ فترة طويلة بهذه الطريقة، نومًا خاليَا من القلق، لكنه لم يخلُ من بعض الأحلام. كنت أرى أمي وقد جلست بجواري مشرقة الوجه، وقد عاد وجهها جميلًا باسمًا كما كان، فأمسك بيدها في حب، وأسألها إن كانت بخير، فتجيبني أنها بخير حال، فلا أسألها عم حدث ولا كيف عادت، فكفى بالنسبة لي أنها بجواري، تطلب مني أن أنام فأنا متعب، فأرفض؛ إذ أريد أن أبقى بجوارها، فتخبرني أنها ستظل بجواري حتى أستيقظ. أضع رأسي على الوسادة، وتضع يدها على كتفي تربت براحتها عليّ في حنان، تدمع عيني وأبتسم وأستغرق في النوم.

وعندما استيقظت عرفت أنني كنت أحلم، لكن سعادة رؤياها كانت ما زالت في قلبي.

رأيت أبي في ذلك الصباح قبل ذهابه إلى العمل، وتنبهت أنني لم أتحدث معه في الأيام الماضية تقريبَا، وشعرت بمدى تقصيري، فقررت أن أصنع شيئًا الليلة، وخاصة أن مفكرتي أظهرت أن الغد يوافق يوم مولده.

اتفقت مع أخي وأختي على أن نفاجئه بعد عودته من العمل، فتركت (مي) لتصنع لنا غذاءَ جميلًا يحبه، وذهبت للبحث عن هدية له، فاشتريت العطر الذي يفضله وأحضرت (تورتة) جميلة.

كنت أخشى كثيراً من رد فعله بشأن هذا الأمر، وخاصة أن الحزن مازال عميقًا في قلوبنا، لكنني كنت أريد أن أفعل شيئًا ربما يخفف من أحزانه قليلًا، ولو حتى عن طريق الانشغال لبعض الوقت.

وفي المساء قدمنا له الهدايا، وجلسنا سوياً لنتناول التورتة التي أحضرناها، وتحدثنا قليلًا وابتسمنا.. كان جميعنا يحاول أن يخفي حزنًا في قلبه ذلك اليوم؛ فقد كنا نتمنى كثيراً أن تكون أمي معنا في تلك اللحظات.

في تلك الليلة أخبرت أبي أنني سوف أعود للعمل من جديد، وشجعني على الأمر، وأخبرني أن الحياة لابد أن تستمر، وأن أمي لن تسعد برؤيانا وقد أهمل أحدنا نفسه، أو تسبب حزنه في ضرر له.

تحدثنا كثيراً في ذلك اليوم وتضاحكنا.. وحكى لنا أبي بعض الذكريات عن المرة الأولى التي قابل فيها أمي، وكيف أعجب بها منذ اللحظة الأولى، فقرر أن تكون زوجته رغم أنها كانت مازالت في سنوات دراستها الجامعية، وكيف اصطحب زوجته الطالبة بكلية الحقوق وذهب إلى حيث تم تكليفه كطبيب في تلك القرية البعيدة عن الأهل والأصحاب.

كان أمر السفر إلى القرية أمراً شاقًا على تلك المرأة الصغيرة، لكن أمي الطيبة أحبت عن رضا حقيقي أن تذهب معه، أيًا كان ما ستسوقه إليهما الأقدار.

فانتقلا إلى هناك، في إحدى قرى محافظة بني سويف، حيث لا كهرباء ولا ماء سوى المياه الجوفية أو مياه الترع، والتي لا يمكن لأحد أن يستسيغها مطلقًا إلا إن كان ممن يفضلون المياه بطعم الطفيليات.

كذلك لم يكن هناك أصدقاء يمكنها التحدث معهم، ولا محلات، ولا طعام يمكن شراؤه، إلا على بعد كيلومترات، بخلاف أن ننتظر الدجاجة لتبيض في دور أحد الفلاحين، كي نشتري منه.. وبالطبع لا تلفاز ولا راديو ولا ثلاجة.. ولم تكن هذه هي نهاية قائمة (لا) بالطبع.. ورغم كل ذلك فقد تحملت أمي، وواصلت دراستها؛ فالكتب والمحاضرات

تأتيها مع الزيارات العائلية التي تأتي من القاهرة، وبعد تسعة أشهر جئت أنا لأكون عبئًا جديدًا.

كنا نستمع لأبي، ونبتسم، وكأن تلك الأحاديث تملأ قلوبنا بذكرى أمي، فتمنحنا شعورًا بالبهجة.. وكأننا ننسى للحظات أنها لم تعد معنا، ونشعر بدفء وجودها إلى جوارنا من جديد.

رأيتُ الراقصين يتوقفون عن الحركات المحمومة وينظرون نحوي في رعب، بينما أشار أحدهم نحوي، وصاح بكلمات غير مفهومة، أتبعها مزيد من الهمهمات من الأفواه. كنت أريد أن أضحك كثيراَ، وكأن ما يحدث هنا لا يعنيني مطلقًا، حتى أنني كنت ألهث من الضحك المتواصل. لماذا لا يشعرون بأثر ذلك الدخان الرائع!؟

في هذه اللحظة كان (فريد) ينظر لي في ذعر، وهو يقول:

ـ "ما الذي يحدث لك!؟"

قالها بذلك الصوت المرتجف، فحاولت التحدث إليه، لكن الرغبة في الضحك عادت لتتملكني من جديد.

ـ "لا أدري"

ـ "هل أنت بخير؟"

ـ "أنا بخير، ما الذي أصابهم!؟ لماذا ينظرون لي هم بهذه الطريقة!؟"

قال في خوف:

ـ "يقولون أن الروح الشريرة قد التبست روحك!"

سمعت جملته، ثم انفجرت في الضحك من جديد، وأنا أردد:

ـ "روح شريرة!؟"

كان (فريد) مذعوراً حقًا، ولابد أنه اعتقد أنها أرواح شريرة أيضًا.

ـ "لماذا تضحك بهذا الشكل الجنوني!؟"

ـ "لماذا لا تضحك أنت!؟ هل أنت معتاد أيضًا على هذا النوع من المخدر!؟"

لم يفهم (فريد) ما أعني، لكن الآخرين لم يمنحوه فرصة للرد؛ إذ أقبل نحوي اثنان منهم، اقترب أحدهم مني مهددًا إياي بخنجر في يده، بينما يتقافز الذعر من عينيه وهو يتفوه بكلمات لابد أن معناها ألا أحاول الهروب، أما الآخر فقد أتى من خلفي ليقطع الحبل الذي يقيدني إلى الشجرة، ويعيد إحكام وثاق يدي خلف ظهري من جديد، قبل أن يجلسني على الأرض أمام النار المشتعلة، ويبدأ المرنم في إتمام تعاويذه وقد ظهر القمر في السماء دون أدنى شائبة.

لابد أنها اللحظة المناسبة التي ينتظرونها للتخلص من الأراوح الشريرة التي تجسدت بي، وينتهي ألم (راموس) كما يعتقد، وكما يزعمون هم.

عزيزتي ريم..

قدمت اليوم عرضًا أمام مجلس إدارة الشركة الأوغندية عن العمل الذي تم خلال الأيام الماضية، وقد لاقى الجهد المبذول استحسانًا كبيراَ من الجميع، حتى أنني مازلت أشعر بتلك المشاعر الإيجابية منذ الصباح.

عندما عدت إلى الفندق كان (راموس) يجلس في البهو، وقد قام متجهًا نحوي عندما رآني وكأنه كان ينتظرني.. لا أدري لماذا لا أشعر بالراحة الكاملة تجاهه؛ إذ تبدو الوشوم المرسومة على يديه ورقبته غريبة ومنفرة بعض الشيء.

أقبل نحوي محييَا في ود، وأخبرني أن الرحلة يجب أن تتم خلال الأيام القادمة؛ لأنها ستكون أفضل في وجود القمر المكتمل، وأخبرته أنني فعليَا سأقوم بتأكيد الموعد معه خلال وقت قصير، فعاد ليخبرني أنه سيقوم بتقديم عرض متميز لي، ولمن سيرافقني في الرحلة، وأنه سوف يقدم لنا زيارة غير عادية للغابات لن نراها مع أي مرشد أو شركة سياحة أخرى.

وترك لي بعض الأوراق لأملأها قبل الرحلة. أخبرني أنها إجراءات روتينية على سبيل التأمين. قلبت في الأوراق، فوجدت أن عليّ استيفاء بعض المعلومات عن الحالة الصحية، وفصيلة الدم، وخلافه. وبدا لي أنهم يتخذون احتياطاتهم فعلًا في حال حدوث أي مشكلة طبية أو غيره لأحد العملاء؛ مما جعلني أشعر ببعض الاطمئنان لتلك الشركة، وأعد (راموس) بالرد عليه لتأكيد قيامي بالرحلة في وقت قريب.

أستحق اليوم مكافأة على ذلك العمل الرائع الذي قدمته بشهادة الجميع. سوف أحصل على حمام ساخن، ثم أكتب قليلًا، قبل أن أطلب العشاء في الغرفة، وأنام حتى الصباح.

تمنياتي لكِ بأحلام هانئة..

وضعت (ريم) أمامي صندوقًا خشبيًا صغيراً حيث جلسنا في نفس الكافيه المطل على النيل، نظرت إلى الصندوق الأسود الصغير ذي النقوش الغريبة وأنا أقول مازحًا:

- "صندوق (بندورا)!؟"

هزت رأسها نفيًا، وابتسمت، وهي تقول:

- "لا، صندوق (بندورا) كان مليئًا بالشرور"

تأملت الصندوق الغريب مرة أخرى، ثم عدت أنظر إليها وقد عقدت ذراعيها، وارتسمت على شفتيها ابتسامة سعيدة، قبل أن أسأل في عدم فهم:

- "ماذا إذن؟"

مطت شفتيها، وهي تقول:

- "يمكنك أن تعتبرها لعبة ما"

لم أفهم الأمر، فهززت كتفي متسائلًا:

- "حسنًا، كيف نبدأ؟"

أشارت إلى الصندوق وهي تقول في بساطة:

- "مسموح لك أن تنظر إلى ما في داخل الصندوق"

ابتسمت، وأنا أقول محذرًا في لهجة جادة:

- "لا أحب الخدع الطفولية، والأشياء التي تنفجر عند فتحها"

ضحكت وهي تقول في براءة:

- "لا تخف، ليست كذلك بكل تأكيد"

هززت كتفي، ومددت يدي، ففتحت الصندوق في حذر. كانت بداخله عدة أظرف صغيرة بيضاء.. عبثت بالأظرف بأطراف أصابعي.. كانت مغلقة، وقد كتب على كل منها رقمًا، وبدا لي أنها أرقام مسلسلة.

عادت (ريم) تقول في دهشة:

- "لماذا لا أجدك متحمسًا!؟"

- "كل ما في الأمر أنني لا أفهم بعد.. يمكنك أن تخبريني بالمزيد من التفاصيل"

- "حسنًا.."

قالتها، ثم رفعت ساقًا على كرسيها لتجلس فوقها، واستندت بمرفقيها إلى المنضدة، ثم تابعت:

ـ "منذ وافقت على أن تتركني أساعدك أصبح لزامًا عليك أن تستجيب لمطالبي.."
قاطعتها على الفور:
ـ "لم أخبرك بأنني سوف أستجيب، فقط وافقت على تركك تحاولين المساعدة"
هزت رأسها نفيًا، ثم قالت:
ـ "عليك أن تستجيب لي كرجل مهذب على كل حال"
ـ "تحاولين إحراجي إذن"
ابتسمت في براءة وهي تقول:
ـ "أرجوك"
ـ "لا بأس.. ماذا تريدين أن أفعل الآن؟"
صفقت بيديها في سعادة، ثم قالت:
ـ "سوف تحصل على هذه الأظرف المغلقة.. ثم تقوم بفتح أول واحد منها.. كما ترى هي مرقمة، فإذا أنهيت تنفيذ التعليمات في مظروف ما، يمكنك الانتقال إلى المظروف التالي، وهكذا.. حتى ننتهي"
ـ "وماذا إن لم أستطع تنفيذ تلك التعليمات لأي سبب؟ هل تنتهي اللعبة عند هذا الحد؟"
قالت في جدية:
ـ "سوف تفعل، وإلا سأطاردك بمكالماتي المزعجة، وستجدني أظهر لك في كل مكان، بل ربما في أحلامك أيضًا! حتى تستجيب"
ـ "تطاردينني حتى في أحلامي!؟ لماذا؟"
ـ "لا أعرف، لكنني تعودت أنني إذا عزمت على أمر، فإنني أتمه حتى النهاية"
نظرت من جديد إلى الصندوق والأظرف البيضاء الصغيرة، وأنا أتساءل في حيرة:
ـ "وما الهدف من هذا الأمر؟"
ابتسمت وهي تقول:
ـ "سوف تفهم الهدف مع الوقت"
ـ "حسنًا، سأحاول"
مددت يدي نحو المظروف الأول، فأمسكت به، فانتفضتْ تسحبه من يدي، وتعيده إلى الصندوق من جديد قائلة:

ـ "لا، ليس الآن"

ـ "متى إذن؟"

ـ "سوف تعرف بعد قليل"

هززت رأسي موافقًا، وأغلقت الصندوق. فعادت تقول في سرعة:

ـ "لم نضع اسمًا لتلك اللعبة بعد!"

ـ "ماذا إذن؟"

ـ "اقترح اسمًا"

ـ "لا أعرف"

ـ "حسنًا.. لدي اسم جيد.. ليكن اسم هذه اللعبة (صندوق ريم)، بدلًا من صندوق (بندورا)"

ضحكت متعجبًا، وأنا أردد الاسم:

ـ "صندوق (ريم)!؟"

ابتسمت في ملائكية، وهي تقول:

ـ "نعم، لقد أطلق صندوق (بندورا) الشرور في الأرض، ومن ضمنها الخوف والحزن، لكن صندوقي يريد أن يعيدهم إلى حيث جاؤوا من جديد"

ثم قامت من مكانها، وهي تقول:

ـ "هيا بنا"

ـ "إلى أين؟"

ـ "ستعرف"

ثم التقطت حقيبة يدها، وأشارت لي أن أتبعها في سرعة وهي تتجه نحو السيارة، وبعد نصف ساعة كنا قد وصلنا إلى حيث أرادت(ريم).. ذلك المكان الذي لم أكن أحب أن أراه أبدًا في ذلك الوقت..

أقف لا أدري ما أفعل، بينما هي تسير أمامي في ذات المستشفى التي قضت بها أمي أيامها الأخيرة، بينما تقرع (ريم) أبواب غرف المرضى، ويستقبلها الجميع بالترحاب. يسألون عن صحتها، وتسأل هي عن صحتهم، وعن أي شيء يحتاجونه. كنت أحاول التماسك، لكنني لم أستطع سوى أن أخبرها أنني سأنتظرها في السيارة حتى تنتهي.

كان الأمر قاسيَا إلى حد كبير.. كنت أشتاق إلى أمي، وأجد في نفسي شوقًا جنونيًا يدفعني للذهاب إلى الحجرة التي كانت بها، وكأنني سأجدها في انتظاري هناك تخبرني أنها قد برئت مما بها من مرض، وتنتظرني لكي نعود إلى المنزل سويًا.

لم أحتمل الأمر كثيراَ، فأخبرت (ريم) أنني سأنتظرها في الخارج.. ساعة كاملة انتظرتها جالسَا في السيارة، حتى انتهت من زيارتها، وعادت.

ـ "هل تأخرت عليك؟"

أدرت محرك السيارة، وأنا أقول:

ـ "لا عليك، هل نذهب الآن؟"

أومأت برأسها مؤيدة، ثم قالت:

ـ "بالتأكيد"

ـ "كيف يعرفونك إلى هذا الحد؟"

ابتسمت وهي تقول:

ـ "أزورهم دائمًا"

ـ "أمر جيد منك"

ـ "بعضهم يتلقى العلاج الكيماوي هنا منذ سنوات طويلة"

نظرت إليها متسائلا في إشفاق:

ـ "أمر مؤلم هو، أليس كذلك؟"

خرجت من صدرها زفرة حارة، وارتسمت على وجهها ابتسامة حزينة دون كلام.

وعند منزل (ريم) توقفت بالسيارة، فمدت يدها لي بالصندوق، ثم هبطت من السيارة ونظرت لي من خلال النافذة وهي تقول:

ـ "يمكنك أن تقرأ المظروف الأول هذه الليلة"

أمسكت الصندوق، ووضعته بجانبي، ثم ابتسمت لها مودعًا، وانصرفت.. لم أكن أفهم سبب اصطحابها لي لذلك المكان، لكن الأمر لم يكن جيدًا بالنسبة لي على الإطلاق.

وفي المساء جلست وحدي، ثم أمسكت بصندوق الرسائل..

لم أكن أعرف ما الهدف منها بعد، لكنني أمسكت بالمظروف الأول وفتحته.. كان به ورقة صغيرة مكتوبة بخط اليد.. خط صغير منمق لابد أنه خط يد (ريم).

وبدأت أقرأ..

«هؤلاء الذين رحلوا عن دنيانا نراهم وقد أغلقوا أعينهم، لكن الحقيقة أنهم في تلك اللحظة تحديدًا يفتحونها حتى آخرها، ويرون ما لم يكونوا يرونه من قبل.. يرون كل الأشياء التي كانت تخفى عليهم، ويعرفون حقيقة الأمور، وكأنهم يولدون من جديد. تلك الولادة التي لا تبدأ من مرحلة الضعف، ولكنها تبدأ من نقطة القوة والمعرفة العظمى.

أما نحن وقتها فلا نفكر سوى فيما فقدنا، ولا نرى غيره أمامنا طوال الوقت. وعندما تمتلئ قلوبنا بالحزن وأعيننا بالدموع تصبح الرؤية ضبابية، وقليل منا من يستطيع أن ينظر في ذلك الوقت ليرى رحمة الله تحيط به من كل مكان، ويعلم أن تلك الرحمة أوسع بكثير من تفكيرنا المحدود»

عدت أقرأ تلك الكلمات مرة أخرى، ثم طويت الورقة من جديد، وأعدتها إلى المظروف الصغير.. يجيد الجميع صياغة الكلمات، لكن من الذي يستطيع حقًا أن يفكر كما يتكلم عندما يسقط بين الأمواج.

كان الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحًا، وقد جلست وحدي في حجرتي على الضوء الخافت الذي يتسلل إليها من خصاص النافذة، وتنبهت أن الورقة كانت بيدي منذ وقت طويل أحدق فيها، وقد غاب ذهني تمامًا. حتى أنني عندما أفقت احتجت لثوان قليلة، حتى أدرك أين أنا في ذلك الظلام.

كان الجو خانقًا، أو أنني كنت أختنق داخل نفسي، لذلك قمت لأبدل ملابسي وأغادر المنزل في هدوء كي لا أوقظ أحدًا. كنت قد قررت السير في الشوارع، لكنني وجدت نفسي أتجه إلى سيارتي، فأستقلها وأنطلق في الشوارع الخالية تقريباَ إلا من بعض السيارات القليلة.

كنت أقطع الطرق، وكأنني ذاهب إلى وجهة محددة، لا أدري إلى أين ولا أحاول التفكير، يقودني عقلي الباطن دون أن يفصح عن سره، لكنني بعد نصف ساعة من القيادة عرفت أنني متجه إليها.

كنت على الطريق الزراعي متجه إلى حيث قبر أمي في بلدتها الصغيرة التي سميت باسم جدها لأمها.

ونظرًا لأنني لست ممن يجيدون حفظ مسارات الطرق، فقد تعجبت أنني أعرف الطريق جيدًا، بل كنت كمن يعرف دهاليز الطريق، وكأنني اعتدت السفر إليه، رغم أنني لم أذهب إلى هناك سوى في ذلك اليوم المشؤوم.

كان مرعبًا أن أدخل بين القبور في وقت كهذا، وما زالت السماء مظلمة، وقد بقي على الفجر عدة دقائق، لكن شعوري أن أمي هناك كان يزيل الخوف من نفسي؛ فمكان تسكنه أمي لابد أنه أرض للملائكة.

أمام القبر جلست على جدار حجري متهدم.. وبدأت بقراءة بعض الآيات..

وابتسمت..

كنت أشعر بأنها تبتسم لي، وتخبرني أن أطمئن، فهي في رعاية الله..

«الله أكبر»

كان النداء يعلو من مسجد قريب، وتلفتّ حولي أنظر أين ذلك المسجد، فرأيت المئذنة تشير لي على بعد أمتار قليلة من المقابر.

وهناك جلست أنتظر الصلاة..

وشعور بالهدوء يملأ نفسي تدريجيًا..

بدا أن طقوس التضحية قد اكتملت، وبدا لي أيضًا أن النهاية المحتومة قد اقتربت، إلا أنني لم أكن مذعورًا؛ كنت منتشيًا إلى درجة أنني كنت أتعجل أن أعرف ما الذي سيحدث بعد ذلك.

كنت في حالة غير طبيعية، حتى أنني كنت أشعر بسعادة غامرة على الرغم من ذلك الموقف الذي أمر به، بينما (فريد) يرتجف بجواري هلعًا، فأنظر إليه وتزداد رغبتي في الضحك الهستيري.

لا أدري من أين أتت تلك السيارة الضخمة ذات الدفع الرباعي فجأة لتقترب منا وتقف على بعد أمتار قليلة، ثم يهبط منها أربعة رجال من ذوي البشرة البيضاء، وعلى حسب معرفتي القليلة بالجنسيات فقد بدا لي أنهم أوروبيون، وازداد تأكدي عندما بدأ أحدهم بالحديث بتلك اللغة الإنجليزية ذات اللكنة الشرق-أوروبية مع زعيم الجماعة الذي اقترب ليصافحه في احترام.

ثم اقترب مني لينظر لي متفحصًا ثم إلى (فريد) في غضب.. هممت بقول شيء للرجل ربما هو محاولة سؤاله عن سبب تواجده هنا، أو ربما كنت أريد أن أطلب منه أن يساعدنا على الهرب، لكنني وجدت نفسي أبدأ في الضحك الهستيري من جديد.

في تلك اللحظة أشار زعيم الجماعة إلى رجاله بالابتعاد، فتحرك الجميع مستجيبين للأمر في خضوع ليقفوا على بعد عدة أمتار، بعيدًا عن النار المشتعلة وحيث أقف مقيدًا، بينما اقترب الرجل الأبيض مع الساحر ليقفا أمامي.

قال الرجل الأوروبي في غضب:

ـ "لم تنفذ الاتفاق كما يجب! من هؤلاء!؟"

قال الساحر في صوت بدا لي شديد الغرابة وباللغة الإنجليزية:

ـ "ليس خطئي؛ لقد غيّر الصياد خطته في اللحظات الأخيرة دون إعلامنا!"

ـ "العميل لدينا لن يدفع مقابل هؤلاء"

صمت الساحر لحظات، وكأنه يحاول التفكير، قبل أن يقول:

ـ "الرجل الأبيض يبدو خاليًا من الأمراض"

هز الأوروبي رأسه نفيًا بشكل قاطع، وهو يقول في ذات اللهجة الغاضبة:

ـ "لا حاجة لي بهذا الرجل! العميل لدي يريد كلية طفل. لقد أخبرتك بهذا، ولن أدفع مليمًا مقابل هذا الرجل"

ـ "هل تحاول المساومة!؟"

قال الرجل الأبيض في عجرفة:

ـ "أنا لا أساوم. ما يطلب عليك أن تنفذه حرفيًا، وإلا ألغينا اتفاقاتنا معك"

عاد الساحر يقول في ذات الصوت الغريب:

ـ "لن تجد من يقدم لك ما تريد سواي هنا، بل إنك لن تعمل هنا في هذه البلاد مطلقًا دون إرادتي"

احتدت نبرة الرجل الأبيض أكثر، وهو يصيح:

ـ "يمكنني شراء العشرات من أمثالك هنا في هذه البلاد"

بدا أن الساحر قد استشاط غضبًا، وهو يهتف:

ـ "من تظن نفسك!؟ احذر من أن تغضبني!"

قال الأوروبي متهكمًا في استفزاز:

ـ "ماذا ستفعل، هل ستحولني إلى ثمرة أناناس!؟"

هز الساحر يده بالرمح في غضب، وبدا أن الأمور قد احتدت إلى درجة كبيرة، وهو يهتف:

ـ "يمكنني أن أجعلك تتمنى لو أصبحت مجرد ثمرة أناناس. أنت لا تعرف من هو (موجاي)!"

أطلق الرجل ضحكة عصبية، ثم بصق على الأرض، قبل أن يقول:

ـ "ما هو إلا مجرد لص حقير آخر"

كانت الأمور عند هذه اللحظة قد وصلت إلى درجة لم يمكن السيطرة عليها، فدفع (موجاي) الرجل الأبيض في صدره وهو يصيح في غضب، فرفع الرجال رماحهم، وقد تحفزوا للقتال، وفي نفس اللحظة أخرج الرجال الثلاثة مسدساتهم، وبدا أن حربًا سوف تندلع في تلك اللحظة.

عزيزتي ريم..

الجمعة في (أوغندا) هو يوم عمل عادي؛ فالديانة الرسمية هنا هي المسيحية، إلا أن المسلمين يحصلون على وقت لصلاة الجمعة.

والحقيقة أنه على الرغم من أن الخطيب في ذلك المسجد كان أوغنديًا كما يبدو من ملامحه، إلا أنني استمعت إلى أطول خطبة جمعة في حياتي؛ فقد بدأ الرجل الخطبة باللغة العربية، وأدهشتني لغته حقًا، يجيد الرجل اللغة العربية الفصحى بشكل رائع، وإن كان لا يخلو من بعض عيوب اللكنة وهو أمر طبيعي لا يعيب مهارته، أما ما فاجأني فهو أن الخطيب عندما أتم الخطبة الأولى باللغة العربية، بدأ يعيد ذات الكلمات من جديد باللغة الإنجليزية، ثم انتهى ليكررها أخيراً باللغة الأوغندية.

يحاولون هنا مراعاة وجود العديد من الجنسيات، لكن إعادة الخطبة بلغات مختلفة منها لغة لا أفهم منها حرفًا كان أمراً شاقًا بالنسبة لي، وخاصةً أن بعوضة كانت تحوم حولي، ومخاوفي المرضية من (الملاريا) سيطرت على عقلي معظم الوقت، حتى انتهت الخطبة الثانية وبدأت الصلاة.

قضيت النصف الأخير من ذلك اليوم مع (فريد) و(ماريا) بعد اتصال هاتفي منهما يدعوانني لقضاء بعض الوقت معهما إن لم يكن لدي أمر آخر أفعله، كنت بالفعل أحب رفقتهما فوافقت على الفور، لكنني أحضرت هذه المرة طعامًا لنا من الفندق لنأكل سويًا، وانزعجت (ماريا) كثيراً عندما رأتني أحمل الطعام خوفًا أن يكون طعامها لم يرق لي في المرة السابقة، لكنني أكدت لها أن طهوها كان رائعًا، وأنني استمتعت به، لكنني أحببت دعوتهما على الطعام هذه المرة.

رفقة (فريد) و(ماريا) تثير البهجة في نفسي، وخاصةً عندما أرى بينهما ذلك الحب وتلك السعادة والبهجة التي تملأ بيتهما الصغير، ولا أدري لماذا حذرني مدير الشركة هنا من التعامل مع الأوغنديين، وأخبرني أن طباعهم غادرة على الرغم من أنني لم أجد هذا في كل من تعاملت معهم من الأوغنديين حتى الآن. ويبدو أن السيد (فيليب) مازال يحتفظ بفكر المحتل الإنجليزي على الرغم من كونه رجلا خلوقًا، إلا أن تلك العنصرية من أصعب الأمراض المتأصلة في بعض الشعوب.

طلبت اليوم من (فريد) أن يرافقني على نفقتي الخاصة في رحلة السافاري التي أخطط لها، وبدا هو مترددًا بعض الشيء، لكن شجعته (ماريا) التي رحبت بشدة، وأقنعته بأن

الأمر سوف يكون رائعًا، وأن عليه أن يرافقني خاصة وأنه ليس لي أصدقاء هنا في (أوغندا) سواه.

سأمر اليوم على (راموس) في مكتب الرحلات لأحجز موعدًا للرحلة؛ فقد أوشكت أيام العمل على الانتهاء.

سوف أحصل لكِ على بعض التذكارات من الغابة عندما أذهب، وسوف أحرص على التقاط العديد من الصور هناك وأرسل لك الرسائل متى استطعت؛ فلا أدري مدى إمكانية تواجد شبكة هاتف محمول في الغابات. أخبريني أيضًا إن كنت تريدين شيئًا محددًا من (أوغندا) قبل عودتي.

سأحاول أن أنهي المذكرات قبل سفري كما تريدين، وسوف أرسلها لكِ لكن أتمنى ألا يصيبك الملل من قراءتها.

تحياتي عبر البريد حتى ألقاكِ..

لا أدري كيف أثرت بي الكلمات في رسائل (ريم) كثيراَ، رغم أن قلبي لم يكن مستعدًا ليسمع.. كان قد أغلق كل الأبواب على أحزانه في صمت، وفضل أن يراقب كل شيء من بعيد كأنه لا ينتمي لهذا العالم ولا يريد أن يقترب منه.

لكن شيئًا ما جعل قفلًا من تلك الأقفال القاسية يتزحزح من مكانه، ليتسلل بصيص من النور إلى الداخل ويفاجئ تلك الظلمة التي كانت قد تأكدت من استمرارها طويلًا بدون أي مقاومة للتغيير.

كانت الساعة قد بلغت الثامنة صباحًا، وقد عدت إلى المنزل بعد تلك الرحلة إلى قرية أمي، وجلست في حجرتي وأنا مازلت ممسكًا بتلك الورقة أتأمل المكتوب فيها كمن يحاول حفظ شيء بتكراره مرارًا.

لكن هاتفًا من (ريم) قطع تأملاتي..

ـ "هل انتهيت من قراءة الرسالة الأولى؟"

ـ "أليس مبالغًا فيه أن تتصلي في الثامنة صباحًا لتسألي هذا السؤال!؟"

أجابت بكل بساطة:

ـ "لا"

ابتسمت وأنا أقول في هدوء:

ـ "لقد قرأت، ولم أكن أعرف أنك تجيدين صياغة الكلمات بهذه الطريقة"

ضحكت وهي تقول:

ـ "لا تعرف الكثير عني بعد"

ـ "يبدو ذلك"

بدا على صوتها بعض الحماس وهي تسأل:

ـ "هل أنت مستعد لبعض التمرين؟"

قلت متسائلًا:

ـ "ما نوع التمرين؟"

ضحكت بطريقتها الطفولية وهي تقول:

ـ "يمكنك أن تقرأ الرسالة الثانية حتى أصل إليك"

قلت متعجباَ:

ـ "هل ستأتين الآن!؟"

ـ "نعم، خلال نصف ساعة.. ابدأ بالاستعداد"

ـ "وعملك!؟"

ـ "لقد فقدت الإحساس بالأيام أيها المتكاسل. اليوم هو الجمعة"

قلت في خجل، وقد تنبهت فعلًا أنني لا أعرف أن اليوم هو الجمعة:

ـ "حسنًا، أين سنذهب؟"

ـ "يمكنك الاستعداد. سوف نذهب إلى مكان جديد. اقرأ المظروف الثاني"

ـ "سوف أفعل"

ـ "الأفضل لك أن تفعل"

قالتها ضاحكة، وأنهت الاتصال.

«مسألة شديدة التعقيد، أن نحيا ونحن نعلم أن مصائرنا قد تحددت مسبقًا. أن نفكر أن قصة حياتنا قد كتبت بالفعل، وأن الأقلام رفعت والصحف قد جفت قبل خمسين ألف سنة من خلق السموات والأرض. لكننا إن فكرنا قليلًا سنرى الحقيقة، ونعلم معنى الأمر، ونتعلم أن نبتسم، ونعرف أننا لو كان بأيدينا أن نكتب لأنفسنا غير أقدارنا، لما وجدنا أفضل مما كتبه الله لنا. نتعرض حقًا لبعض المحن، لكنها تلك الاختبارات التي وضعها الله لنا؛ كي يمتحن بها صدقنا، فيمنحنا الجائزة الكبرى.

كل ما عليك في هذه الحياة أن تحسن أداء دورك فيها.. تجاوب مع الأحداث.. ابتسم أحيانًا وابكِ أحيانًا أخرى؛ فأنت بشر، لكن ليكن قلبك مطمئنًا واثقًا تمام الثقة؛ لأن قصتك قد كتبت بيد الله»

ابتسمت عندما قرأت تلك الكلمات.

كانت تبدو لي كلمات حكيمة، لم أتصور أن يخطها شخص ما زال لم يجنِ من الحياة خبرة كافية مثل (ريم)، إلا أنني عدت لأتذكر مواقفها معي. لم تكن (ريم) شخصية طفولية كما تبدو، لكن رأسها الجميل يحمل الكثير من العقل والاتزان.

وفي السيارة أصرت (ريم) على أن نذهب بسيارتها؛ كي لا تدع لي مجالًا للهرب أو التراجع كما قالت، وابتسمت وهي تنظر لي، قبل أن تقول:

ـ "هل قرأت؟"

أومأت برأسي مجيبًا، فعادت تقول:

ـ "ولابد أنك تساءلت عن الحكمة المبالغ فيها في تلك الكلمات"

هززت رأسي نفياَ، رغم أنني قد تساءلت فعلًا عن الأمر، وأنا أقول:
ـ "ليس إلى هذه الدرجة، لكنني تساءلت إن كانت هي كلماتك أم نقلًا عن آخرين"
قالت على الفور:
ـ "هي كلماتي بالتأكيد"
ـ "رائعة كلماتك"
عادت لتبتسم، وهي تقول:
ـ "هل جربت التمثيل من قبل؟"
أومأت برأسي مؤيدًا:
ـ "كنت أمثل أيام الجامعة مع الفرق المسرحية، كما شاركت في فيلم من إنتاج الجامعة الأمريكية في أتلانتا لتعليم اللغة العربية، كانوا يقومون بتصويره في القاهرة"
فتحت عينيها عن آخرهما، ونظرت لي وقد تفاجأت بالأمر:
ـ "أنت تمزح!"
ـ "لا هذا حقيقي.. كنت أحب التمثيل، حتى أنني حاولت لفترة طويلة الحصول على دور في أحد الأفلام السينمائية.. لكن وجهي ليس محبباَ إلى الكاميرا، لذلك تركت الأمر بعد بعض الوقت"
انطلق بوق السيارة التي بجوارنا، لينبه (ريم) أنها قد انحرفت قليلًا عن الطريق وكادت تصطدم بها، فنظرت أمامها لحظات دون أن تعير الأمر اهتمامًا كبيراَ، وكأنها معتادة على تلك الأشياء، ثم نظرت لي من جديد وهي تقول:
ـ "لديك مواهب إذن"
ـ "ربما أنا من يعتقد ذلك وحدي"
ابتسمت تلك الابتسامة الطفولية، ونظرت لي نظرة لم أفهم معناها، وهي تقول:
ـ "سوف نرى ذلك"
هززت رأسي في عدم فهم، وأنا أسأل:
ـ "ماذا تعنين؟"
ـ "دعني أسألك عن أمر في البداية"
ـ "تفضلي"
ـ "هل تؤمن بأن على الممثل تقمص الشخصية التي يؤديها؟"

أومأت برأسي إيجاباً:

- "بالتأكيد"

- "أخبرني المزيد عن ذلك"

فكرت لثانية في المغزى من الحوار، قبل أن أجيب:

- "تقمص الممثل للشخصية يجعلنا ننسى أننا نعرف هذا الممثل عن ظهر قلب، ورأيناه في عشرات الأدوار من قبل، وننطلق معه في أحداث الشخصية التي يمثلها، دون أن يسقط أمامنا القناع الجديد الذي يرتديه كل مرة"

- "هذا رائع، لكن هل يستمر الممثل في تقمص الشخصية حتى بعد انتهاء التصوير؟"

لم أفهم ما الذي ترمي إليه من هذا الحوار بعد، لكنني عدت لأجيب:

- "ربما يتقمص البعض أدوارهم بشدة حتى لا يستطيعون الفكاك منها لفترة طويلة، وقد تلازمهم صفات الشخصية لبعض الوقت.. هكذا يقول بعضهم"

- "لست أؤمن بذلك كثيراً"

- "لماذا؟"

قالت مبتسمة:

- "يعني هذا أن تقمص ممثل لدور قاتل مأجور قد يدفعه لارتكاب جريمة ما!"

- "ليس إلى هذه الدرجة"

- "هذا ما أعنيه.. تقمص الممثل لشخصية لا يعني أنه يجب أن يحيا تلك الشخصية خارج إطار التصوير، وهذا هو مفهوم الاحتراف كما أعتقد"

ثم نظرت لي في لمحة خاطفة بطرف عينها، تتأكد أنني لم أعترض على الكلام، قبل أن تتابع:

- "لذلك يستطيع الممثل أداء أكثر من دور في نفس ذات الوقت. يمثل في هذا الفيلم دور رجل ماجن، وفي هذا المسلسل دور شيخ تقي، يبكي في موقع تصوير، ويضحك في موقع تصوير آخر بعدها بساعات، لكنه عندما يعود إلى المنزل لا يصبح هذا ولا ذاك.. بل يعود لشخصيته الحقيقية من جديد"

- "ربما أنت على حق"

- "وهذا هو ما أريدك أن تعرفه؛ فإن كنا في هذه الدنيا نؤدي أدوراً مكتوبة مسبقًا، لم يعد من الواجب أن نفرح حتى الجنون أو نحزن حتى الموت.. أليس كذلك؟"

ثم نظرت لي نظرة حانية، وهي تقول:
ـ "عليك أن تتعايش مع ذلك الأمر يا (يوسف).. كلنا نؤدي أدوارًا في الحياة، لكن من المهم أن نطمئن أن رحمة الله بنا سوف تكتب لنا النهاية الطيبة في الوقت المناسب"
ونظرت لي وقد التمعت عيناها بالشفقة والحنان، فأومأت برأسي، ثم عدت أنظر للطريق في صمت.
كنت شاردًا أفكر في كلمات (ريم)، لكن وقتًا طويلًا لم يمر حتى توقفت بالسيارة في هدوء إلى جانب الطريق، قبل أن تقول مبتسمة:
ـ "لقد وصلنا"
تلفتّ حولي أنظر إلى المكان أحاول أن أفهم إلى أين، فأشارت هي إلى لافتة قبل أن تقول:
ـ "هنا"
كانت اللافتة لملجأ أطفال، فنظرت إليها وأنا أقول بطريقة أحاول أن تبدو حازمة قدر المستطاع:
ـ "سوف أنتظرك في السيارة"
ـ "لماذا!؟"
ـ "لا طاقة لي على التعامل مع الأطفال"
ـ "لا تقل هذا أمام امرأة.. النساء تعشق الرجل الذي يحب الأطفال"
هززت كتفي، وأنا أقول:
ـ "لقد أخبرتِني مسبقًا أنك لا تميلين إلى هؤلاء الرجال ذوي الأعين الملونة"
قالت بطريقة جادة:
ـ "حتى وإن كان، سوف تأتي معي"
ثم هبطت في سرعة، لتفتح حقيبة السيارة، وهي تقول:
ـ "هيا.. هل ستتركني أحمل كل تلك الأشياء وحدي؟"
تنهدت في ضيق، ثم أذعنت للأمر.
وفي الداخل وقفت أنظر لذلك الزي الغريب الذي وضعته أمامي في سعادة وعلى شفتيها تلك الابتسامة المرحة.
ـ "أخبريني أن ما تقولينه مجرد مزحة"

قلتها في عدم تصديق، بينما بدت في عيني (ريم) نظرة طفولية متحمسة، وهي تقول محاولة إقناعي بالأمر من جديد:

ـ "لن تخسر شيئًا.. عليك أن تجرب"

ـ "لا أريد تلك التجربة"

ـ "صدقني سوف تستمتع كثيراَ.. فقط تخلى عن تلك الفكرة الجامدة، وابدأ بالتجربة"

قلت في رفض قاطع، حاولت ألا يبدو حادًا بصورة جارحة:

ـ "لا، لكن يمكنك تجربة ذلك بنفسك، وسوف أستمتع بالمشاهدة"

ـ "يمكنني فعل ذلك، لكنك لن تجني أي فائدة"

ثم ضمت كفيها ورفعتهما أمام وجهها ترجوني في صوت طفولي أن أقبل الأمر، فتنهدت محاولًا التفكير من جديد رغم عدم اقتناعي.

نظرت للثوب ذي المربعات الحمراء والزرقاء الملقى أمامي، ثم إلى ذلك الشعر المستعار المجعد ذي اللون الأصفر الفاقع، قبل أن أقول:

ـ "لماذا يجب أن أرتدي زي المهرج هذا!؟ ألا يمكن أن أكتفي باللعب مع الأطفال، الذين لا أطيقهم من الأساس!؟"

رفعت حاجبها الأيسر، ونظرت لي في لوم:

ـ "لقد تعهدتَ أن تستجيب، أليس كذلك؟ ثم إنك لست من ذلك النوع الذي يجيد اللعب مع الأطفال أصلًا"

ـ "لماذا إذن أتيتِ بي إلى هنا!؟"

ـ "يمكنني إخبارك.. أولًا لأن في ملجأ الأطفال هذا يمكنك أن تشعر بطاقة إيجابية لن تراها في كثير من الأماكن.. اللعب مع الأطفال أصلًا يثير البهجة"

مططت شفتي في استياء وأنا أقول:

"ليس بالنسبة لي"

لم تهتم بجملتي، لكنها عادت لتتابع:

ـ "ثانياَ: عليك أن تجرب أن تمثل من جديد. إن نجحت في إضحاك هؤلاء الأطفال؛ فأنت على بداية الطريق لإسعاد نفسك، وربما تكون قد فهمت الدرس جيدًا"

وتغيرت نبرة صوتها، لتصبح أهدأ، وهي تقول:

ـ "أنت بحاجة للتمثيل من جديد.. تُمثِّل الابتسام وفي قلبك الحزن، حتى يمتلئ قلبك بالاطمئنان، وقتها ستعلم أن الحياة كلها لا تستحق سوى أن نستقبلها بالرضا الخالص"

ـ "لا بأس، سوف أفعل، لكن بعد أن تعدينني أنك ستتوقفين عن إقحامي في تلك الأمور التي لا أحبها من جديد"

صفقت بيديها بتلك الطريقة الطفولية التي بدأت أحبها، وهي تقول:

ـ "هذا رائع.. سأتركك لترتدي ملابسك"

ـ "عديني أولًا"

بدا في عينها الكذب طفوليَا صارخًا، وهي تقول:

ـ "لا تقلق سوف أعدك"

ثم أشارت بيديها إلى صندوق خشبي صغير موضوع على المنضدة، وهي تقول:

ـ "سوف تجد أنف المهرج وألوان الوجه في ذلك الصندوق.. هل تريد المساعدة في ذلك الأمر؟"

هززت رأسي في استسلام، ثم قلت:

ـ "لا عليك، سوف أقوم بالأمر"

وابتسمت هي في سعادة، وتركتني لأبدأ ارتداء ثوب المهرج.

أمر غريب بالنسبة لي، ومحرج في ذات الوقت..

أن أرتدي تلك الملابس الملونة الغريبة، وأضع ذلك الأنف المكور الأحمر، وأدهن وجهي بتلك الأصباغ، لأقف أمام الأطفال الضاحكين في سعادة، وهم ينظرون لي وينتظرون أن أقوم ببعض الحركات المضحكة.

في البداية كنت مترددًا ومتحفظًا بعض الشيء، فبدأت بتحريك يدي ورأسي، ووجنتاي لابد أنهما كانتا محمرتين من الخجل والإحراج، لم يداريهما سوى تلك الأصباغ.

كان الأطفال يضحكون على أي حركة أقوم بها.

ونظرت إلى (ريم) الجالسة وسط الأطفال، فوجدتها تضحك في براءة طفولية. كانت نظرتها مطمئنة، حتى أنها بدأت تذيب الجمود الذي بداخلي، وبدأت أقوم بالمزيد من الحركات وأضحك مع الأطفال.

ثم تقمصت شخصية المهرج، وبدأت باللعب معهم..

كيف كانت تلك التجربة رائعة إلى حد لا يصدق! كنت أتقافز وأصطنع التعثر وأنظر إلى تلك الوجوه الصغيرة الضاحكة، واكتشفت أنني أضحك هذه المرة من قلبي.
واكتشفت أيضًا أنني لم أضحك بهذه الصورة منذ وقت طويل جدًا.

خرج الأمر عن السيطرة تمامًا، وأصبح المكان حولي كساحة معركة؛ إذ بدأ الرجال الثلاثة بإطلاق النار عشوائيًا على الجميع، بينما بدأ بعض الرجال يتساقطون والبعض الآخر يلقي عليهم بالرماح.

أما أنا، فقد جلست في الأرض أشاهد ما يحدث، وكأنني أتابع فيلمًا سينمائيًا في انتظار ما ستنتهي إليه تلك المعركة غير المتكافئة، وقد صمت أذناي تقريبًا من تلك الرصاصات المدوية التي مرت بجوارها.

تنبهت إلى صرخات (فريد) الذي كان يهتف بي أن أهرب، وتنبهت أنني لست مقيدًا إلى شيء.

ـ "لا تخف يا (فريد)!"

كنت أقولها في ثقة، وأنا أقوم واقفًا على قدميّ، ولا أدري لماذا لم يكن يخيفني الأمر، بل على العكس تمامًا، كنت في حالة من التشوق لمعرفة النتيجة النهائية لتلك الحرب الدائرة.

ـ "أيها الأحمق! ابتعد عن الرصاصات!"

ـ "سوف أنقذك يا (فريد)"

لم أفهم لماذا يصر (فريد) على الصراخ الهيستيري بهذا الشكل، ورفعت عيني، ونظرت إلى المتقاتلين حولي.

لم يعد هناك سوى اثنين من الرجال الذين يطلقون النار، ويبدو أن الآخر قد أصيب بينما اتخذ الرجل الأوروبي السيارة ساترًا منتظرًا أن تنتهي تلك المعركة، بينما تناثرت جثث بعض الراقصين العراة حول النار واحتمى البعض الآخر بالأشجار.

لم أكن في تمام وعيي، لكنني استطعت الوقوف على قدمي، والعَدْوَ في اتجاه (فريد)، وبدأت في محاولة فك وثاقه، بينما أخذ هو يحاول أن يحثني على الهرب وحدي إذ لن يستطيع العدو بساق مكسورة، لكنني كنت مصرًا على ألا أتركه أبدًا.

أفلحت فعلًا في فك تلك القيود الغليظة، فسقط جسد (فريد) أرضًا؛ إذ لم تتحمل ساقه المكسورة حمل ثقل جسده، فأمسكت بذراعه، ووضعتها على كتفي، لأساعده على الوقوف محاولًا حثه على المقاومة، وبدأت في التحرك مبتعدًا في صعوبة.

لم يكن الأمر سهلًا، لكن كان عليّ أن أساعد (فريد) على الهرب من هذا المكان الذي كنت أنا السبب في وجوده فيه.. لن تسامحني (ماريا) على ما حدث له أبدًا.

- "لا يمكنني السير"

قالها (فريد) وهو يحاول أن يسحب يده من على كتفي، ويلقي بجسده إلى الأرض، فمنعته وأنا أقول:

- "يجب أن نذهب يا (فريد).. لن تسامحني (ماريا) إن تركتك هنا، وربما لن تطهو لي ذلك الطعام مرة أخرى"

- "هل أنت بخير!؟"

سألني (فريد) ذلك السؤال، وهو ينظر لي بتلك الطريقة الغريبة المرتابة، ولم أفهم لماذا يسألني ذلك الأحمق، وأنا الذي يجب أن أطمئن على قدرته على الهرب.

- "أنا بخير، هيا بنا.."

وعدت لأحاول السير به، مبتعدًا محتميًا بالأشجار..

لم نكن قد ابتعدنا عدة خطوات أخرى، قبل أن أتهاوى على الأرض دون إرادتي، ويتهاوى جسد (فريد) بجواري..

لم أفهم للوهلة الأولى ما حدث..

لكنني تنبهت إلى الأمر بعد لحظة عندما أحسست بذلك الألم وتلك الدماء التي بدأت تتدفق خارج جسدي بغزارة.. وغمامة أمام عيني بدأت تحجب عني الرؤية تمامًا.

عزيزتي ريم..

أكتب إليك خطابي الأخير قبل تحركي غدًا إلى رحلة في الغابات المفتوحة..

ولا أدري لماذا لا أشعر بالحماس حتى وكأنني ذاهب لرحلة إلى السوق، وليس إلى ملاقاة المخاطر في تلك الرحلة.

لقد عرض عليّ (راموس) أمرًا غريبًا بالأمس، وهو أن يصطحبنا في رحلة غير عادية إلى الغابات التي يمنع دخولها؛ لخطورتها الشديدة، ولا يتسلل إليها سوى الصيادين لبعض القنص غير الشرعي.

ربما سأوافق على الأمر على سبيل التجربة، وزيادة جرعة المخاطرة؛ لعلني أشعر ببعض الحياة في عروقي.

لقد اتصلت بأبي وإخوتي بالأمس، ولم أخبرهم شيئًا عن الرحلة؛ حتى لا يشعروا بالقلق، فمجرد ذكري للأمر في مرة سابقة كاد يتسبب في مشكلة مع شقيقتي التي حذرتني من مجرد التفكير في الأمر؛ لخوفها الشديد من فقد شخص آخر، لذا أخبرتهم أنني في رحلة عادية أزور خلالها منابع نهر النيل، وبعض حدائق الحيوان لعدة أيام، ولن تتوفر لدي شبكة هاتف محمول للتواصل.

سوف أفتقدكم جميعا حقًا. لكن تعزيتي أنني سأراكم بإذن الله بعد وقت قريب جدًا..

أكتب الليلة الفصل الأخير في مذكرات ما قبل السفر إلى (أوغندا)، وأرسلها لك جميعها أيضًا، لتقرئيها وتخبريني إن كانت تصلح للنشر كرواية إن أضفت لها بعض الأحداث، وأعدت صياغتها في صورة تناسب الأمر.

لا تنسي أن تتصلي بأبي خلال تلك الأيام التي تسبق عودتي.. أعلم ما لاتصالك من تأثير إيجابي عليه، كما أنه يثق بك ولا أدري كيف حدث هذا من مجرد مقابلة بسيطة، فإن أخبرتِه باطمئنانك وأنني بخير سيصدقك حتمًا.

شيء أخير.. ألن تتصلي بي قبل سفري إلى تلك الرحلة التي لا أدري هل أعود منها أم لا!؟

على كل حال إن رفضت، فسوف تتحملين وحدك عواقب الأمر، وتعيشين بإحساس الذنب بداخلك.. فكري وافعلي ما تشائين.

في ذلك اليوم قررت الذهاب إلى العمل لأقابل (باسم) الذي رحب بوجودي كثيراً، وإن بدا على ملامحه بعض التخوف أن تكون زيارتي لمد إجازتي إلى فترة أخرى، فأخبرته أنني

أريد العودة إلى العمل، فأطلق تنهيدة مبالغًا فيها للتعبير عن ارتياحه، وضحك وهو يقول:
ـ "كنت أخشى أن تطلب إجازة أخرى، وفي هذه الحالة كنت سأصدق على قرار فصلك نهائيًا"
قلت مازحًا:
ـ "لم أكن لأمانع قرارك وقتها"
ـ "أعلم أن ما حدث شديد الصعوبة عليك، لكن العودة إلى العمل أمر جيد في كل الأحوال"
أومأت برأسي مؤيدًا، وأنا أقول:
ـ "هل توجد عمليات جديدة يمكنني البدء فيها؟"
ـ "لا توجد أكثر من العمليات التي لا يوجد من يقوم بها"
قلب في الملفات التي أمامه على المكتب، ثم استخرج ملفًا، ومده نحوي وهو يقول في حماس:
ـ "يمكنك أن تبدأ بهذا العميل"
فتحت الملف أنظر بين صفحاته في سرعة، أتأكد من وجود أرقام الاتصال، قبل أن أقول:
ـ "حسنًا، سأتصل به اليوم، وأنسق معه مواعيد العمل"
طرقات متعجلة على الباب، قبل أن يدخل (عمرو)، وقد علم بعودتي، فجاء مسرعًا ليرحب بي في سعادة.
ـ "حمدًا لله على سلامة عودتك يا (يوسف)"
ابتسمت، وأنا أقول في ود صادق:
ـ "شكرًا لك يا (عمرو).. افتقدت وجودي معكم حقًا"
ابتسم (عمرو)، ونظر لي في إشفاق وهو يقول:
ـ "للأسف لن يطول وجودك معنا هذه المرة"
لم أفهم جملته، بينما امتقع وجه (باسم)، وتوترت نظرته، وهو ينظر إلى (عمرو) الذي تردد لحظة، قبل أن يسأل:
ـ "ألم يخبرك (باسم) بعد بأمر العميل الجديد!؟"
أشرت بالملف الذي في يدي، فقال (باسم) مقاطعًا، وكأنه يريد أن يخفي عني أمرًا ما:

ـ "ليس بعد يا (عمرو).. لقد أقبل الرجل لتوه من إجازة طويلة"

قطبت حاجبي متعجبًا، وقلبت بصري بينهما متسائلًا في حيرة:

ـ "ما الأمر!؟"

عاد (عمرو) ليضحك ساخرًا، وهو يقول:

ـ "يريدون إرسالك إلى (أوغندا)"

ـ "(أوغندا)!؟"

رددتها مبتسمًا، وأنا أعتقد أنه يمزح، فعاد وجه (باسم) للمزيد من الاحتقان، وهو يقول محاولًا التبرير:

ـ "لدينا عميل جديد في (أوغندا)، وكنت أفكر أنك من يستطيع القيام بهذه المهمة"

عاد (عمرو) ليقول في تحد:

ـ "لم تخبره أنه تم إمضاء العقد، وأن العميل ينتظر من يسافر إلى هناك خلال أسبوعين"

هززت رأسي في حسم، وأنا أقول:

ـ "لست مستعدًا للسفر في كل الأحوال"

بدا التوتر جليًا على وجه (باسم) وهو يقول:

ـ "لماذا لا تفكر أن السفر سيكون مفيدًا لك!؟ اعتبره تغييرًا لنمط حياتك.. كما أنك لن تبقى هناك سوى لشهر واحد على الأكثر. لا تجعل طريقة (عمرو) في عرض الأمر تؤثر على قرارك"

لم تفارق الابتسامة وجه (عمرو)، وإن بدت متحدية أكثر وهو يقول:

ـ "أنا لست مسؤولًا عن رأيه.. يمكنه السفر أو الرفض حسبما يشاء"

قال (باسم) وهو يحاول ألا يفقد الفرصة في إقناعي:

ـ "يمكنك أن تفكر في الأمر، ولا تعطي ردًا نهائيًا الآن"

ثم أسرع ليلتقط ملفًا من على مكتبه، ويمده لي وهو يتابع:

ـ "هذا هو ملف العميل.. شركة في العاصمة الأوغندية (كمبالا).. يمكنك دراسة الملف وإبلاغي بقرارك غدًا أو بعد غد"

قال (عمرو) محذرًا، وقد أبدى لي أسباب مخاوفه الحقيقية من فكرة سفري إلى (أوغندا):

ـ "يمكنك أيضًا أن تتصفح الإنترنت لترى تحذيرات المسافرين بشأن المخاطر وعدد التطعيمات الواجب عليك تعاطيها قبل السفر"

صاح (باسم) في غضب، وقد فقد قدرته على الاحتمال:

ـ "نحن لا نطلب منك السفر يا (عمرو)! لماذا تحاول إفساد الأمر!؟"

أطلق (عمرو) ضحكة عصبية، وهو يقول:

ـ "أنا لا أحاول إفساد أي شيء.. لقد ناقشنا أمر سياسات قبول العملاء مع مجلس الإدارة في الاجتماع السابق، وقد أبدوا حرصهم الشديد على أمان الموظفين، لكن يبدو أنك مازلت تتخذ القرارات وحدك دون الرجوع إليهم بقبول عملاء في (العراق) و(ليبيا)، وهذه المرة عميل في (أوغندا)، وربما (أفغانستان) إذن في المرة القادمة إذن"

قال (باسم) في ذات الحدة:

ـ "(أوغندا) ليست (أفغانستان)؛ على العكس تمامًا، هي بلد من البلاد السياحية الرائعة، ولو كنت أستطيع الذهاب بنفسي لإتمام العملية لسافرت"

هتف (عمرو) متهكمًا:

ـ "حقًا!؟ وما الذي يمنعك!؟"

قاطعتهما، محاولًا إنهاء ذلك الحوار الحاد قائلًا:

ـ "دعكما من هذا الجدال.. سوف أفكر في الأمر حقًا"

لم يعقب أحدهما على كلماتي، إلا أن (باسم) نظر لي مشجعًا في رجاء، بينما بدت في عيني (عمرو) نظرة إشفاق وقلق.

نفس تلك النظرة رأيتها في المساء في عيني (زكريا)، وهو يردد الاسم في تعجب، حيث كنا نجلس في ذلك المقهى بالتحرير مع (عمرو)، الذي ابتسم وهو يقول:

ـ "تخيل! يريد الموافقة على الذهاب إلى (أوغندا)!"

هز (زكريا) كتفيه في حيرة وهو يقول:

ـ "لا أعرف شيئًا عن هذه البلاد!"

رشف (عمرو) رشفة من كوب الشاي الذي أمامه، قبل أن يقول:

ـ "لا يهم أن تعرف الكثير عن هذه البلاد، لكن يكفي أن تعرف أن عليك أن تحصل على عشرة تطعيمات على الأقل قبل ذهابك إلى هناك، هذا بخلاف أن معدلات الجريمة بها تحصد المراكز المتقدمة على مواقع السفر"

قطب (زكريا) حاجبيه بتلك الطريقة التي تذكرني بمدرس اللغة العربية في مدرستي الابتدائية عندما يوبخ أحدهم، قبل أن يسألني:

ـ "ما الذي يجعلك تسافر إن كان الأمر بهذه الصورة؟؟"

وضعت زجاجة المياه الغازية التي بيدي على الطاولة، قبل أن أقول في هدوء:

ـ "لست ذاهبًا إلى رحلة سياحية؛ إنه عمل، ولابد من إنجازه في كل الأحوال"

قال (عمرو) في عدم تصديق:

ـ "أنت تمزح! يمكنك رفض الأمر، ولن يستطيع أحد إجبارك على السفر!"

قلت على الفور:

ـ "من قال أنهم لا يستطيعون ذلك!؟ عقودنا تنص على ضرورة سفرنا إلى أي مكان يتطلبه العمل"

قال (زكريا) متسائلًا:

ـ "هل هذا حقيقي!؟"

أجاب (عمرو) في ضيق:

ـ "نعم، لكننا نحاول منذ شهور تغيير سياسة قبول العملاء في الشركة بعد الحادث الذي تعرض له أحد الزملاء منذ عدة شهور في (ليبيا)"

نظر له (زكريا) في اهتمام، وهو يقول:

ـ "ما الذي حدث؟"

ـ "تعرضت الشركة هناك لهجوم من مسلحين مجهولين، وكاد الأمر يودي بحياته"

قاطعته في هدوء:

ـ "أعلم أن ما أفعله قد يكون تهورًا يا صديقي، لكنني لا أعتقد أن (أوغندا) خطيرة إلى هذا الحد؛ فالأمور هناك مستقرة. وبالنسبة للأمراض، فسوف أتلقى التطعيمات الواجبة على سبيل الاحتياط. لقد كنت أرفض أمر السفر عندما سمعته للمرة الأولى، لكنني غيرت رأيي؛ أنا فعليًا بحاجة إلى خوض تلك التجربة"

ـ "أي تجربة تعني؟"

سألني (عمرو) في كثير من الضيق، فأجبت:

ـ "تجربة القليل من التجديد يا صديقي"

ونظرت لهما في صمت، وابتسمت مطمئنًا.

نعم أنا بحاجة للقليل من المخاطرة، لا أدري نوع المخاطر التي قد تنتظرني هناك، ولا أتمنى التعرض لشيء غير محسوب منها، لكنني بحاجة إلى شيء غير عادي، ذلك الشيء الذي قد يحرك الركود بداخلي، أو يساعد قلبي على الحياة من جديد.

لحظات قصيرة مرت علينا و(ريم) تنظر لي في صمت، وكأنها تترجم الموقف بعد أن أخبرتها بأمر اعتزامي السفر إلى (أوغندا)، قبل أن تعود لترتسم ابتسامه هادئة على ملامحها وهي تقول:

ـ "هل قرأت الرسالة الثالثة؟"

هززت رأسي مبتسمًا، وأنا أقول:

ـ "نعم"

أومأت برأسها مبتسمة، وهي تقول:

ـ "أعتقد إذن أن الأمر سيكون رائعًا"

ـ "أتمنى ذلك"

ـ " بالتأكيد، سوف يكون رائعًا أن تجرب الذهاب إلى بلاد لم تراها من قبل، واكتساب خبرات جديدة"

ـ "أنتِ أول من يحاول تشجيعي"

ـ "نحن نختلف عن الآخرين"

قالتها مازحة، وهي تضحك بطريقتها الطفولية المرحة.. كانت رسالة (ريم) هي التي شجعتني على اتخاذ قرار السفر، وخوض تلك التجربة.

غريب أنني كنت أتذكر الكلمات، وكأنني أحفظها عن ظهر قلب.

« جرب أن تبتعد إلى مكان لا تعرف فيه أحدًا ولا يعرفك فيه أحد.. جرب أن تحيا كشخص بلا ماض لبعض الوقت؛ ربما يساعدك ذلك على الابتسام في وجه الآلام عندما تعود.. جرب بعض المخاطرة؛ فربما يحرك ذلك الأمر النهر الراكد بداخل قلبك أو يساعده على النبض من جديد»

عادت (ريم) لتسأل وقد بدا حزن خفي في عينيها تحاول التغلب عليه:

ـ "متى السفر؟؟"

ـ "ربما في خلال أسبوعين على الأكثر"

ـ "هل حصلت على تأشيرة السفر؟"

ـ "ليس بعد، لكنها تصدر في خلال ثلاثة أيام، ويمكنني الحصول عليها في المطار هناك إن شئت.. إنها (أوغندا) وليست (ألمانيا)"

ـ "هل يتحدثون الإنجليزية هناك؟"

ـ "نعم، عرفت أنها اللغة الرسمية بخلاف لغتهم المحلية (اللوجندا)"

ـ "هذا جيد.. يبدو أنك بحثت الأمر.. سوف يمكنك التفاهم معهم إذن"

ابتسمت، وأنا أقول:

ـ "سأحاول ذلك"

ـ "ما الذي تحتاج لتحضيره قبل السفر؟ هل هناك ما يمكنني مساعدتك فيه؟"

ـ "لا شيء سوى أن تحصلي على التطعيمات بدلًا مني؛ لازلت أخشى الحقن إلى الآن"

ـ "ليتني أستطيع!"

ـ "لا تقلقي؛ سوف أرتب أموري، كما أنني لن أتغيب لفترة طويلة. هي شهر على الأكثر"

ـ "ليست بالفترة القصيرة، لكنها سوف تكون فترة مفيدة لك بإذن الله"

ـ "أتمنى ذلك كثيراَ"

وفي عينيها رأيت نظرة لم أفهمها، لكنها بدت لي كنظرة وداع.

ـ "كنت أريد أن أطلب منك شيئًا"

قلت في تأكيد:

ـ "بالطبع"

ترددت للحظات قبل أن تقول في صوت حاولت أن تجعله مرحًا، لكنه بدا يخفي شيئًا لم أفهمه:

ـ "طالما كنت أحب الطرق القديمة.. هل يمكننا أن نتراسل خلال سفرك؟"

ضحكت، وأنا أقول:

ـ "ماذا تعنين!؟ هل تقصدين أن أرسل لك خطابات في البريد!؟"

ـ "كنت أتمنى تجربة ذلك، لكن في هذه الحالة لن يسعنا أن نتبادل العديد من الخطابات، فلا أدري الوقت الذي يستغرقه وصول الخطاب عبر البريد العادي"

ـ "ماذا إذن؟"

ـ "سوف تراسلني عن طريق البريد الإلكتروني.. المهم في الأمر هو أنك ستكتب لي يوميًا عن كل شيء"
ـ "لا بأس، سوف أفعل"
ـ "هناك أمر آخر أريدك أن تعدني به"
ـ "أعدك مسبقًا"
ـ "لم تعرف ما هو قبل أن تعد"
ـ "هناك أشخاص يمكن الوثوق بهم، حتى أننا نقطع الوعود لهم دون تفكير"
ـ "حسنًا.. سوف تعدني أننا لن نتحدث هاتفيًا خلال فترة سفرك"
قلت في عدم فهم:
ـ "ولم هذا!؟"
ـ "لقد وعدتني"
ـ "سوف أفعل ما تشائين.. لكنني لا أفهم السبب"
ـ "سوف أستمتع برسائلك أكثر، وأنتظرها عندما لا يكون لدي سواها"
ـ "ولكن...
قاطعتني في هدوء محير:
ـ "عدني أنك سوف تفعل"
قلت مستسلمًا، دون إرادتي:
ـ "أعدك"
ـ "وعد آخر أريد أن تقطعه لي"
ـ "ماذا أيضًا؟"
ـ "أن تعود سالمًا"
لا أحب وداع السفر..
وعلى الرغم من إصرار أبي على توصيلي إلى المطار، إلا أنني تعمدت أن أتعجل الدخول إلى صالة المطار كي لا أطيل دقائق الوداع..
لقد أصبح السفر مخيفًا بالنسبة لي..
"اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل..
اللهم لا تريني بأسًا فيمن أحب.."
وتهدر محركات الطائرة لتنطلق في السماء تبتعد عن كل شيء..

عزيزي يوسف..

أعلم أن هذه الرسالة لن تصل إليك هذه الأيام؛ فأنت الآن كما أعرف في رحلتك إلى الغابات..

وربما يريحني قليلًا ذلك الأمر، وأنك لن تقرأ هذه الرسالة على الفور..

دعني أخبرك أولًا أنني لم أسعد في حياتي بمعرفة شخص مثلما أسعدتني معرفتك، منذ التقينا في مصعد المستشفى مصادفة وألقيت عليّ مزحتك السخيفة بشأن عدساتك اللاصقة المزعومة، ومنذ تحدثت معي لأول مرة وقد عرفت أنني فتاة محظوظة أن وضعك القدر في طريقي كي تضيء حياتي في أحلك أوقاتها ظلامًا.

أعلم أنك لن تفهم كلماتي على الفور؛ إذ ربما تعتقد أنني من وقفت إلى جوارك بعد فقدك لوالدتك رحمها الله، لكن الحقيقة أن وجودك في حياتي هو ما ساعدني على الوقوف على قدمي والاستمرار في الحياة.

لعلك تعتقد أيضًا أنك لم تفعل شيئًا، لكنك في الحقيقة قدمت لي الكثير.. ويكفيني أنني قضيت آخر أوقاتي معك قبل سفري، ولعلك تسامحني على ما أخفيته عنك.

يضحكني كثيراَ أن أري أنك لم تلحظ أشياء قد تبدو للآخرين جلية، لكن هذا يؤكد لي براءتك وفطرتك التي لم يغيرها الزمن.

لم تر أننا يوم التقينا في المصعد كنت أحمل الزهور في يدي، لكن ذات اليد كان بها تلك (الكانيولا Cannula) اللعينة التي لم تفارقني سوى القليل من الوقت في السنوات الأخيرة. كنت أخشى أن تلحظ أن الجميع في المستشفى يعرفونني بطريقة لا يمكن أن تكون مجرد معرفة لزائر عابر، لكنك أيضًا لم تنتبه للأمر، ولم تلحظ دعواتهم لي كلما رآني أحدهم بالشفاء.

نعم، ربما يبدو الأمر غريبَا، وإن وضعته في روايتك قد يعتبره البعض مبالغة أو ضربًا من الخيال، لكن الحقيقة أن ما يحدث لنا في الحياة قد يبدو أغرب من الخيال في بعض الأحيان.

سوف أسافر إلى (فرنسا) اليوم لأستعد لإجراء جراحة يعدني الأطباء أنها ستكون الأخيرة، ولا أدري كم من الوقت سأقضي هناك. يقولون أنها ربما ثلاثة أشهر، لكنني أرجو أن أعود قريبَا وأن ألقاك من جديد.

أرجو أيضًا ألا تستاء مني كثيراَ..

فرحلتي إلى (فرنسا) لم تكن قد تحددت، ولم أكن قد حصلت على الموافقة إلا قبل سفرك إلى (أوغندا)، ولم أكن أريد أن أثقل عليك بأموري وقد عرفتك في وقت قاس بالنسبة لك.. لكنك حقًا كنت لي صديقًا حقيقيًا، وربما أكثر من ذلك في وقت كنت فيه في أشد الحاجة إلى وجود شخص مثلك في حياتي.

دعني أخبرك أنني لم أطلب منك عدم الحديث هاتفيًا إلا لأجعلك تعتاد على ذلك؛ فلا أدري متى سأعود ولا متى يمكننا الحديث مجددًا.

فقط أريدك أن تعدني بأن تحتفظ بابتسامتك.. كم أحب ابتسامتك حقًا!

أرجوك عدني أيضًا أن تستمر في الكتابة..

اكتب لي كلما استطعت، وأتمنى أن يكون لدي القدرة على الرد على كلماتك في وقت ما.

أمر آخر تذكرته وأريدك أن تسامحني عليه..

لقد أخبرتك أنني لا أميل إلى أصحاب العيون الملونة.. لكنني أحببت لون عينيك حقًا..

حزينتين كانتا في معظم الأوقات، لكنهما صافيتان كأنهما بئر عذب لا يمل منه الشاربين..

لم أعرف أين أنا في الوهلة الأولى عندما فتحت عيني..
لكنني احتجت إلى بعض الوقت لأميز أن معنى تلك الأسرة ذات الأغطية البيضاء، وتلك الأجهزة المتصلة بالنائم على السرير المجاور الذي أدركت أنه (فريد)، تعني أننا في مستشفى ما.
لم أهتم كثيراً بتلك الرواية التي أخبرتني بها الشرطة المحلية بعد ذلك عن كيف استطاعوا الوصول إلينا، وكيف أن هؤلاء السحرة لم يكونوا سوى غطاء لعمليات بيع الأعضاء البشرية، يوهمون المرضى وطالبي الثراء بإمكانية تحقيق أحلامهم عن طريق تقديمهم للقرابين البشرية، والتي غالباَ ما تكون من الأطفال، حتى أن بعض هؤلاء يقدمون أطفالهم أنفسهم للحصول على شيء وهمي لا يحصلون عليه أبدًا بعد أن يقدموا أغلى ما لديهم إلى أولئك المشعوذين.
لم أهتم سوى بالسؤال عن (فريد) الذي علمت أنه يتعافى سريعًا مما مر به في تلك الرحلة، ثم سؤالي عن متى يمكنني العودة إلى (القاهرة).
كنت أشعر كأنني أريد أن أبدأ الحياة من جديد.. أن أرى هؤلاء الذين أحبهم، وأحيا كل لحظة كأنني ولدت للتو.. كنت أريد أن أري أبي وإخوتي و(ريم) التي كان هاتفها غير متاح طوال الوقت، ولم يكن لديِ وسيلة اتصال بالانترنت للإرسال لها، لذا كنت أجرب الاتصال هاتفياَ كل دقيقة تقريباَ أنتظر أن تفتح هاتفها، لكن الأمر أقلقني كثيراَ حتى أنني طلبت من أبِي الاتصال بها، والاطمئنان عليها، لكن بلا جدوى أيضًا.
لا أدري لماذا يسيطر عليّ شعور غير عادي بالاشتياق إلى (ريم)..
أفكر أحيانًا أن ما أشعر به ما هو إلا إحساس طبيعي نتيجة وجودها معي في تلك الفترة التي كنت أمر فيها بأصعب ما يمكن أن يحدث لشخص.. تلك الفترة التي فقدت فيها كل شيء.. أمي و(شاهندة) وحتى إحساسي تجاه الأشياء.
لكن الحقيقة أنني فكرت كثيراَ في الأمر، وانتظرت أكثر قبل أن أتأكد أن ما يدور في قلبي تجاهها ليس نتيجة لأي شيء سوى أنني كنت أنتظر أن ألقاها منذ وقت طويل، ولم يشأ الله أن يحدث هذا إلا في تلك الفترة ليعوضني عن تلك الآلام ويطيب قلبي ببعض رحمته.
أعلم أن ما أشعر به قد يكون له وقع غريب عليها، لكنني لن أطلب منها أكثر من التفكير في الأمر، ولعل ما أشعر به تجاهها مثل ما في قلبها؛ إذ كيف يمر تيار من العشق دون أن يكون بين قطبين!؟

عندما خرجت من المستشفى كان أول ما فكرت فيه أن أذهب لزيارة (فريد) و(ماريا)، التي اعتذرتُ كثيراً لها عن تلك الرحلة غير المحسوبة، لكنها ربتت على كتفي في ود، وابتسمت وهي تقول:

ـ "لم تكن غلطتك"

كنت أشعر بالذنب على ما حدث، وكنت أعرف أنه بسببي توقف (فريد) عن العمل للكثير من الوقت، وابتسمت (ماريا)، ثم عادت تقول:

ـ "لقد أعادكما الله لي سالمين، ويكفي أنه بسبب تلك الرحلة قد تتوقف عمليات قتل الأطفال لفترة أتمنى أن تكون إلى الأبد"

ـ "أتمنى ذلك أيضًا"

قلتها وانتابتني نوبة مفاجئة من السعال للحظات، فعادت (ماريا) تربت على كتفي في قلق وهي تقول:

ـ "ماذا بك؟"

تمالكت نفسي، وابتسمت وأنا أقول لهما مطمئنًا:

ـ "لا شيء، ربما برد خفيف بسبب الأمطار منذ تلك الليلة في الغابة"

ضحك (فريد) ساخراَ، وهو يقول:

ـ "لأنك لم تجرب من قبل النوم في كوخ من الصفيح أيها المرفه"

ـ "لست مرفها كما تعتقد، لكن لا أنكر أنني لا أقوى على ذلك"

ابتسما في صمت، فعدت أقول:

ـ "عندما رأيت تلك البيوت الصغيرة المصنوعة من الخشب والصفيح لأول مرة، تعجبت حقًا كيف يتأقلم الناس هنا للحياة بدون كهرباء في معظم الأوقات!"

قال (فريد) متهكمًا:

ـ "ألم أخبرك أنك مرفه!؟ هل تعتقد أن الكهرباء هي أكبر مشاكلنا الحياتية هنا!؟"

عدت أبتسم، وأنا أقول:

ـ "أنت على حق.. لكن هل تدري ما أبهرني بحق؟"

ـ "أخبرني"

ـ "عندما مررت ليلة السبت على تلك الأكواخ، وسمعت أصوات الموسيقى والضحكات تأتي من كل مكان. يغمر الظلام كل شيء حول تلك الأكواخ، لكن قلبها ينبض بالحياة

الحقيقية، وسألت نفسي وقتها: "كيف لمن يعاني من تلك المصاعب أن يحتفل ويتمتع بالحياة رغم كل شيء!؟"

ابتسمت (ماريا) وهي تقول:

ـ "نحن نبكي في بعض الأوقات بالتأكيد، إلا أننا نعود للابتسام مرة أخرى.. هكذا تعودنا أن نبتسم في وجه كل الصعاب؛ حتى نستطيع الاستمرار في الحياة"

كنت قد حضرت مفاجأة صغيرة لهما، فنظرت إلى (فريد) متسائلًا:

ـ "كيف حال العمل هذه الأيام يا (فريد)؟؟"

ابتسم في هدوء، وأشار إلى ساقه المجبرة بالجبس:

ـ "ليس بعد بكل تأكيد.."

ـ "سوف تشفى قريبًا جدًا بإذن الله"

أحاطته (ماريا) بذراعيها، وهي تقول:

ـ "سوف أفتقد رفقته لي طوال اليوم بعد ذلك"

سألت، وأنا أشير إلى الخارج:

ـ "أين (بودا بودا) خاصتك يا صديقي؟؟ لم أجدها بالخارج"

امتقع وجه (فريد)، بينما ظلت (ماريا) تحتضنه في قوة، وكأنها تشد من أزره، قبل أن يجيب:

ـ "لقد بعتها لصديق لي.. سوف أشتري واحدة أخرى"

كان يكذب بكل تأكيد بشأن شراء واحدة أخرى؛ فأنا أعلم أنه لم يبع دراجته إلا لكي ينفق على معيشتهما في تلك الأيام التي قضاها دون عمل بسبب كسر ساقه.

ـ "لم تخبرني لماذا أسميتم الدراجة البخارية (بودا بودا)"

كان سؤالي غريبًا، ولكنني كنت أريد أن أنسيهم ذلك التوتر الذي اعتراهما عندما سألت عن الدراجة، فابتسم (فريد) وهو يقول:

ـ "لقد سألت عن الأمر يومًا، فأخبرني أحد الرجال المتقدمين في العمر أنه كان هناك معبد لـ(بودا) في جنوب (كينيا)، ومعبد آخر في شمال (تنزانيا)، لذا كان السائقون قديمًا يرددون (بودا بودا) في رحلاتهم المكوكية لنقل الناس من معبد إلى آخر، ومنها تمت تلك التسمية"

كان (فريد) يتكلم في جدية، وكأن الأمر حقيقي، على الرغم من أنها ولابد مزحة من أحدهم أخبره بها وصدقها؛ إذ لا توجد معابد بوذية في (كينيا) أو (تنزانيا) على حد علمي، لكنني ابتسمت، وقمت من مكاني، ومددت يدي إليه، وأنا أقول:

- "هل أساعدك على الوقوف؟"

هز (فريد) رأسه في تعجب، وهو يقول:

- "لماذا؟"

- "أريد أن أريك شيئًا بالخارج"

مد (فريد) يده لأساعده على القيام، بينما وضع يده الأخرى حول رقبة (ماريا) واتجها معي إلى خارج المنزل في خطوات بطيئة.

- "ما رأيك؟"

قلتها وأنا أشير إلى الدراجة البخارية الجديدة التي وقفت خارج المنزل، فنظر لي (فريد) في عدم فهم، فعدت أقول:

- "هل تعجبك هذه الدراجة؟"

فتح (فريد) عينيه حتى آخرهما، وهو ينظر لي في عدم تصديق، فابتسمت وأنا أقول:

- "هذه هي دراجتك الجديدة يا (فريد)"

لم تختفِ تلك النظرة الذاهلة من عينيه، وهو يسأل في حيرة:

- "كيف!؟"

قلت مازحًا:

- "لقد اشتريتها لك، وأفكر في مشاركتك الربح، فهل تقبل الأمر؟"

ابتسمت (ماريا) في سعادة، بينما سالت دمعة من عين (فريد) وهو يقول:

- "شكرًا لك يا صديقي"

لم أجد كلمات يمكن أعبر لهما بها عن امتناني الحقيقي لهما، لكنني ابتسمت وأنا أقول في صدق:

- "بل شكرًا لكما أنتما على كل شيء"

يبتسم أبي في سعادة وهو يستقبلني في المطار، فأحتضنه في حب. لا يعرف بالتأكيد كم أحبه؛ ربما لأنني لم أتعود على إبداء مشاعري طوال الوقت فيما مضى، لكنني لم أعد كذلك. أخبرتني (ريم) أن علينا أن نبدي مشاعرنا الجميلة تجاه من نحب.

أكتب إليها كما وعدتها، أصف لها مشاعري نحوها لكنني لا أتلقى ردًا..

أبحث عنها في كل مكان..

لم تخبرني في رسالتها الأخيرة متى ستعود، لكنني أنتظرها كل يوم..

أتردد على المستشفي أسأل كل من أظن أنه قد رآها من قبل عله يعرف عن أخبارها شيئًا.. أقف تحت منزلها ساعات طويلة، ربما يشفق علي أحد الجيران، ويخبرني بكلمة قد تقربني من مكانها.

أتصل بهاتفها في اليوم مئات المرات، وترد عليّ تلك المكالمة المسجلة أن الهاتف مغلق أو غير متاح.

يسألني أبي عنها كثيراَ عندما نجلس سويًا في المساء، فأخبره أنها في رحلة طويلة إلى الخارج.

مازلت ألجأ إلى صندوق الرسائل، وأقرأ إحدى رسائلها كلما أحسست أنني بحاجة إلى الاستماع إلى صوتها.

«الحياة تجربة رائعة لن تتكرر.. حاول أن تذوق الألم كما تتذوق السعادة، واعلم أن كل شيء في الحياة ما هو إلا مجرد لحظات عابرة. ليس عليك أن تتوقف عند أي منها.. فقط دع كل الأمور تمر؛ فكل ألم ينتهي كما تنتهي السحب السوداء من السماء بعد يوم مطير»

أتقافز على ساق واحدة..

وأشير بيدي في حركات مجنونة، وأحرك جسدي يمينًا ويسارًا، بينما أقف مرتديًا تلك الملابس الملونة بالأحمر والأصفر، وقد صبغت وجهي بالألوان ووضعت ذلك الأنف الأحمر المكور..

يضحك الأطفال لحركاتي في سعادة، ويصفقون بأيديهم..

أنظر إلى تلك الطفلة الجميلة التي فقدت شعرها بسبب العلاج الكيماوي، وتنسل دمعة من عيني، بينما لم تفارق وجهي ابتسامة المهرج.

تجذبني ابتسامة طفلة أخرى، تذكرني نظرتها بنظرة أمي الحبيبة، فأعود لأبتسم من جديد..

وأبحث في الوجوه عن وجه (ريم)..

أعلم أنها ستعود قريبَا..

أو أنني سأصل إليها قريبَا جدًا..

أتحسس جيبي في سعادة؛ فقد حصلت اليوم أخيراَ على تأشيرة سفري إلى (فرنسا).. وغدًا سوف أكون هناك لأجدها..

أتقافز من جديد، فيضحك الأطفال بصورة أكبر، ويصفقون بأيديهم في مرح يطلبون المزيد..

أبتسم..

وأضحك على الرغم من تلك الدموع التي تملأ عيني، وأنا أراها أمامي تبتسم.

تمت بحمد الله

◄ إصدارات دار الفؤاد للنشر والتوزيع ٢٠١٧/٢٠١٦ ►

الكتاب	النوعية	المؤلف
دقات على باب الغربة	أدب رحلات	عبد الحميد السنبسي
أزمة ثقة - ط٢	رواية	رباب فؤاد
ولادة متعسرة	مجموعة قصصية	دعاء سيف
أقرباذين	مجموعة قصصية	محمد سمير رجب
نقطة.. رجوع إلى السطر	رواية	سناء البريتي
شعب مالوش كتالوج - ط٢	كتاب ساخر	أدمنز صفحة الضاكتور
خطوة لربك	شبابـي	عبد الرحمن سعيد
التوقعات المرئية للخطوبة المصرية	رواية	رضا ربيع
زوجة مستقلة	رواية	سلافة الشرقاوي
فانتوبيا	رحلة فانتازية	إسلام علي/إلهامي مجدي
حياة خفيفة على جناح فراشة	تلوين للكبار	آلاء زهير
شمس بين الضباب	توثيقي	محمود إمام
مرايا الروح	تأملات	عبير جمال الدين
بعض منا	مجموعة قصصية	عبير جمال الدين
ناريسا	رواية	ميرفت البلتاجي
اتفضل في الصالون	رواية	محمد محسن
وراء الحواس	شبه رواية	ياسين أحمد سعيد
مدينة العذارى	مجموعة قصصية	إسلام الحادي
الخطية	رواية	إيهاب ماهر
حور	رواية	طاهر مصطفى أحمد
الصبار لا يعطي ظلا	مجموعة قصصية	مجدي حشمت سعيد


دار
الفؤاد
للنشر والتوزيع